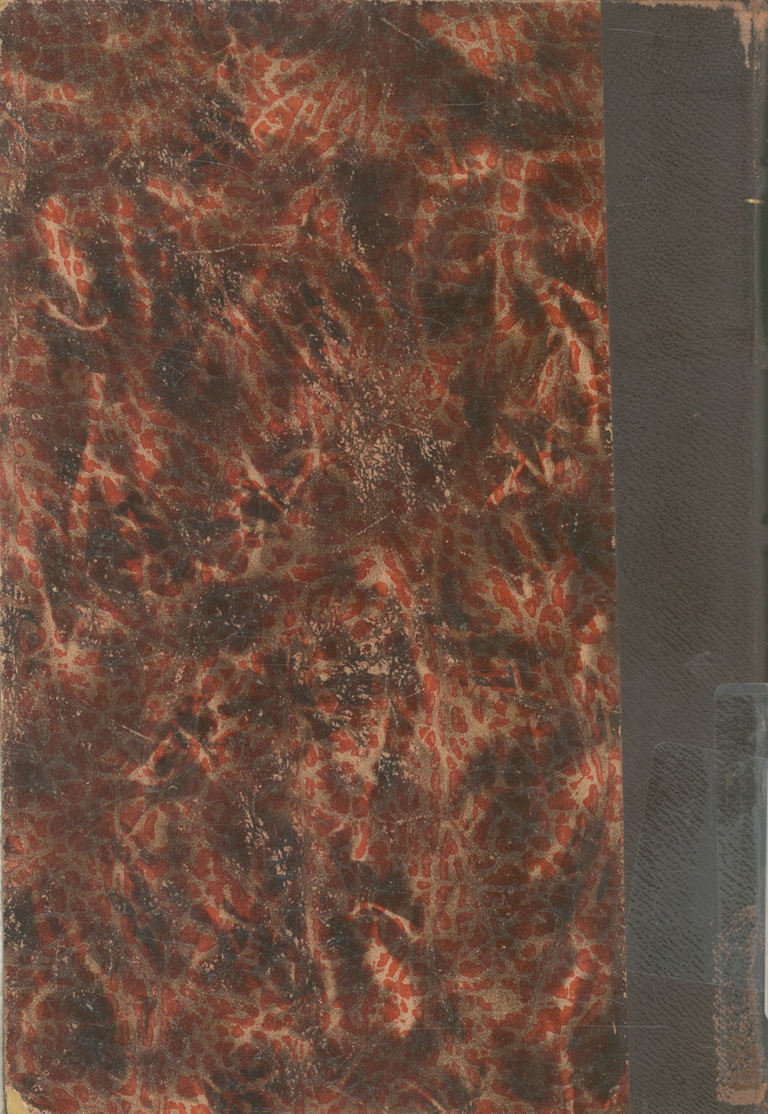


مقـدمة

سفرة الى فلسطـــين

القضية الفلسطينية حديثة العهد ، ووليدة الحرب الكبرى .

ليست فلسطين بلاداً مستقلة بالمعنى الجغرافي : هي اقليم من سوريا الكبرى وقد قسم الحلفاء هذه الوحدة الجغرافية الى قسمين : وضع القسم الشمالي تحت الانتداب الفرنسي ، وشطر القسم الجنوبي الى شطرين : شرق الاردن ، تأسست فيه امارة مستقلة تحت النفوذ البريطـاني ، وفلسطين ، وضعت تحت الانتداب الانكليزي :

وفي ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ صرح اللورد بلفور بوعده المشهور باسمه ، الذي يرمي الى انشاء وطن قومي في فلسطين . ولما وضعت الحرب اوزارهـا عملت الصهيونية على تحقيق منهاجها القائل بجعل فلسطين مملكة صهيونية. ومنذ ذاك الحين ظهرت القضية الفلسطينية . وابتدأ الصراع بين العرب والصهيونيين ، واتخذ الوانا عدة ...

وقد ضللت الصهيونية الرأي العام « في الغرب » بدعايتها المختلفة الانواع ، فكثيرون يعتقدون الآن أن منشأ اليهود من فلسطين ، وانها حق لهم . واذا ما تحدثت عن فلسطين خطر على فكر من تحدث اليهود ، واذا ما ذكرت اليهود عاد سامعك يفكر بفلسطين ! وكثيرون يعتقدون ان الصهيونيين جعلوا من فلسطين الصحراء جنة خضراء ، وانهم جلبوا الى من في فلسطين من العرب الرخاء والسعادة !

وكانت هذه الدعاية الصهيونية شديدة حتى انها ضللت المؤرخين والعلماء.

كنت اتحدث ذات يوم مع استاذ كبير في « الحقوق العامة » من اساتذة جامعة باريس ، مثل فرنسا امام لجنة الانتدابات في جنيف ، فذكرت له انني أود وضع كتاب عن القضية الفلسطينية ، ابين فيه حقيقة الحالة في فلسطين وموقف العرب . فاجاب مستفهما : « اتريد ان تكتب عن الاقليات » ! ؟...

ونشرت المطابع كتبا عديدة في مختلف اللغات عن القضيه الفلسطينية غير ان اكثريتها الساحقة ، للاسف ، وضعت لغاية الدعاية والتضليل ، ولم يخدم مؤلفوها الحقيقة والتاريخ ، ولكنهم خدموا قضية سياسية فريدة في نوعها ، خدموا الصهيونية . وكان هؤلاء المؤلفون احد نوعين: اما صهيونيين ، خصصوا اوقاتا في الكتابة لخدمة قضيتهم ، واما كتابا ابتاعتهم الاموال الصهيونية ...

وجهل « الرأي العام الغربي » حقيقة الحال في فلسطين لا حد له . وقد ظهر ذلك جلياً خلال عام ١٩٣٦ حينما اشتعلت نيران الثورة في فلسطين .

كنت حينئذ في لندن . فأخذت اتتبع ما كانت تنشره الصحافة البريطانية عن حوادث فلسطين فوجدت مع الأسف انه يخالف الواقع . وظهر لي ان اعمدة الصحف في بلاد الانكليز مفتوحة للاقلام الصهيونية ومغلقة امام كل من يود اظهار الحقيقة ، وتدوين الحوادث بصدق وامانة . ولا غرو في ذلك اذ ان المال الصهيوني كثير ، ولا يصعب عليه استعباد الصحافة . . .

وعدت الى فرنسا في ٦ يوليو (حزيران) ١٩٣٦ ، فوجدت ما تنشره صحافتها عن ثورة فلسطين واسبابها موجزاً ، ولا يختلف في جوهره عما كانت تكتبه الصحافة الانكليزية ...

* * *

واظهارا للحقيقة ، وخدمة لقضيتنا الفلسطينية عزمت على وضع كتاب عنها باللغة الفرنسية ، وهو الذي انشر ترجمته الآن . ولأجل ان اكون مطلعا تمام الاطلاع ، على الحوادث الخطيرة التي اجتاحت فلسطين حينئذ

٣

ولعلمي ، حق العلم ، ان ما كان يصلنا عنها في اوربا ناقص ومغلوط ، عزمت على السفر الى الوطن ، لدرس تلك الحوادث في مكانها.

وفي اصيل ١٧ يوليو (تموز) ابحرت الباخرة «شمبليون» بنا من مرسيليا متوجهة نحو الارض المقدسة . وصعد الركاب على ظهر الباخرة ليتمتعوا بمناظر مرسيليا الهادئة وشواطيء فرنسا الآخذة في الابتعاد عنا والتلاشي تحت نور الشمس . وكان هناك جماعتان وقفت كل منهما بعيدة عن الاخرى ومرتمة بشأنها . كانت الجماعة الاولى مؤلفة من الركاب العرب والاخرى من اليهود القادمين الى فلسطين ـ ولم يكن العرب من اقليم واحد ، بل كان بينهم المصري والفلسطيني والسوري والعراقي ، على انه من الصعب التفريق بينهم اذ ملامحهم واحدة ، وحركاتهم جد متشابهة ولغتهم واحدة . وكانت الوحدة مفقودة بين افراد الفريق الثاني : كان من بينهم السكسوني الصفات والجرماني الملامح ، والسلافي الشكل ... وكلهم لم يرثوا الانف المعكوف ، الذي خدم كثيراً في تميز اليهود عن غيرهم ، وكان دليل القرابة فيما بينهم . وحينما تقدمت منهم وجدتهم يتفاهمون بلغات عدة ، فلم استطع الامتناع عن التفكير: كيف حلم اللورد بلفور ، وكيف تريد الحكومة البريطانية خلق امة واحدة لها ميزات الامم التي كونتها القرون والاجيال، من هذه الافراد المتباينة والمتفرقة ، التي لايجمع بينها غير الدين! كأن تكوين امة يتوقف على ارادة رجل او حكومة !

وكانت هاتان الجماعتان تتبادلان نظرات الحقد والبغضاء ، وتأنف كل منهما مجالسة الاخرى والسكن في غرفة مشتركة ، والاكل على مائدة واحدة. وكانت إدارة الباخرة تجتهد لابعادهما عن بعض منعاً للاحتكاك ... ويمكن القول بان وضعية هاتين الجماعتين على ظهر الباخرة لم تكن الا صورة مصغرة لوضعية الشعب العربي واليهود في فلسطين .

* * *

وصلنا حيفا صباح ٢٤ يوليو (تموز) فودعت من تركت من الرفاق على ظهر الباخرة ، واستقبلت بعض الاصدقاء الذين تلطفوا بالقدوم لمقابلتي ...

وقبل وصولي بيت مضيفي اخبرنا ان حادثة مؤلمة قد وقعت : فحواها ان إحد موظفي دائرة التحري في فلسطين (الجواسيس)، وهو عربي ، اراد دخول الجامع ، واتفق ان كان واقفا على باب الجامع احد الفلاحين ، فقال « أأنت آت لتتجسس على ماذا يقول الناس حتى في الجامع » ثم تناول مسدسه واطلقه على (الجاسوس) فجرحه في رأسه ، وكان هناك بوليس آخر فافرغ مسدسه في صدر الفلاح ، فالقاه صريعا وجرح طفلا ...

لفتت نظري هذه الحادثة لا سيما وان بطلها احد الفلاحين . والتفت الى صحافي صهيوني كان برفقتنا قائلا : هذا هو الفلاح العربي الذي تقولون عنه انه لا يهتم بالسياسة وانه راض عن السياسة الصهيونية مرحب بها !...

وتناولنا الغذاء على عجل حتى اتمكن من اخذ القطار في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الاربعين قاصداً يافا . وقيل لي ان لا خطر على قطارات الركاب اذ الثوار لا يعتدون عليها حفظا على الارواح البريئة . وكل ما هنالك انهم يهاجمون قطارات البضائع ويلحقون بها اضراراً جسيمة . وقبيل وصولي محطة اللد شاهدت قطاراً مقلوبا ، كما انني رأيت في المحطة عدداً عظيما من العربات المهشمة

ووجدت في محطة اللد بعض الاهل والاصدقاء في انتظاري . فذهبت واياهم بالسيارة الى يافا . وفي طريقنا لفتت نظري سيارة ركاب يهودية تسير في مقدمتها ومن خلفها سيارتان كبيرتان مملوءتان بالجند البريطاني ! . ولاحظ الرفاق استغرابي ، فاعلموني بان كل سيارة يهودية تسير محروسة بسيارة بريطانية او اكثر . وفي كثير من الاحيان لا يقل عدد الجند البريطاني عن خمسين !

وصلنا يافا ... وبينما كنت اتناول فنجان القهوة اذ بدوي هائل يرج جدران البيت ، فترتج يدي وتتساقط القهوة ، ويبتسم الجميع من موقفي !

فقالت سيدة « ما ذلك الا دوي قنبلة ، وقد اعتدنا هذه الاصوات واصبحت مألوفة لدينا » ...

وكان حديثنا اثناء العشاء وبعده عن حوادث فلسطين . وقصت علي قصص عن مواقع الثوار مع الجند البريطاني ، يلوح لاول مرة انها خرافية، غير ان القاصين أكدوا وقوعها . وسأعرض بعضها في هذا الكتاب . ولما دقت الساعة العاشرة قالت ربة البيت ، « لاشك انك تعب من عناء السفر ، الاوفق ان تأخذ راحتك » . فذهبت الى الغرفة المعدة لي . غير ان النوم لم يأتني ، اذ اخذت افكر في ثورة فلسطين والمنهاج الذي اتبعه للوقوف عليها . ودقت الساعة الحادية عشر وانا على هذا الحال . وبعد دقائق سمعت طلقات نارية تبعتها اصوات المدفع الرشاش «مترليوز» وذوي القنابل . وظل ذلك حتى الفجر تتخلله فترات هدوء.

ولما عاد السكون ، وكان النسيم عليلا ، غلب علي النعاس فنمت نوما عميقا غير ان نعيمه لم يدم طويلا فقد اطار النوم من عيني صياح عال فاخذت اصغي اليه ، واذا به صياح بائعي الجرائد ، من الصبيان ، باسماء الجرائد التي يحملونها وكان سكان الحي ينادونهم من النوافذ والشرفات ، ليطلعوا على ما وقع من حوادث خلال الساعات الاربع والعشرين الماضية... ظننت ان الساعة الثامنة صباحا. نظرت الي ساعتي بعينين تعبتين ، وما كان اشد دهشتي عندما رأيت ان الساعة الخامسة فقط. ظننت لأول وهلة ان ساعتي واقفة . فوضعتها قرب اذني فسمعت تك تك... ثم اخذت انصت هل في البيت حركة ؟ فلم اسمع صوتا . فتأكدت ان ساعتي لم تخطئني . فحاولت النوم ولكن عبثا. صراخ بائعي الجرائد كان قويا ، وحديث المارة كان عاليا...

وحوالي الساعة السابعة سمعت صوت حركة في البيت فقمت ... ولما دقت الساعة الثامنة كنا جميعا حول المائدة .

— لعلك نمت جيدا فى هذه الليلة ؟ سألتني شقيقتي مبتسمة.
— كان نومي كنوم الذي يكون فى جبهة حربية لاول مرة .
— مع ان الليلة كانت هادئة بالنسبة الى ما سبقتها من ليال ...

واعلمت ، اثناء الحديث ، ان الحكومة منعت التجول من الساعة السابعة مساء حتى الساعة الخامسة صباحا . ولهذا فان اصحاب الجرائد ينتظرون اول دقيقة من ساعات الحرية فيطلقون البائعين فى الشوارع . واصواتهم تعلم الناس بان ساعات السجن قد انتهت ، فيخرجون باكرا ليستعيضوا عن ساعات المساء التي حبسوا اثناءها !.

وتدرج الحديث الى الاضراب الذي لم تعرف مثيله فلسطين ولا اي بلد آخر من بلاد العالم. وقد دام ١٧٦يوما ، كان الامن خلالها مفقوداً ...وتثبت لنا الحالة فى فلسطين ان سلطان الحكـومة مستمد من ثقة الشعب بها ومعاونته لها . فان زالت ثقته منها ، و كف عن مساعدتها ، اضاعت الحكومة قوتها الحقيقية ، وعادت عاجزة عن تنفيذ ارادتها وتثبيت الامن ، مهما كان لديها من قوات عسكرية ومواد حربية.

* * *

وقبل الدخول فى الموضوع تحسن الاشارة الى أن الصهيونية تريد ان يعلم «الرأي العام» أن الصراع القائم فى فلسطين صراع جنسي وديني . والحقيقة طبعا خلاف ذلك : العرب واليهود ينتمون الى جنس واحد ، الى الجنس السامي فكيف يمكن التكلم عن الصراع الجنسي بين شعبين من جنس واحد ؟! ولقد عاش ، قبل الحرب ، قسم من اليهود في فلسطين ، فلم يعتد عليهم احد ، بل كانوا فى امان واتفاق ودي مع العرب. فان كان بين الشعبين عـداء «جنسي» او« ديني » فلماذا لم يقع الخلاف مع اليهود طيلة المدة التي مكثوها قبل الحرب بين ظهراني العرب ، وكانوا اثناءها عزلا من كل سلاح وسلطان ؟! . بل

رأينا الاختلاف ينشب والقتال يأخذ اشكالا متنوعة بين الفريقين منذ الاحتلال البريطاني ؟! الا يدل ذلك على ان هناك اسبابا تريد الصهيونية اخفاءها ؟ .

ورأينا ابان الثورة الاخيرة الصحف البريطانية وعلى رأسها جريدة «التايمس» تنسب الثورة الى ايد اجنبية ، تريد بها ايطاليا . غير انها امام ثبات الثوار وتفاني كل عربي فى فلسطين ، وامام هياج الرأي العام العربي وسخط واشتراك العرب جميعا فى الثورة ، عادت واعترفت أن دواعي الثورة فى فلسطين سياسية محضة.

ومما لا شك فيه ان النضال القائم في فلسطين نضال سياسي ، واسبابه السياسة الصهيونية . الصهيونية تعمل على انشاء مملكة يهودية فى الاراضي المقدسة ، وتتخذ عموم الوسائل لاخراج العرب ، اصحاب البلاد ، من وطنهم . ولما يئس العرب من انصاف الحكومة البريطانية اياهم ، وشعروا بالخطر الذي يهدد كيانهم ، قاموا قومة واحدة مدافعين عن كيانهم ، ومطالبين بحقوقهم المهضومة . فالسياسة الصهيونية اذن هي سبب «المأساة الفلسطينية» «١» . ومما يؤسف له ان موقف الحكومة البريطانية ازاء هذه المأساة لم يكن مشرفا ، واقل ما يقال فيه انه بعيد عن كل عدالة.

والعرب ليسوا باعداء لليهود . وتاريخهم يري انهم كانوا لهم اصدقاء مخلصين ... وهم حتى اليوم لا يناضلون اليهود بل يقاومون المهاجمين باسم الصهيونية . فلو رجع اليهود عن سياستهم الصهيونية ، لزال كل خلاف بين الفريقين ، ولعاش العرب واليهود بسلام ، ولتمكنوا من العمل سوية في ترقية البلاد وتحسينها

وقبل ان اختم هذه المقدمة ، اود التصريح بانني لست من اعداء اليهود لانهم يهود ، بل ان درسي « الواقعي » للقضية الفلسطينية ، المبني على التقارير الرسمية وعلى « وضعية الحال » فى فلسطين ، قادني الى التقرير بان السياسة الصهيونية غير انسانية ، ظالمة خطرة ، تعمل على ابادة شعب او ابعاده عن بلاده. انني ضد هذه السياسة كعربي ، وانني ضدها ايضا كانساني يبغض العدوان والظلم.

---

(١) « المأساة الفلسطينية » عنوان الكتاب الذي نشرته بالفرنسية عن القضية الفلسطينية

لا تستطيع الصهيونية الادعاء بانها قد حلت المشكلة اليهودية ، ووضعت حداً لآلام بني اسرائيل : وقبل كل شيء ليس في امكان فلسطين ، لاسباب عدة نعرضها في هذا الكتاب ، ايواء الملايين من اليهود المضطهدين في انحاء العالم واعاشتهم . بل على خلاف ذلك فان الصهيونية زادت في شدة موجة البغض الموجهة ضد اليهود . ففي الوقت الذي يلاقي فيه اليهود في اوروبا انواع الشدائد لم تسع الصهيونية للاحتفاظ بالعطف او التساهل الذي كان يتمتع به اليهود في الشرق الادنى . فطموحها الى البلاد العربية عامة ، والى فلسطين خاصة ، نبه اصحاب البلاد ، وحضهم على محاربة الصهيونية وكره اليهود . فانتشرت في الشرق موجة البغض التي ولدها اليهود في الغرب .

الم يكن من الانسب لهم ان يحتفظوا بالشرق الادنى كملجأ يأوون اليه في ايامهم العصيبة ، كما كانت العادة طيلة العصور السابقة ؟ وعلى كل حال فان الوقت لم يفت وفي امكانهم المحافظة على مكانتهم في الشرق الادنى والعالم العربي والاسلامي ، بتخليهم عن المطامع الصهيونية ، وبعدم ايقاع الاضرار بكيان العرب في فلسطين وحقوقهم . وبازالة سبب الخلاف بين العرب واليهود ، تعود الحالة الى مجراها السابق ، ويتسع حقل العمل لليهود ، ليس في فلسطين فحسب بل في جميع البلاد العربية . هنا هي مصلحتهم الحقيقية . فهل لعقلاء اليهود ان يقدروا قيمة الفرصة الحالية ، وهل لديهم الشجاعة الكافية التي تمكنهم من انتهازها قبل فواتها ؟

واني لست من الذين يبغضون الشعب البريطاني . فالشعب الانكليزي شعب عظيم ، يعجب به ويحترمه كل من عرفه وفهمه . ولقد خالطت الانكليز ، ودرست في جامعاتهم ودخلت في معتركاتهم ، فتمكنت من تقدير عاداتهم الطيبة ، ونبلهم في الخصومة ، ورحابة الصدر التي يقابلون بها كل نقد صحيح . ولهذا فانني اعلن هنا بكل صراحة ، اعتقادي الراسخ بان الحكومة البريطانية لم تقدر

الحقائق فى سياستها الفلسطينية . وقد حادت عن العدالة فى معاملتها العنصرين اللذين يقطنان الارض المقدسة . ومما يدعو الى الارتياح ان عدداً كبيراً من مفكري الانكليز وساستهم يريدون من حكومة جلالته تغيير سياستها العقيمة التي اتبعتها حتى الآن فى فلسطين ، فتخرج من المأزق الذي تورطت فيه. وان هذا التغيير لجدضروري ان رامت بريطانيا العظمى ان تحتفظ بحسن سمعتها ، وبصداقة العرب ، وان ارادت المحافظة على مصالحها العديدة في البلاد العربية والاسلامية .

* * *

اصحيح ان اصل اليهود من فلسطين ؟ . وهل « الحق التاريخي » يجيز لهم الاستيلاء على الاراضي المقدسة ؟ امان العرب هم اصحاب البلاد من الوجهتين التاريخية والحقوقية ؟ . ثم ما هي الاستنادات الحقوقية والسياسية التي يستند عليها الوطن القومي اليهودي ؟ وما هي حقيقة العلاقات بين العرب والصهيونيين؟ ما هي اسباب الثورة الفلسطينية ؟ وكيف نشأت وتطورت ؟ . واخيراً هل من حل عادل عملي للمشكلة الفلسطينية ؟ . هذه هي المسائل التي حاولت درسها فى هذا الكتاب .

وهذا الكتاب هو ترجمة كتاب وضعته بالفرنسية ، واسميته « المأساة الفلسطينية » . والطبعة العربية تختلف عن الطبعة الفرنسية بعض الاختلاف اذ قد حذفت مما كتبت بالفرنسية عدة صفحات ، وزدت عليها فصلا كاملا ،وهو الفصل الخامس من الكتاب الثالث .

وقد اتبعت الطريقة العلمية فى هذا الكتاب ، كما كانت عادتي فى كتبي التي نشرتها بالفرنسية . وابتعدت عن الاسلوب الصحفي ، الذي اعتقد انه لا يفيد ان لم يكن يضر القراء ، ويحط مستواهم الفكري. وحاولت مخاطبة العقل

وليس الشعور . لان الغاية التي ارمي اليها في هذه الطبعة العربية هي عين الغاية التي رميت اليها في الطبعة الفرنسية : ايقاف « الرأي العـام » على حقيقة القضية الفلسطينية . فاجتنبت الجمل الجوفاء ، والاسلوب الحماسي الذي يهيج العاطفة موقتاً ، ولا يغذي العقل ولا يساعد على التفكير ، ولا يفيد القضية الا قليلا. فان قدر لكتابي هذا ان يحقق قسما من الغاية التي كتب من اجلها اكون قد وفقت ، فارتاح لقيامي بقسط زهيد من الواجب الذى علي نحو فلسطين، بلادنا العزيزة .

الكتاب الاول

الحركات القوميات العربية والصهيونية والحق التاريخي

الفصل الاول

الحركة العربية القومية

١

قبل ١٩١٤

قضي على استقلال الامة العربية في القرن الخامس عشر . وانتقل السلطان والخلافة منها الى الترك ...

ومنذ ذلك التاريخ اخذت الامة العربية في التقهقر ، وساد الجهل بين طبقاتها ، بعد ان كانت مصدر العلم والنور ومركز المدنية طيلة العصور الوسطى . وقد سعى الاتراك عمداً الى قتل كل حركة فكرية في البلاد العربية ، والى تعميم الجهل فيها ليسهل حكمها عليهم ...

نشرت ثورة ١٨٨٩ الفرنسية في العالم مباديء عديدة منها مبدأ القومية . وتشربت الشعوب المستعبدة روح هذه المباديء ، وأخذت تعمل خلال القرن التاسع عشر على التحرر من سلطان الاجنبي ، وتكوين وحدتها السياسية . فكان استقلال اليونان ورومانيا وتكوين الوحدة الايطالية والألمانية...

كان لهذه اليقظة القومية التي اجتاحت اوروبا صدى في البلاد العربية . فقامت في مصر والحجاز حركة استقلالية . وتمكنت مصر من الانفصال عن الآستانة ، وتكوين حكومة منظمة . وكان جيشها قويا واسطولها مهابا ، حتى ان جيشها هزم جيش الترك ، واكتسح سوريا وآسيا الصغرى وهدد العاصمة التركية ... وأخذ المفكرون من العرب في بث روح الميل الي العلم بين الشبيبة ،

ولما تكاثر عدد المتعلمين كثرت الخطب وتعددت المقالات وتنوعت الكتب الملأى بالمباديء القومية ، والتي ترى الشعب ان له تاريخا مجيداً وحضارة سامية خدمت الانسانية خدمات جليلة.

وزكت الروح القومية أواخر القرن التاسع عشر ، وعمت فكرة الحرية بين الطبقات المتعلمة في جميع الاقطار العربية . واخذ سياسيو العرب يطالبون «الباب العالي» بادخال اصلاحات على نظام حكم بلادهم، وان يشغل العرب وحدهم مراكز الحكومة فى الاقطار العربية.

وكانت الحكومة التركية تقبل تارة هذه المطالب ،وتعد بتنفيذها ، وتماطل تارة اخرى ، واخيرا وضعتها جانبا ، فهاج الرأي العام العربي . واشتدت الحملات الكتابية على الباب العالي .

ومن مفكري العرب وشخصياتهم اواخر القرن التاسع عشر «الكواكبي» وهو حلبي الاصل . حرر المقالات والف الكتب القومية، بينها كتابه الشهير «طبائع الاستبداد» ظهر عام ١٩٠٦ . وخاطب في نهايته بني قومه بهذا التعبير: «هل انا امام احياء ام امام اموات يترحم على ارواحهم ؟ يا لكم من تعساء ! أليس لكم راحة الاموات ولا قوة الاحياء . الى متى تنعمون فى سباتكم العميق؟... انظروا الى النمسا والمجر والى الولايات المتحدة الاميركية، فان يقظتهم وتقدمهم مكناهم من نيل وحدتهم القومية . لماذا لا نعبر السبيل الذي عبروه ، ونقول للاغراب الذين لا يتكلمون لغتنا : لتحي الامة ! ليحي الوطن ! لنعش احراراً أقوياء» (١)

وقد تجاوز نشاط الشباب العربي الشرق الادنى فعمل فى اوروبا . وفي عام ١٩٠٥ أسس من فى باريس من العرب «عصبة الوطن العربي» « La Ligue de la Patrie Arabe » وكان رمزها « البلاد العربية للعرب ».

(١) مترجم عن الفرنسية : انيس الصغير Le Sionisme et le Mandat Anglais en Palestine . صفحة ٤١

وكتب فى هذا الموضوع أحد مؤسسي العصبة ، كتاباً اسماه «يقظة الامة العربية في آسيا التركية» .

* * *

و بينما كان العرب فى نضالهم هذا قام شباب تركيا بثورة عام ١٩٠٨ واعلنوا الدستور . وصدر امر «بانتخاب نواب يمثلون البلاد في البرلمان الجديد . وكان مجلس النواب يتألف فى دورته الأولى من ٢٧٣ نائباً ، للعرب منهم ٧٠»(٢)فسر العرب ، وتركوا نضالهم مع الترك وايدوا الاتحاديين اعتقاداً منهم أنهم سينالون الحرية والمساواة فى ظل الدستور الجديد . ولكن ما لبثت الايام ان خيبت ظنهم ، اذ رأوا ان رجال تركيا الحديثة يسيرون على سياسة تتريك العناصر غير التركية فى الامبراطورية العثمانية ولا سيما العنصر العربي. فعادوا الى النضال بقوى مضاعفة وهم قعساء للوصول الى الغاية النبيلة. فاسسوا الصحف والقوا الخطب والمحاضرات، ووضعوا الكتب. ولم يكتف قادة الحركة القومية بهذه الاعمال بل انشأوا الجمعيات ، بعضها سري ، والنوادي ، وعقدوا مؤتمرات عديدة(٣)واخذت هذه التشكيلات تطالب الحكومة العثمانية بانصاف

---

(٢) امين سعيد : الثورة العربية الكبرى . الجزء الاول : صفحة ٣

(٣) واشهر هذه التشكيلات منذ عام ١٩٠٨ هي :

— جمعية الاخاء العربي : انشئت في الاستانة عام ١٩٠٨ ، كان لها نادء استقبلت النواب العرب استقبالا فخما . لم تمش طويلا .

— المنتدى الادبي العربي : انشيء في الآستانة عام ١٩٠٩ حل محل جمعية الاخاء العربي. كان رئيسه عبد الكريم قاسم الخليل . غايته تحرير البلاد العربية . اغلقته الحكومة التركية عام ١٩١٥ بعد ان اعدمت رئيسه.

— الجمعية العربية الفتاة : جمعية سرية . اسسها ثلاثة من الطلاب العرب في باريس،وهم، عوني عبد الهادي ، رستم حيدر ، والدكتور احمد قدري ، وقد انضم اليهم رفيق التميمي . كانت غايتها العمل على استقلال البلاد العربية وتحريرها . انتقل مركزها الى بيروت عام ١٩١٢ ثم الى دمشق اثناء الحرب.

— الجمعية القحطانية : تأسست في الاستانة عام ١٩٠٩ . غايتها جمع الكلمة وتوحيد الصفوف وبث المباديء الصحيحة بين افراد الامة .

العرب واعطائهم استقلالا داخليا. واشتدت الحركة اللامركزية بعد الحرب البلقانية اشتداداً عظيما . وتألف حوالي عام ١٩١٢ حزب اللامركزية في القاهرة برئاسة « رفيق بك العظم » . واخذ هذا الحزب على عاتقه اظهار فوائد اللامركزية والمطالبة بتنظيم حكومة في الامبراطورية العثمانية على قواعدها . ودمج هذا الحزب اعماله مع اعمال الجمعيات الاصلاحية التي تأسست في البلاد العربية : سوريا (ضمنها فلسطين) والعراق والحجاز، وعظم نفوذه فهابته تركيا كثيراً . ثم انتقمت من رجاله بشنق كثير منهم اثناء الحرب العالمية .

ولم يقتصر عمل العرب في هذا الدور على داخل البلاد العربية والتركية بل تعداها الى اوروبا والعالم الجديد . فتأسست في الاميركيتين جمعيات وهيئات

—— العلم الاخضر : اسست في الاستانة عام ١٩١٢ . غايتها تقوية الروابط بين الطلاب العرب وتوجيه قواهم الى تحرير امتهم.

—— حزب اللامركزية : تأسس في القاهرة حوالي عام ١٩١٢ برئاسة رفيق بك العظم . غايته ابانة محاسن الادارة اللامركزية ، والمطالبة بتنظيم الحكومة على قواعد اللامركزية في الادارة في جميع ولايات الدولة العثمانية.

—— جمعية بيروت الاصلاحية: تأسست عام ١٩١٣ . عملت على نشر مبادىء حزب اللامركزية

—— جمعية البصرة الاصلاحية : انشأها السيد طالب النقيب.

—— النادي الوطني العلمي في بغداد : تأسس عام ١٩١٣ برئاسة مزاحم الباجه جي ليكون فرعا لحزب اللامركزية.

—— مؤتمر باريس العربي : عقد عام ١٩١٣ . ارتبط بحزب اللامركزية.

—— جمعية العهد : انشأها في الآستانة البكباشي عزيز علي المصري عام ١٩١٣ . وهي سرية في الاصل . وغايتها السعي لاستقلال البلاد العربية الداخلي . ايدها الشبان والضباط . انشأوا لها فرعين في بغداد والموصل . خشيتها الحكومة التركية ، ففرقت رجالها.

—— الجمعية القحطانية في مصر : الفها حقي العظم بعد ان اقصاه حزب اللامركزية عن حظيرته . وغايتها مقاومة الترك وتحريض العرب على الثورة .

—— جمعية الجامعة العربية : الفها السيد محمد رشيد رضا في القاهرة . غرضها ايجاد الوفاق بين امراء جزيرة العرب ونبذ الشقاق ، والتعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وايجاد صلة بين الجمعيات العربية في جميع الاقطار العربية .

تجد في كتاب امين سعيد « الثورة العربية الكبرى » معلومات مفصلة عن هذه الجمعيات . الجزء الاول . صفحة ٦ ــ ٥٠

عديدة لخدمة القضية العربية . وكانت هذه الجمعيات على اتصال مستمر بالجمعيات العربية في الشرق الادنى.

وشعر الشبان العرب ، والجالية العربية فى باريس ، وكان عددها ٣٠٠ ، بضرورة المساهمة فى العمل الوطني ،لوقايةالوطن منالطوارىء ،ولأصلاح اموره على قاعدة اللامركزية ، ولنيل الحرية التي يسعون وراءها.ورأوا ، وصولا الى الغاية ، وجوب عقد مؤتمر عام فى باريس . فالفوا لجنة تحضيرية ، كان من بين اعضائها عوني بك عبد الهادي . وقررت هذه اللجنة يوم الثلاثاء الموافق ١١ مارس ١٩١٣ الارتباط بحزب اللامركزية . وفى يوم الاربعاء الموافق١٨يونيو (حزيران) ١٩١٣ افتتح المؤتمر جلسته الاولي في منتصف الساعة الثالثه فيقاعة الجمعية الجغرافية بشارع« سنتجرمن »،برئاسة عبد الحميد الزهراوي.وحضر هذا المؤتمر ممثلون عن الجمعيات والهيئات السياسية العربية من مختلف الاقطار

واهم المسائل التى تناولها البحث هى : الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال . وحقوق العرب فى المملكة العثمانية . وضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية .

وعقد المؤتمر اربع جلسات، كانت نهايتها يوم الاثنين الموافق ٢٣ يونيو (حزيران) ١٩١٣ . ووضعوا عدة قرارات رفعوها الى الباب العالي والى حكومات الدول الاوروبية . وكان اهم هذه القرارات : المطالبة بحقوق العرب السياسية واشتراكهم فى الادارة المركزية اشتراكا فعليا ، والالحاح بتنظيم الادارة على قاعدة اللامركزية فى البلاد العربية .

لم تقابل حكومة الاستانة عقد المؤتمر العربيفى عاصمة فرنسا بارتياحفسعت لاحباطه فلم تفلح . فحقدت كل الحقد على الذين قاموا به . ولما رأت ان صدى المؤتمر قوي ، وان الحركة العربيه آخذة فى الاتساع ،وانها ان لم ترض العرب، ستجابه ثورة لاتقدر على اخمادها ، تساهلتموقتا ، واتفقت مع قادة العربعلى منهاج يضمن للبلاد العربية حريتها الداخلية ويعطيها حقا بالاشتراك الفعلي في

حكومة الاستانة . وبعد ان قلدت نفراً من رجالات العرب مراكز عالية، اخذت تماطل في تنفيذ المطالب العربية التي وعدت بها . وامام هذه المماطلة اشتد حقد العرب واخذ التذمر ينتشر ، فزاد توتر العلاقات بين العرب والاتراك ...

هذه هي حالة العرب النفسية قبيل الحرب الكبرى . ان الثورة على سلطان الحكومة التركية ابتدأت تتمركز في القلوب العربية • ولم يعد العرب قادرين على الصبر اكثر مما صبروا • كرهوا العيش تحت نير الظلم والاستعباد • طالبوا بحريتهم وسعوا الى نيلها بالطرق السلمية ، فابت عليهم حكومة الآستانة ما يرومون • فاصبحوا مضطرين الى سلوك طرق اخرى • هم يريدون الحياة حرة في بلادهم او الموت الشريف — وما اشبه حالهم حينئذ بحال عرب فلسطين اليوم — اضاعوا الثقة بحكومة الآستانة واعتقدوا ان لا منجي لهم من نير الاستعباد التركي غير الثورة • الثورة الكبرى التي تعم جميع البلاد العربية ، فتقضي على القوى التركية وتعود على العرب بالحرية، والاستقلال التام • لقد عزموا على التضحية ، وقبلوا شراء حريتهم بدمائهم •••

وفي تلك الاثناء اعلنت الحرب . فاعتبرها رجالات الاتراك فرصة سانحة للقضاء على العناصر الثائرة في الامبراطورية العثمانية . فتساندت القوى التركية وعزمت على الانتقام من العرب ورجالاتهم : ارسلوا القواد والجنود العربية الى اشد ساحات الحرب خطورة ، ودفعوا بهم تعمداً في احضان الموت . زجوا المفكرين من العرب في السجون ، ونفوا العائلات . ثم ابتدأت تلك المحاكمات العسكرية الفظيعة في عاليه، وانتهت باعدام كثير من صفوة من كان في البلاد من قادة العرب السياسيين، والحكم بالموت على كثيرين ممن كانوا خارج الحدود العثمانية.

لم يكن الذين ذهبوا ضحية وطنهم العزيز عليهم من اقليم واحد من البلاد العربية ، بل كان بينهم الفلسطيني واللبناني والسوري والعراقي .

على ان هذه الفظائع التي اوقعها الاتراك بالعرب لم تثبط عزائم العرب. ولم ترجعهم

عن الخطة التي اختطوها لنيل الاستقلال والحرية . «لا فائدة لهم من قتلنا،ان الفكرة التي عملنا من اجلها ستبقى بعدنا» ،صاح فى ساحةالبرج فى بيروت الشاب المرحوم محمد المحمصاني ، ويد الجزار تطوق عنقه بالحبل ...

كانت هذه المأساة شرارة نار الثورة. ابى الشعب العربي الخضوع والذل، فقام بثورته الكبرى تحت قيادة الشريف حسين، امير مكة المكرمة.

٣
بعد ١٩١٤

لم يعلن الشريف حسين الثورة دون ترو . ولم تكن الثورة العربية وليدة ساعتها . اذ فكرة الثورة كانت مختمرة قبل الحرب الكبرى فى البلاد العربية ' وكان الشريف حسين على اتصال مع الجمعيات العربية السياسية . وهو لم يقم بالثورة العربية الا بعد ان اخذ عهوداً قاطعة على الحلفاء بمساعدته وباستقلال البلاد العربية بعد الحرب ، اتفق الطرفان على حدودها ، بمكاتبات رسمية ، بين الشريف حسين والحكومة البريطانية بواسطة معتمدها فى مصر السير ماكماهون . على ان هذه المكاتبات بين الشريف حسين والسير ماكماهون لم تكن اولى الصلات بين الشريف والانكليز . ونذكرها هنا بايجاز كيف ابتدأت الصلات بين الطرفين والاتفاق الذي ادت اليه :

رأت الحكومة البريطانية ان الالمان قد اكتسبوا ود الاتراك ، فعاد مركزها فى بلاد الشرق الادنى حرجاً ، فعمدت الى اكتساب عطف العرب فى شخص الشريف حسين.

وفى عام ١٩١٣ ، انتهز اللورد كتشنر ، معتمد بريطانيا فى مصر ، مرور الامير عبد الله بن الحسين بالقاهرة . وكان الامير يومئذ ممثل مكة فى مجلس

النواب العثماني ، فزاره اللورد مصحوبا بالمستر ستورس ، السكرتير الشرقي للوكالة البريطانية يومئذ ، زيارة شبه رسمية . واخبر اللورد الامير العربي انه اغتنم فرصة مروره بالقاهرة فاتى ليبلغه شكر حكومته على ما يلقاه الحجاج الهنود رعاياها من عناية والده ورعايته . فشكره الامير على زيارته ومجاملته ووعده بان يبلغ والده ذلك .

وفى اواخر يوليو (تموز) ١٩١٤ ، مر الامير عبد الله بالقاهرة ، فى طريقه الى الآستانة . وكان النزاع حينئذ على اشده بين الشريف والوالي التركي على الحجاز . واجتمع الامير فى هذه المرة ايضاً باللورد كتشنر والمستر ستورس. ودار الحديث حول السياسة التى تنوي انكلترا اتباعها ازاء العرب . وبين اللورد ان بريطانيا حريصة على ابقاء علاقاتها ودية مع تركيا ، وانها تساعد العرب ضمن هذه الدائرة مراعاة لتقاليدها القديمة .

واعلنت الحرب ،والامير عبد الله واخوه الامير فيصل فى الآستانة ، فعادا الى الحجاز عن طريق مصر . وكان اللورد كتشنر حينئذ وزير الحربية فى انكلترا . وبعد وصولها الى القاهرة، زار مستر ستورس الامير وسلمه كتابا من الحكومة الانكليزية الى شريف مكة ،«تشكره فيه على حسن قيامه بخدمة الاماكن المقدسة وسهره على راحة الحجاج ، وتقول ايضاً انها لا تعارض فى ارجاع الخلافة إلى العرب » (١) .

. وفى أواخر سبتمبر (ايلول) ١٩١٤ ، وصل الى مكة تاجر مصري يحمل كتاباً من المستر ستورس الى الشريف عبدالله، يقول فيه :

« امرني اللورد كتشنر وزير الحربية البريطانية ان اكتب الى سيادتكم لاسألكم فيما اذا كنتم وسيادة والدكم لا تزالون على رأيكم الاول الخاص بالدفاع عن حقوق العرب ، ولقد سبق ان اجابكم بعدم امكانه مساعدتكم فى تحقيقها، فان

(١) امين سعيد : الثورة العربية الكبرى . الجزء الاول . صفحة ١٢٧ .

في استطاعة حكومة جلالة الملك ان تقدم لكم المساعدات اللازمة بسبب عزم الحكومة التركية على الدخول في زمرة الاعداء، وخرق تقاليد الصداقة القديمة بين البلادين ». (١)

لم يجب الشريف على هذا الكتاب . وفي نوفمبر (تشرين الثاني) ، اي بعد دخول تركيا الحرب، عاد الرسول يحمل كتاباً آخر من مستر ستورس هذا نصه:

« بما ان الترك دخلوا الحرب في جانب الاعداء، فنحن على اتم استعداد لمساعدة شريف مكة في قضيته وتقديم كل ما يريده من مساعدة ». فاطلع الامير عبدالله والده على الكتاب فاجاب الشريف: « ليس في استطاعتي ان اعمل شيئاً قبل ان استشير العرب وأسألهم رأيهم »(٢) . فكتب الامير الى المستر ستورس مستمهلا وواعداً بابداء اقتراحات والده في المستقبل القريب.

* * *

وابتدأت المكاتبات الرسمية في ١٤ يوليو (تموز) ١٩١٥ ، بين الشريف حسين امير مكة ، والسير ماكماهون معتمد بريطانيا في مصر . واقترح الشريف حسين في تحريره الاول بتاريخ ١٤ يوليو (تموز) ١٩١٥ مساعدة بريطانية حربياً على شرط ان تعترف بريطانيا وحلفاؤها باستقلال البلاد العربية، وتساعد على ذلك، ضمن الحدود الاتية :

من الشمال ، خط يبتدىء من مرسين ـ ادنه ويمتد على درجة ٣٧ من خطوط العرض حتى الحدود الفارسية ، ومن الشرق حدود بلاد فارس والخليج الفارسي ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، ويستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي ، وغرباً البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط حتى مرسين . وعلى ان توافق انكلترا ايضا على اعلان خليفة عربي على المسلمين.

(١) امين سعيد : الثورة العربية الكبرى . الجزء الاول . صفحة ١٢٧
(٢) » » » » » » » ١٢٨

وقد اجاب السر ماكماهون بتحرير مؤرخ في ٣٠ اغسطس (آب) ١٩١٥، ان الحكومة البريطانية ترغب في استقلال البلاد العربية ،وتوافق على ان يكون الخليفة عربياً وعريق العروبة . غير انها ترى ان بحث مسألة حدود الدولة العربية المستقبلة في مثل هذه التفاصيل ، والوقت قصير والحرب قائمة ، سابق لاوانه، لا سيما وان تركيا لا تزال تحتل قسما كبيراً من البلاد العربية.

ورد الشريف حسين في تحرير بتاريخ ٩ سبتمبر (ايلول) ١٩١٥ ، مبينا ضرورة مناقشة مسألة الحدود ، التي هي نقطة اساسية . وقد صرح الشريف ان الحدود التي ذكرها في تحريره السابق ، ليست مطلب رجل واحد يمكن مفاوضته وارضاؤه بعد الحرب ، وانما هي مطلب الشعب العربي بما فيه سكان البلاد العربية التي كانت لا تزال تقاسي الاحتلال التركي — والشعب العربي يعتقد كل الاعتقاد ان هذه الحدود ضرورية لسلامته السياسية والاقتصادية . وابان الشريف انه ان لم يبت في مسألة الحدود فانه لا امل في تقدم المفاوضات. وقد اخذت وزارة المستعمرات البريطانية علما بهذا الكتاب في ٨ اكتوبر (تشرين الاول) .

واستلم الشريف حسين جواب السير ماكماهون المؤرخ في ٢٤ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٥ ، يقول فيه : بما ان العرب يعلقون اهمية كبرى على مسألة الحدود ويعتبرونها من المسائل الحيوية ، فقد طلب بعض التعليمات من الحكومة البريطانية ، وانه لسعيد ان يرسل الى الشريف البيانات التالية التي يعتقد انها ستفوز برضاه :

ان الحكومة البريطانية تعتبر « ان « مرسين »و« اسكندرونة » وبعض الاقسام السورية الواقعة غربي دمشق ، وحمص ، وحماه ، وحلب ، لا يمكن ان يقال عنها انها عربية محضة ، فيجب استثناؤها من الحدود التي ذكرتموها»...

« اما مايتعلق بولايتي البصرة وبغداد ، فان العرب يعرفون ان مراكز انكلترا ومصالحها فيها ، تتطلب شكلا اداريا خاصاً ، ومراقبة خاصة للمحافظة

على تلك الانحاء من الاعتداءآت الخارجية ،وتأمين راحةواطمئنان السكان، وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها »...

« وعلى اساس تلك التعديلات ، فان انكلترا مستعدة ان تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة ».

فأجاب الشريف حسين في تحريره المؤرخ في ٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٥ ، انه لا يستطيع التنازل عن « اقضية حلب وبيروت وسواحلهما » اي البلاد الواقعة غربي دمشق ، وحمص، وحماه،وحلب ، لانها عربيةصرفة ، وليس هناك فرق بين المسلم العربي والمسيحي العربي ، فكلاهما من نسل واحد .غير انه يتنازل عن ضم مرسين واضنه الى المملكة العربية . اما فيما يتعلق بالعراق، فانه ليس في الامكان اقناع الشعب العربي بالتنازل عن هذا القطر،الذي كان مهد حضارة العرب ومدنيتهم ... غير ان الشريف ،تسهيلا للاتفاق، يوافق على ترك الاراضي التي احتلتها الجيوش البريطانية تحت ادارة انكلترا اثناء الحرب .

وكتب السير ماكماهون الى الشريف حسين في ١٣ ديسمبر(كانون الاول) ١٩١٥،ان الحكومة البريطانية اخذت بعين الاعتبار ما جاء في تحرير الشريف.

وبما ان لحليفتها فرنسا مصالح في ولايتي حلب وبيروت ، فهي ستنظر الى المسألة دقيقا وستخابر الشريف بهذا الشأن مرة اخرى في الوقت المناسب . واكدت الحكومة البريطانية انها « لا تنوي ابرام اي صلح كان الا اذا كان من ضمن شروطه الاساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الترك والالمان » .

فاجاب الشريف حسين في ١ يناير (كانون الثاني) ١٩١٦ ، مؤكدا ان ما جاء في كتابه السابق فيما يتعلق بالاقسام الشماليةومرافقها ، هي اقصى مايمكن ان يوافق عليه من تعديلات ـ وخلافا لاضنه ومرسين فان الشعب العربي لا يترك اي جزء من اجزاء الاقاليم الشمالية . وكل ماهنالك انه يتجنب اثناء الحرب كل

ما من شأنه ان يسيء الى تحالف انكلترا وفرنسا.

فاعلم السيرماكماهون الشريف حسين بتاريخ ٣٠ يناير (كانون الثاني) ١٩١٦، ان الحكومة البريطانية « قد عنيت عناية خاصة بملاحظته بشأن ولاية بغداد، وستبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عندما تتم هزيمة الاعداء، وتصل الى التسويات السلمية ». وأنه، أي السرماكماهون، قد لفت نظر الحكومة البريطانية الى رغبة الشريف، فيما يتعلق بالجهات الشمالية، في تجنب كل ما من شأنه الاساءة الى تحالف انكلترا وفرنسا.

وختم السير ماكماهون كتابه بقوله: « والآن... وقد قررت البلاد العربية ان تشترك معنا في الدفاع عن الحقوق والحريات، وتعمل معنا في سبيل هذه القضية الهامة، فاننا لنرجو الله ان تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة، وهذا التعاون الوطيد، صداقة دائمة، تعود على الجميع بالسرور والغبطة »...

وبعد شهرين (١) كتب السير ماكماهون الى شريف مكة، ان الحكومة البريطانية مغتبطة جداً من الاجراءات الفعالة التي اتخذها الشريف، والتي توافق الاحوال الحاضرة حينئذ. واكد له مرة اخرى ان حكومة جلالته وافقت على جميع مطاليبه.

هذه هي النقاط الهامة في مراسلات الحسين — ماكماهون، التي تري بصراحة كيف ان الحكومة البريطانية تعاهدت مع الامة العربية في شخص الشريف حسين، على ضمان استقلالها ضمن الحدود التي عرضها الشريف.

وللقيام بالواجبات التي يفرضها هذا الاتفاق على العرب، ولنيل الحرية والاستقلال، رفع العرب راية الثورة وحاربوا الترك والالمان.

* * *

لم يقم بهذه الثورة اهل الحجاز وحدهم، بل اشترك فيها عرب فلسطين وسوريا

(١) الرسالة العاشرة والاخيرة من الرسائل التي تبادلها الشريف حسين والسر ماكماهون وتاريخها ١٠ مارس ١٩١٦.

والعراق .والتحق بها فريق من الجنود والضباط العرب من مختلف الاقطار العربية ،الذين كانوا في الجيش التركي،وقسم كبير من الاسرى العرب ، من مختلف الأقطار العربية ، الذين كانوا في معتقلات الاسر البريطانية بمصر. انضم هؤلاء جميعاً الى الجيش العربي الذي حارب الترك في الحجاز واخرجهم منها ، ثم زحف على شرق الاردن فاحتله ، وسند جيش اللورد اللنبي في زحفه على فلسطين . وقد سار الامير فيصل على رأس جيش لفتح الشام ، فدخل مدينة دمشق ظافراً ، وتأسست فيها دولة عربية نودي بفيصل ملكا عليها .

وساعد عرب فلسطين المحتلين ومهدوا لهم السبيل . وكانت مساعدتهم عاملا كبيراً على فوز جيش اللورد اللنبي في احتلال الاراضي المقدسة .(١) ولو كان اهالي فلسطين غير راضين عن دخول الانكليز بلادهم لكان من الصعب جداً، ان لم يكن محالا ، على الجيوش الانكليزية احتلال البلاد . ويعترف بذلك كثير من الضباط البريطانيين الذين اختبروا البلاد ورأوا حماس الشعب ورجولته. وشاهدوا الصعوبات التي عاناها الجيش الانكليزي اثناء الثورة الفلسطينية الاخيرة عام ١٩٣٦ .

اما ادعاء الصهيونية بان عرب فلسطين لم يحاربوا بجانب الحلفاء ، فادعاء باطل قائم على التضليل والبهتان . زيادة على ما قلناه من تسهيل عرب فلسطين للاحتلال وعدم مقاومتهم للجيوش البريطانية ، فان عددا كبيراً من عرب فلسطين اشتركوا في الثورة العربية، وحاربوا الترك والالمان لغاية واحدة : استقلال البلاد العربية . ومن ضمنها فلسطين طبعا . (٢)

(١) « ومما لا شك فيه ان فلسطين كانت في ذلك الوقت (١٩١٧) احدى البلاد العربية، وكان مالا يقل عن ٩٣ بالمئة من السكان عرباً ، ورغم وجود القوى التركية في البلاد ،فان مفاتحها كانت في ايديهم،وقدقدموا لنا مساعدات قيمة اثناء تقدم جيش اللنبي ».السير ميخائيل أودوير
(Selling the Arabs to the Jews) The Saturday Review

(٢) « ... وحتى شهر حزيران سنة ١٩١٨ ، كان تجنيد الجنود قائما في فلسطين لجيش الشريف حليفنا ، وقد أفهم الذين جندوا بانهم انما يحاربون في سبيل القضية الوطنية وتحرير بلادهم من نير الترك ، ويعتقد بان أولئك الجنود اشتركوا في الهجوم على الترك ».من تقرير اللجنة العسكرية التي عينت للتحقيق في الاضطرابات التي وقعت في القدس في شهر نيسان ١٩٢٠ . وقد ضمنتها (لجنة شو) في تقريرها صفحة ١٦٧ . راجع ايضا تقرير شو صفحة ١٦٦ .

ثم ان العرب لم يكونوا يوماً فلسطينيين وسوريين وعراقيين وحجازيين الخ... بل كانوا عرباً اولا وآخراً . قام قادة الفكر عندهم بتأسيس الجمعيات التي كانت تضم رجالا من جميع الاقطار العربية ، وتعمل لنيل حقوق العرب السياسية بصفتهم عربا وليس بصفتهم فلسطينيين او سوريين او عراقيين ... ولم تكن الفكرة الاقليمية موجودة في تلك الايام ، ولم تكن البلاد العربية مقسمة كما هي اليوم ، وما هذه التقسيمات الا عمل دول الحلفاء . «فرق تسد» مبدأ خدم كثيراً حتى الان دول الغرب ...

وكانت ثورة العرب عامة وليست اقليمية . ثار الشرق العربي وحارب الترك في سبيل استقلال فلسطين وسوريا والعراق والحجاز وغيرها من البلاد العربية ووحدتها . وعلى ذلك يكون اهل فلسطين قد اشتركوا في الثورة العربية اشتراك اهل سوريا واهل العراق واهل الحجاز فيها . اذ كل مجاهد كان يحارب لاجل استقلال جميع البلاد العربية وليس لأستقلال اقليم واحد منها .

ان قول الصهيونيين بان « الفلسطينيين » لم يدخلوا الحرب هو كالقول الذي يريد اقناع العالم بان « النورمانديين » — سكان مقاطعة نورماندي في فرنسا — او « الولزيين » في بريطانيا ، لم يشتركوا في الحرب ا...

لا شك في ان الثورة العربية كانت العامل الرئيسي على فوز الجيش الانكليزي الذي عبر القناة وهزم القوى التركية في فلسطين وسوريا . وقد اعترف جمال باشا ، قائد الجيش التركي في البلاد العربية ، واكبر عدو للعرب اثناء الحرب ، بانه لولا مساعدة العرب للانكليز لما عبر هؤلاء القناة ولما تقدموا في فلسطين وسوريا لمحاربة الترك، الذين اضطروا الى شطر قواهم والقتال في جبهتين : الجبهة الانكليزية ، والجبهة العربية ، مما ادى الى انكسارهم والى انتصار العرب والانكليز . واليك ما قاله في مذكراته :

« وكان جل همي في ذلك الوقت فبراير « شباط » ١٩١٦، ان اعمل لحمل

الشريف على ارسال كتيبة الى فلسطين بقيادة احد ابنائه . ولتحقيق هذه الغاية كاشفت الشريف فيصلا وفاوضته ملياً ، وتبادلنا مع الشريف حسين سلسلة رسائل وافية ، وفي النهاية اصبحت يوم ٢ يونيو (حزيران)١٩١٦ امام ثورة الشريف حسين ، فكانت ضربة قاضية على حملة القناة » .

« وقد اخذت افكر في امر الانكليز ، فرأيت انهم لو ارادوا مهاجمة فلسطين براً لتعين عليهم انشاء خط مواصلات بين القناة وفلسطين كما فعلنا ، وربط هذين القطرين بسكة حديد . ولم تجرأ كتيبة انكليزية فى عام كامل (١٩١٥—١٩١٦) على ان تطأ ضفة القناة الشرقية » .

« وأول ما اكتشفناه من اعمال الانكليز الدفاعية كان في اواخر شهر يناير (كانون الثاني) عام ١٩١٦ ، فقد حفروا استحكامات عند « رؤوس الجسور » في ضفة القناة الشرقية تجاه القنطرة والاسماعيلية . ويوافق تاريخ انشاء هذه الاستحكامات، تاريخ آخر خطاب ارسله الحسين الى الانكليز واكد لهم فيه خروجه علينا . ومن هذا يتبين انهم لم يقرروا العبور الى الشاطىء الشرقي ، او بعبارة اخرى،لم يبدأوابالهجوم علىفلسطين الا بعد ان استوثقوامن الشريف، وتأكدوا ان ثورته ستضطرنا الى اتخاذ تدابير خاصة لحماية الحجاز ، بل الى ان نسحب من فلسطين بعض قواتها . وفضلا عن ذلك ، فقد كانوا واثقين ان البدو الذين اغروهم بالاموال الطائلة المرسلة بواسطة الشريف، سيثورون ضدنا وان ثورتهم ستضعفنا كثيراً » .(١)

وبعد ان انتهت الحرب ، التي مكن العرب فيها الحلفاء من التغلب على الترك في فلسطين وسوريا والعراق ، عقد اجتماع « سان ريمو » ، وأعطيت فرنسا الانتداب على سوريا ، وبريطانيا العظمى الانتداب على فلسطين والعراق، مخالفين في ذلك ، اتفاقهم مع العرب ، والمادة ٢٢ من عهد عصبة الامم .

(١) مذكرات جمال باشا : تعريب احمد شكري ، صفحة ٢٨٩ .

الفصل الثـاني

الحركة الصهيونية

ان الصهيونية حركة قومية ، ذات صفة خاصة : نشأت في قوم شتتوا في انحاء العالم منذ اكثر من عشرين قرنا ، وهذا التشتت جعل هذا القوم فاقد الوحدة الجنسية ، ومحروما من لغة خاصة وثقافة مشتركة، اثناء تلك المدة الطويلة، ولا رابط بين افراده الا الوحدة الدينية والمعاملة السيئة .

وقد اختلف هدف الصهيونية حسب العصور ، فكانت ، في اول الامر، تعرب عن رغبة اليهود في ايجاد وطن لهم واحياء لغتهم وثقافتهم، ورمت اخيراً الى تحقيق هذين الهدفين في فلسطين .

والصهيونية اليوم حركة قومية ، ودينية ، واستعمارية (امبرياليست) .

١

منشأ الحركة الصهيونية

نشأت الصهيونية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولا يبعد تاريخها ، باعتبارها حركة قومية يهودية ، عن عام ١٨٨٢ . وحتى هذا التاريخ ، كان العامل الديني وحده يقرب فيما بين اليهود ، الذين كانوا متأكدين ان ليس في الامكان انشاء هيئة اجتماعية يهودية في كل شيء (١) .

وكان لتنبه القوميات خلال القرن التاسع عشر ، وانتصار الوطنين في المانيا وايطاليا ، واليونان ، وبلغاريا ، ورومانيا ، تأثير على الصهيونيين ، فحددوا

(١) السير هربرت صموئيل Cind 1499 - تقرير عن الادارة المدنية في فلسطين، ١٠ يوليو (تموز) ١٩٢٠ـ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٢١ صفحة ٤ .

مبدأهم ، واخذوا منذ ذلك الحين ينادون بان لحركتهم واعمالهم هدفا قومياً .

ويظهر لنا ان الحركة الصهيونية لم تكن نتيجة لمجرد التقليد في المباديء ، وان وضعية اليهود الشاذة والصعبة ، في كثير من البلدان الاوروبية ، كانت عاملا اساسياً في انشائها . ويؤيد ذلك قائمة اضطهادات اليهود في اوروبا في ذلك العهد :

نال اليهود في الروسيا عام ١٨٨١ ، في بداية حكم اسكندر الثالث ، اضطهاد عظيم . فاضطر الوف من اليهود الى الخروج من بلاد الروس ، بعد ان اعدم منهم مئات عديدة . وضيقت الحكومة عليهم الحياة ، فحددت قبول الطلاب منهم في المدارس والجامعات ، وضيقت عليهم مجال العمل في كثير من الاعمال الحرة ، كما انها حرمتهم من الالتحاق بالجيش الا في مراكز مهينة . وعملياً حرم اليهود في الروسيا حنيئذ من جميع الحقوق الا من حق الهرب ، فهاجروا في جماعات عظيمة الى الولايات المتحدة . وكان عدد من دخلها منهم ما بين ١٨٨١-١٨٩١ يزيد عن ٢٠٠،٠٠٠ مهاجر . واسس البارون موريس دي هيرش (Maurice de Hirsh) عام ١٨٩١ جمعية الاستعمار اليهودي :
(L' Association de la Colonisation Juive) في لندن ، واهتم بمهاجرة اليهود الي الارجنتين ، فدخل بعنايته ، هذه البلاد ١٠،٠٠٠ يهودي روسي ، غير ان معظم اليهود كانوا ولا يزالون ، يفضلون الاقامة في مدن الولايات المتحدة الكبيرة . فدخلها بين (١٩٠١ و ١٩١٠) ، ٩١٩٠٥٩ مهاجراً .

وقد سرت موجة الاضطهادات اليهودية بين عام (١٨٨١ و ١٩١٠) من الروسيا الى اوروبا الشرقية الوسطى ، فاضطر ٢٨١،١٥٠ من يهود النمسا والمجر و ٦٧٠٥٧ من يهود رومانيا ، الى الهجرة الى الولايات المتحدة . وفي الوقت نفسه هاجر كثير من اليهود الى بلاد الانكليز وجنوب افريقيا و كندا واستقروا فيها .

واتخذ الصهيونيون الاضطهادات المتوالية على اليهود ، اداة لاستثارة الشفقة ،

والعطف على قضيتهم . وفي الوقت نفسه احيوا شعور الاتحاد بين يهود العالم، فنشأت وظهرت فكرة وجود اليهود كأمة.(١)

٢

النظريات الصهيونية

ليست الصهيونية نظرية موحدة . فقد كان لها اهداف مختلفة . وكان القائمون بها مختلفين في الغاية التي يرمون اليها من حركتهم . وعلى كل، يمكن التمييز بين ثلاثة انواع من الصهيونية : الصهيونية السياسية ، الصهيونية الروحية الثقافية ، والصهيونية العملية.

ومفكر « الصهيونية السياسية » الاول كان يهودياً روسياً يدعى ليو بنسكر (Léo Pinsker)، نشر كتابا في برلين، عام ١٨٨٢، عنوانه «التحرر الذاتي» (L' Auto-Emancipation) . والمباديء الاساسية لنظريته هي كما يلي :

ليس اليهود طائفة دينية فحسب ، انما هم امة . ولهذا ، فان تحريرهم المدني والسياسي لا يكفيان لرفعهم في اعين الشعوب . والعلاج لذلك واحد : خلق قومية يهودية واعطاء اليهود بلاداً خاصة بهم . وهذا ، ما يسميه بنسكر، وسيلة تحرير اليهود الذاتي . (٢)

ولم يعين بنسكر البلاد التي يفكر في اعطائها الى اليهود ، ولم يرجح بلاداً على اخرى . وكان كل همه ان من الضروري اعطاء اليهود بلاداً يمكن اعتبارها ملكا خاصاً لهم ، ليأمنوا فيها خطر الطرد . وفي مثل هذه البلاد ، كان يريد « ان يجلب بنو اسرائيل معهم اقدس الثروات التي انقذوها من ارض اجدادهم

(١) «ان الامة في نظري ، جماعة من الناس لها كيان تاريخي ووحدة ظاهرة ، يؤلف بينها عدو مشترك • اضيفوا الى ذلك كلمة «يهود» تعرفوا ما افهم من عبارة « الامة اليهودية ». وانني اجد عدوها المشترك في اللاسامية» رأي تيودور هرتسل جاء في شهادته امام اللجنة الملكية الانكليزية عام ١٩٠٢ صفحة ١٠

(٢) راجع Léo Pinsker L'Auto - Emancipattion صفحة ٢٢ و٢٣

القديمة الفارقة: فكرة وجود الله والتوراة » . (١)
ويعتقد بنسكر ، فيما يتعلق بفلسطين انه « لا يجب على اليهود ان يتعلقوا بالمكان الذي زالت منه حياتهم السياسية بعنف ». (٢)
وكانت في ذلك الوقت ، فكرة ايجاد دولة سياسية يهودية، لاتزال في الهواء .
زار تيودور هرتسل، وهو من يهود النمسا ودكتور في الحقوق من جامعة فينا ، باريس عام ١٨٩٥ . فأثرت عليه كثيراً الضجة العظيمة التي قامت حول حادثة دريفوس (Dreyfus) ، وانتشار اللاسامية حينئذ في فرنسا . وفي ذلك العام كتب هرتسل في باريس كتابه « الدولة اليهودية » (L'Etat Juif) وكانت له ضجة عظيمة . وخلاصة بحث المؤلف تشبه كثيراً ما وصل اليه بنسكر قبل اربعة عشر عاماً . والغريب في ذلك ان هرتسل صرح ، فيما بعد ، بانه لم يكن يعلم بوجود كتاب بنسكر اثناء كتابته « الدولة اليهودية »(٣) .
وقبل ان يضع هرتسل قواعد « المملكة اليهودية » التي يرتئيها ، حكم على الخطط التي كانت ترسم لحل المسألة اليهودية . فقال ان فكرة الحكومة الروسية في تحويل اليهود العائشين في بلادها الى مزارعين ، قائمة على خطأ رئيسي، وان فكرة انشاء مستعمرات يهودية في الارجنتين وفي فلسطين ، لا تحل المشكلة اليهودية ، ولا تستطيع تقديم النجدات الى ملايين اليهود المضطهدين في انحاء العالم . وكان هرتسل بعيد النظر . وتنبأ بانه لا يمكن استمرار استعمار اليهود في الارجنتين وفي فلسطين الا الى حد ، تكون نهايته فاجعة مؤلمة . لان اهل البلاد سيشعرون يوماً ما بان مصالحهم مهددة وكيانهم في خطر ، فيثورون على الاستعمار اليهودي ويوقفون الهجرة اليهودية بالقوة (٤). وفي مؤتمر «بال»

(١ L' Auto - Emancipation : Léo Pinsker) صفحة ١٨
٢ « « » « » ١٥
٣ راجع: History of the Jews in Russia & Poland : S. M. Dubnow
جزء ٣ صفحة ٤٣ . ترجمه من الروسية الى الانكليزية : I. Friedlaender
(٤) هرتسل L'Etat Juif صفحة ٩ .

اعاد رأيه هذا بشدة ، وكرر تحذيره لليهود بهذا القول : « ان هؤلاء الذين يعتقدون أن في امكانهم دخول ارض اجدادهم « فلسطين» خفية لعلى خطأ عظيم، او هم يضللون الآخرين » (١) .

وبعد ان انتهى من نقد آراء مخالفيه ، وضع برنامجه لانشاء الدولة اليهودية. وكان يعتقد أن من الواجب ، قبل كل شيء ، احياء الروح القومية عند اليهود وانعاشها. وقد أعتقد أنه وصل بالفعل الى هذا الهدف بعد عقد المؤتمر الصهيوني الاول الذي سعى لعقده في مدينة « بال » عام ١٨٩٧، وضم ٢٠٤ من المندوبين اليهود ، جاءوا من جميع البلاد . كتب في مذكراته: « اسست الدولة اليهودية ... ان الدول تشاد على ايمان الشعوب بحقها في انشاء الدول . وان الارض ، ما هي الا الاساس المادي للدولة. وحتى انه متى وجدت تلك الارض، فالدولة شيء غير ملموس » .

هنا نلمس النقطة المركزية في نظرية هرتسل . ففي اعتقاده ان الايمان القومي اليهودي هو الشيء الضروري لانشاء الدوله اليهودية . وما الأرض الا امر ثانوي. ومع ذلك فقد اسهب كثيراً في الكلام عن هذه المسألة الثانوية في نظره، وقال « اعطونا السيادة على قطعة من الكرة الارضية ، تكون مساحتها كافية لتفي بحاجات الامة اليهودية المعقولة ، ونحن نقوم بما يتبقى » (٢) .وكان يعتقد انه ليس من صالح اليهود انشاء مملكتهم في بلاد لا يتوفر فيها شرطان اساسيان :

١ — ان يعترف باليهود فيها انهم مستقلون، وتكون لهم فيها السيادة المطلقة ، وان لا يكونوا مهددين، من الداخل ، من السكان الاصليين الواصلين الى درجة من المدنية والادارة ، ولا من حكومة اجنبية تود مراقبة السياسة الداخلية

(١) من خطاب هرتسل في المؤتمر الصهيوني الاول راجع:
the Congress Addresses of Theodor Herzel صفحة ٧
(٢) هرتسل L'Etat Juif صفحة ١٢

او الخارجية في الدولة الجديدة .

٢ — وان تكون مساحة تلك البلاد كافية لتسد حاجات خمسة عشر مليوناً من اليهود المشتتين في انحاء العالم .

وليس من الغريب ان نرى المفكر اليهودي البعيد النظر يحارب بكل قواه، في المؤتمر الصهيوني الاول الذي عقدعام ١٨٩٧ فكرة ايدها كثير من المندوبين، اصروا على ان يكون انشاء الدولة اليهودية في فلسطين . والسبب الدائم لهذا الاصرار عندهم،ان فلسطين كانت «ارض الاجداد»،«الارض التي فيها ازدهرت سابقا المدنية اليهودية» و«وطن اليهود القديم» .

هذه العقيدة الشعورية والنفسية كان لها صدى هائل بين جماهير اليهود الجاهلة ، كما هي حال جميع الجماهير ، والتي هي اعجز من ان تفهم الصعوبات،الحالية والمستقبلة،في مثل هذا المشروع. ومع ذلك ، فان اقلية كبيرة ، من مفكري اليهود ورجالهم العمليين ، فهمت رأي هرتسل والخطر الذي يلحق باليهود من تشبثهم في انشاء دولة يهودية في فلسطين .

وانشقت صفوف الصهيونيين بعد مؤتمر عام ١٨٩٧ ، وتكون فرعان للصهيونية السياسية : (١)الصهيونية العاطفية،التي كانت قواها وعاطفتها تتجه نحو فلسطين ، «٢» والصهيونية «العاقلة» التي بشربها نخبة من مفكري اليهود ، وكانت تريد القيام بعمل دائم ، وانشاء الدولة اليهودية ، على اسس منطقية ، حاسبة للواقع حسابه . واتباع هرتسل الحقيقيون ، هم الذين دانوا بهذا الفرع من الصهيونية السياسية . وقادهم فيها بعداسرائيل زانكويل(Israil Zangwill)، وانتهى بهم الامر الى ان انفصلوا عن الصهيونيين الآخرين واسسوا عام١٩٠٦ «الهيئة اليهودية للبحث عن الارض»(L'Organisation Territoriale Juive)، وعرف اعضاؤها «بالباحثين عن الارض» (Les Territorialistes)

* * *

ولنعرض الان بايجاز مفاوضات اليهود الفاشلة التي قاموا بها ،بدافع من

الصهيونيين العاطفيين ، بين ١٨٨٢ و١٩١٤ ، مع حكومة الآستانة حينئذ للوصول الى السماح لهم بالمهاجرة الواسعة الى فلسطين .

ففي ربيع عام ١٨٨٢ ، انشأ فريق من شباب اليهود الجامعيين «ابناء الجامعات» في «كراكوفي» في بولونيا ، جمعية غايتها تسهيل انشاء مستعمرات زراعية عديدة في فلسطين. وابتدأ هذا الشباب المتعلم بمفاوضة الدولة العثمانية لنيل اذن بانشاء المستعمرات في قسم كبير منها . ولكن جهودهم ذهبت عبثا ، ولم يسمح الا لعدد قليل من اليهود بدخول الارض المقدسة والاقامة في المستعمرات اليهودية القديمة .

واتجهت الهجرة اليهودية نحو اوروبا الغربية ونحو الاميركيتين . وظلت الطلائع اليهودية في فلسطين محدودة . لان الحكومة العثمانية جدت في منع اليهود من الهجرة اليها والاستيلاء على الاراضي فيها . وزيادة على ذلك ، فقد كانت مالية هذه الطلائع محدودة جداً ، وكانوا عديمي الخبرة الزراعية ، فمنيت اعمالهم بالفشل .

وكان يأتي الولايات المتحدة سنويا ، حتى عام ١٨٨٢ ، نحو عشرين الف مهاجر يهودي ، فشعرت حكومتها بالخطر وارادت تحويل المهاجرة عنها. فتحادث السفير الاميركي في الآستانة مرارا مع وزير الخارجية التركي في شأن اسكان اليهود في فلسطين وسوريا . فقبلت الحكومة العثمانية بسكنى اليهود في الاراضي غير المأهولة في العراق .. وحوالي حلب وعلى ضفاف نهر العاصي في سوريا . ورفضت رفضا باتا اسكان اليهود في فلسطين.

وتدخلت انكلترا في الامر عام ١٨٨٧ ، دون جدوى. وبدلا من ان تلين الحكومة العثمانية في سياستها ، فقد اصدرت عام ١٨٨٨ ، انظمة جديدة حددت فيها المدة التي يستطيع خلالها اليهود الاجانب الاقامة والتجول في فلسطين ، بثلاثة اشهر، ولم يسمح بالدخول الا للذين يحملون منهم «جوازات سفر»

تشير الى ان حامليها ذاهبون الى القدس للزيارة ، ولا ينوون الاقامة في الارض المقدسة .

وفي ٢١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٠١ اعاد الباب العالي انظمة عام ١٨٨٨. حاول هرتسل ، تحت ضغط « الصهيونيين العاطفيين » المفاوضة مع السلطان عبد الحميد ، بين عامي ١٨٩٣ و١٩٠٣ . وكان السلطان يود منح اليهود اراض للاستعمار في تركيا ، غير انه اعاد رفضه البات في السماح لهم بسكنى فلسطين.

وفي عام ١٩٠٣ قدم هرتسل الى المؤتمر الصهيوني السادس نتيجة مفاوضاته. وكانت الخطة التي قبلت بها الحكومة التركية تنص على انشاء مستعمرات يهودية متفرقة في انحاء الامبراطورية العثمانية ، دون ان يكون بينها رابط.(١)فلم يثر هذا المنهاج حماس اليهود ولا رضاهم .

ولما اعلنت الثورة التركية عام ١٩٠٨ ، عاد الى اليهود نشاطهم ، واعتقد كثيرون منهم ان « فتيان تركيا » اكثر تساهلا ومودة الى اليهود من رؤساء الحكم القديم . ولكن خاب ظنهم سريعا . وافقت الحكومة الجديدة على سياسة عبد الحميد الفلسطينية كل الموافقة ، وابقت انظمة عام ١٨٨٨ التي حددت وضيقت المهاجرة اليهودية الى فلسطين. واخذ عداء الحكومة العثمانية للصهيونية يظهر بجلاء . ففي خلال عام ١٩١١و١٩١٢ هاجم كثير من النواب ، في البرلمان العثماني ، الصهيونيين لطموحهم في فلسطين وامرت الحكومة السلطة في فلسطين ان تسهر جيداً على تنفيذ الانظمة التي تحظر على اليهود امتلاك الاراضي .

وعام ١٩١٤ ، قبيل الحرب الكبرى ، سنت حكومة الآستانة انظمة اخرى من شأنها ان تشل حركة المهاجرة اليهودية الى فلسطين .

هذا الموقف الثابت الذي اتخذه الترك امام الصهيونية ، موقف التوجس

(١) راجع خطاب هرتسل في المؤتمر الصهيوني السادس صفحة ٣٤
The Congress Adresses of Theodor Herzel

واليقظة والحرص على سلامة فلسطين ، حمل الصهيونيين العاطفيين على التفكير . وتحققوا ، بمدجهود عقيمة ، ان فلسطين ليست بلاداً خالية . بل يعيش فيها، منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا ، قسم من الشعب العربي، تحميه الحكومة العثمانية ، التي اظهرت انها لا تقبل بتضحيته خدمة للمصالح الصهيونية .

وزيادة على ذلك، فقد شملت الشعب العربي، في فلسطين وغيرها من الاقطار العربية، منذ سنين ، حركة استقلالية ، وكانت هذه الحركة تناهض الصهيونية وتحارب مطامحها في فلسطين . وبالايجاز فان الحوادث جاءت دليلا ساطعا على صواب رأي هرتسل ومن تابعه من الصهيونيين المتعقلين الذين رأوا، ببعد نظرهم ، ان القضية اليهودية لا تحلها فلسطين . وكان هؤلاء المفكرون من اليهود يريدون ايجاد حل عملي تام لقضيتهم ، قائم على الواقع والعمل وليس على العاطفة.

* * *

ونشأت « الصهيونية العقلية » بعد عام ١٨٨٢ . وبما انه من الصعب استثارة حماس الجمهور بمخاطبة عقله و ذكائه بدلا من عاطفته ، لم يتمكن ، هذا النوع من الصهيونية ، من اجتذاب قلوب الجماهير اليهودية . فلم تبذل هذه الجماهير مجهوداً لفهمه ولم تعطه المساعدة اللازمة ، بالرغم من ان الزعيمين بنسكر وهرتسل هما اللذان وضعا مبادئه .

ومع ذلك فان محاولات الصهيونيين العقليين او الواقعيين، لحل المسألة اليهودية، تستحق الذكر :

اقترح هرتسل عام ١٨٩٩ بان يحول مجرى المهاجرة اليهودية الى جزيرة قبرص . فولد اقتراحه جدلا طويلا في جميع الدوائر اليهودية، واخيراً لم يرق لهم فترك.

وارتأى هرتسل عام ١٩٠٢ اسكان اليهود المضطهدين، ولاسيما يهود الروسيا ورومانيا ، في جنوب فلسطين وشمالي صحراء سينا . فلم يكن لرأيه هذا نجاح اكثر من اقتراحه السابق .

وفي السنة التالية ، قبيل عقد المؤتمر الصهيوني السادس ، عرضت انكلترا على اليهود بلاد« اوغندا »،وذلك في كتاب من وزارة الخارجية مؤرخ في ١٤ اغسطس ١٩٠٣ ، صرحت فيه بان بريطانيا تنظر بعين الرضى الى سكنى اليهود في هذه البلاد . وانها مستعدة لوضع مساحات شاسعة منها تحت تصرف اليهود ، وان في امكانهم المحافظة على عاداتهم ، وتنمية ثقافتهم واخلاقهم القومية دون ادنى معارض . وزيادة على ذلك فان رئيس الادارة المحلية يكون يهوديا ، والبلاد تصبح مستقلة استقلالا داخلياً . ولا يكون للحكومة البريطانية غير مراقبة عامة على البلاد وادارتها . (١)

وقد وافق مبدئياً المؤتمر الصهيوني المنعقد عام١٩٠٣، على عرض الحكومة البريطانية ، وكان عدد الاصوات التي قبلت به ٢٩٥ صوتا والتي رفضته١٧٨ صوتا والذين تغيبوا ٨٠ مندوبا . وقرروا ارسال وفد الى اوغندا ، قبل ارسال الجواب الاخير ، لدرس احوال البلاد وتقديم تقرير عنها .

وفي السنة التالية ، عام ١٩٠٤،مات هرتسل،ففقدت الصهيونية بموته زعيمها الصائب الرأي والعظيم النفوذ ، وتبلبل الرأي الصهيوني في السنين التالية . ورجعت الحركة القومية اليهودية ، ما بين ١٩٠٤ و١٩١٤ ، الى الوراء،وخمدت نار الحماس التي اشعلتها في الجماهير اليهودية .

وعقد عام ١٩٠٧ المؤتمر الصهيوني السابع ، ورفض عرض الحكومة البريطانية ، بعد ان وقف على تقرير اللجنة التي ذهبت الى اوغندا . وكان رفضه هذا قائماً على ان اوغندا ليست غنية ، وقليلة الاتساع (ا) ولا تستطيع امداد الاستعمار اليهودي بما يحتاجه من مواد .

لم يرض هذا الرفض جماعة «الباحثين عن الارض» (Territorialistes) الذين اسسوا عام ١٩٠٦ جمعية خاصة بهم ، فحاولوا في اواخر عام ١٩٠٧ مفاوضة بريطانيا ، والحصول على ما عرضته ، اذ كان عرضها جد مفيد لليهود،

---

(١) راجع Die welt عدد ٢٧ اغسطس ١٩٠٣ صفحة ١.

وخير الحلول للمشكلة اليهودية . غير ان الفرصة كانت قد زالت ، اذ ان الحكومة البريطانية سحبت عرضها بلاد اوغندا بتأثير من اللورد «دلامار» Delamare الذي كان له نفوذ عظيم في الدوائر السياسية الانكليزية.

واخذ ، اسرائيل زانكويل ، رئيس « الباحثين عن الارض » في البحث عن مكان يستوعب المهاجرة اليهودية الواسعة . ففكر بادىء الامر في شرقي طرابلس الغرب ، وفي شمالي العراق . غير ان تركيا حالت بينه وبين ما كان يريد. فحاول فتح ابواب كندا للهجرة اليهودية ، ثم سعى للحصول على بعض مقاطعات استرالية ، واخيراً جرب نيل حقوق في انكولا Angola ، ولكنه لم يتمكن في جميع محاولاته من الوصول الى نتيجة عملية .

وقصارى القول ، كانت جهود الصهيونيين الواقعيين عقيمة كجهود الصهيونيين العاطفيين . فضعف ايمان كثيرين من اليهود في اعادة دولة بني اسرائيل ...

* * *

وتكون ، حوالى عام ١٩١٠ ، شكل جديد من الصهيونية ، عظيم الاهمية: « الصهيونية الثقافية » spirituel . وكان مؤسسها المفكر اليهودي الكبير ، المعروف باسم « احد هاعام » Achad Haam (١)

نشر كتابا عن المسألة اليودية وعنوانه « الطريق الوعر » La mauvaise voie ، وقد صرح بجرأة ووضوح انه خصم كبير لكل مشروع مهاجرة يهودية واسعة الى فلسطين ، لاعتقاده ان هذه الطريقة غير كافية ولا تحل المشكلة اليهودية . وبنى حكمه هذا على المبادىء التالية :

« ان انشاء دولة على عجل ، ومن عناصر متفرقة ومختلفة ، كما هي حال اليهود

---

١ اسمه الحقيقي آشر جنزبرك Ahser Ginzberg ، مات في تل ابيب ٢ يناير ١٩٢٧

القادمين من جهات العالم الاربع ، لا تستطيع تأمين اليهود على راحتهم ، ولا يكون ذلك علاجاً لبؤسهم الحالي . ان العمل الواجب القيام به قبل كل شيء ، هو تقوية « الروح القومية » حتى يصبح جميع اليهود مستعدين لتضحية انفسهم ، ان احوج الامر ، في سبيل هناء الامة الجديدة ومستقبلها ».(١)

وكان احد هاعام يرى « المملكة اليهودية » ملجأ خاصاً للفكرة « اليهودية » ، ورابطة ثقافية لوحدة الامة الجديدة .

واوضح عام ١٩١٢ فكرته هذه مقرونة بفلسطين ، بقوله : ان الارض المقدسة تصبح « مركز الثقافة القوميةاليهودية . نحوها يتجه جميع اليهود بعاطفتهم ، وتكون حلقة وصل بينهم ، انها تصبح مركزاً دراسياً وعلمياً ، لغوياً وادبياً ، ومكان اعمال يدوية ، وتنقية روحية ... وبالايجاز تصبح فيها الطائفة اليهودية صورة مصغرة للحالة التي يجب ان يصل اليها بنو اسرائيل » .(٢)

ومالت الصهيونية ، خلال السنين التي سبقت الحرب ، الى التحول ، من حركة سياسية ، الى حركة ثقافية . وعمل اليهود ، خلال تلك المدة ، على احياء اللغة العبرية . فكان للغتهم المكان الاول في المناقشات التي دارت في المؤتمر الصهيوني لعام ١٩١١ . وفي مؤتمر عام ١٩١٣ ، بحثوا مسألة تأسيس جامعة عبرية ، ليتمكن فيها الشباب اليهودي المثقف من تنمية ذكائه واظهار مهارته .

وقف فجأة هذا التطور في المبادىء الصهيونية حين اعلان الحرب عام ١٩١٤ ونهجت الصهيونية نهجاً آخر ، واكتفت بان تكون « عملية » حسب الظروف . مهدت ، الحرب العامة ، للصهيونية ظروفا كانت جد مفيدة . فتركت النظريات وعملت على استخدام هذه الظروف من الوجهة العملية . وعلى كل حال ، فانه يمكن القول ، بكل تأكيد ، ان الصهيونية لم تكن موفقة في انتخابها الحل الذي وصلت اليه عام

١ احد هاعام : Essays on Zionism & Judaism « ترجمة عن العبرية ليون سايمن ، لندن ١٩٢٢ صفحة ١٢ .

(٢) احد هاعام: Summa Summarum صفحة ١٥٥ .

١٩١٧ . ولم تنتهز الصهيونية تلك الظروف النادرة لحل المشكلة اليهودية حلا مفيداً ونهائياً .

٣

نتائج الصهيونية حتى عام ١٩١٤

عند عرض قائمة اعمال الصهيونية حتى عام ١٩١٤، نرى ان «الصهيونية السياسية» ، سواء بشكلها « العاطفي » ، الذي بشر به جماهير اليهود ، او بشكلها « العقلي » الذي كان يدين به نخبة مفكري اليهود ، قد فشلت . وكان سبب فشل الشكل الاول منها ، مخالفته للمنطق ، وبعده عن التطبيق العملي . واما الشكل الثاني منها فقد اخفق لجهل الجماهير ولعدم فهمهم اياه. ضاعت مجهودات الصهيونيين العاطفيين ، لتركهم العقل جانباً وسيرهم وراء العاطفة ، وذهبت مجهودات الصهيونيين العقليين ادراج الرياح ، لعدم تمكنهم من جمع صفوف الجماهير حولهم .

ان « الصهيونية الثقافية » وحدها ، لو انتشرت ، لأتت بنتائج مفيدة .

واما فيما يتعلق بفلسطين فقد رأينا ان كبار قادة الصهيونية السياسية لم يحبذوا مهاجرة اليهود الواسعة الى فلسطين . وقد تنبأ هرتسل ، بان محاولة كهذه تنتهي بفاجعة مؤلمة . ورغم ذلك ، تبعت الجماهير القائلين بالعودة الى « ارض الاجداد والتوراة » . وأخذت تتلقى ، بكل تلهف، اخبار «الطلائع» التي سكنت فلسطين ، وضحت كثيراً في سبيل مساعدتها مالياً .

وكانت المستعمرات اليهودية في فلسطين في عجز مستمر ، رغم المساعدات المالية التي كانت تنالها من الخارج . وحكم على جميع اعمالها بالفشل منذ عام ١٨٨٣ . ولم تقيض لها الحياة الا بمساعدات البارون دي روتشيلد العظيمة . فقد صرف وحده عليها حينئذ ، ما لا يقل عن عشرين مليون دولار .

وحالت السياسة التركية بين المهاجرة اليهودية الواسعة وفلسطين. ورفضت حكومة الآستانة عقد اتفاق مع العالم اليهودي، رغم الفوائد المالية والسياسية التي تعود عليها منه. اذ كان في وسعها، زيادة عن الفائدة المالية، استخدام وجود اليهود في فلسطين وسوريا اداة تستعملها لشل الحركة القومية العربية التي انتشرت في هذه البلاد، وسببت للترك مصاعب عدة.

ومن الواجب هنا الاعتراف بفضل قادة السياسة التركية فيما قبل الحرب، الذين لم يضحوا بالشعب الضعيف الذي كان تحت حكمهم. لقد وقفوا موقفاً شريفاً، موقف المدافع عن حقوق العرب، الذين سكنوا قروناً عديدة البلاد التي تود الصهيونية الاستيلاء عليها. وما اعظم الفرق بين موقفهم وموقف الحكومة البريطانيه. لقد قدمت حكومة جلالته فلسطين الى الصهيونية وضحت باهلها، مع انها كانت، قبل ذلك، قد تعهدت الى حلفائها العرب بانقاذهم من النير التركي، وتحقيق وحدتهم واستقلالهم ...

٤

نجاح الصهيونية عام ١٩١٧ واسبابه

قدمت الحرب العالمية فرصة ثمينة الى الصهيونية. فتركت النظريات والتشبث بالمباديء، وسعت الى الاستفادة من وضعية الحرب. فنشأت « الصهيونية العملية » التي حسبت للظروف حسابها، وعرفت طريق الاستفادة منها، فازدهرت منذ عام ١٩١٤ حتى ايامنا هذه.

كان اليهود، ابان الحرب، يميلون الى دول اوروبا الوسطى، ولا يرغبون في الاتفاق مع الحلفاء لوجود الروسيا بينهم، التي اضطهدت اليهود كثيراً وعذبتهم. ومع ذلك فقد اصبحت بريطانيا، اواخر عام ١٩١٤، مركز الحركة الصهيونية. اخذ الدكتور حاييم وايزمن يعمل في بريطانيا على احياء الحركة

اليهودية القومية ، فاستخدم الصحافة لغايته ، وقام بدعاية هائلة كان يرمي بها الى حمل الحكومة الانكليزية على مساعدة القضية الصهيونية. (١) وايد كثيرون من اليهود الانكليز هذه الحركة ، وكان من بينهم السر هربرت صمويل، ومستر نورمان بنتويش وكثير من افراد عائلة روتشيلد Rothschild .

وانشئت في لندن جمعية ادعت انها تمثل يهود العالم، وكان لها هدفان اساسيان : تحضير منهاج عملي لاستعمار فلسطين، وتنظيم الدعاية الصهيونية .

وأخذ الدكتور وايزمن ورفاقه يترددون على باريس ، منذ عام ١٩١٥، لالقاء الخطب والمحاضرات ...

وفي اكتوبر (تشرين الاول) ١٩١٦ ، عرض قادة الصهيونيين على الحكومة البريطانية منهاجاً لتنظيم ادارة جديدة في فلسطين ، ولتسهيل سكنى اليهود فيها .

ولم تجب الحكومة البريطانية ، باديء الامر ، على اقتراحات الصهيونيين، غير انها شرعت في مفاوضتهم رسمياً ابتداء من ٢ فبراير (شباط) ١٩١٧. فدخل السير مارك سايكس (Sykes)، صاحب معاهدة سايكس - بيكو، في محادثات مع الدكتور وايزمن من جهة ، ومع جورج بيكو ، ممثل فرنسا، من جهة ثانية . وارسل الصهيونيون الى باريس ، في مارس ١٩١٧ ، ممثلا لهم ليتابع هذه المحادثات . وفي ٢٢ مارس قابل وزير الخارجية الفرنسية واوضح له المنهاج الصهيوني ، فوافقت الحكومة الفرنسية عليه . وذهب ممثل الصهيونيين الى روما ، فأكدت له الحكومة الايطالية ان رأيها لا يختلف عن رأي الحلفاء في هذا الموضوع . وعاد الى باريس في ٢٨ مايس ١٩١٧ ، فاعاد له مسيو جول كامبون (Jules Cambon) ، رئيس الوزارة حينئذ، التأكيد خطياً (٢) بان فرنسا تعطف على القضية الصهيونية .

(١) راجع بوجه خاص «المانشستر غارديان» في ذلك العهد.
(٢) ذكر N. sokolow رسالة كامبون في كتابه History of Zionism مجلد ٢ صفحة ٥٣

ازعج نجاح الصهيونية السريع في اوروبا الغربية بعض الدوائر البريطانية. ونشرت « التايمس » عريضة نقد للسياسة اليهودية . (١) وكان لهذا النقد تأثير عظيم على الرأي العام . ومما زاد في قيمته احتواؤه على توقيعي رئيس جمعية اليهود البرلمانية ، ورئيس جمعية اعداء اليهود البرلمانية !. وهاجم الناقدون نقطتين رئيسيتين في المنهاج الصهيوني : طلب الصهيونية ان يكون لاقامة اليهود في فلسطين « صبغة قومية بالمعنى السياسي » ، وان تكون « حقوق اليهود معترفاً بها في صك رسمي » وان تدير شؤونهم وتحكمهم شركة يهودية». ورأوا ان هذه السياسة الصهيونية ستكون ، في الشرق ، سبباً لقتال متواصل بين اليهود وجيرانهم الذين يختلفون عنهم في الجنس وفي الدين .

هاج هذا الانتقاد عاصفة احتجاجات العالم اليهودي ، على انه لم يهن عزيمة الصهيونيين . فقاموا بوضع اقتراحات جديدة ، قدمها اللورد روتشيلد، في ١٨ يوليو (تموز) ١٩١٧ الى الحكومة البريطانية . وكانت تنص على ان تصبح فلسطين « وطناً قومياً للشعب اليهودي »، وان تدير الاستعمار القومي اليهودي فيها « شركة تعاونية » (Corporation) تعمل على ترقية اقتصاديات البلاد.

فاجابت الحكومة البريطانية باقتراحات اصبحت فيما بعد اساساً لتصريح بلفور . لم يرض الصهيونيون عن هذه الاقتراحات كل الرضى ، فتابعوا محادثاتهم مع لندن حتى شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧ .وكانت الحكومة البريطانية وكثير من اليهود غير الصهيونيين ، لا يريدون بقاء كلمة « قومي » في عبارة : « الوطن القومي للشعب اليهودي (٢) فاحتج الصهيونيون على ذلك احتجاجاً شديداً ، واصروا على بقائها ، فرضخت الحكومة لمشيئتهم . وكان الصهيونيون يريدون « تعمير فلسطين كوطن قومي لليهود » أي أن تكون فلسطين وطناً قومياً خاصاً بهم .. فعارضت الحكومة البريطانية في ذلك اشد المعارضة ،

(١) التايمس ٢٤ مايس ١٩١٧ .
(٢) راجع جريدة « الديلي ميل » Daily Mail ٩ يناير ١٩٢٣ .

وصرحت بانها لن تقبل الا بانشاء وطن قومي لليهود « في فلسطين » ، والفرق بين التعبيرين عظيم.(١) ففي الحالة الاولى تصبح فلسطين خاصة لليهود ، واما في الحالة الثانية يكون الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، دون ان يحول صبغة البلاد ويمس كيان من فيها من السكان .

وادت هذه المحادثات الى « تصريح بلفور » الشهير . ووضع هذا التصريح بصورة كتاب ارسله اللورد بلفور ، وزير خارجية حكومة لندن حينئذ ، بتاريخ ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧ ، الى اللورد روتشيلد ، جواباً على الاقتراحات التي قدمها الى الحكومة البريطانية ، بخصوص انشاء وطن قومي يهودي .

وصرحت حكومة لندن انها تنظر بعين الرضى الى انشاء مثل هذا الوطن في فلسطين ، وانها تبذل جهدها لتسهيل بنائه . غير انها اشترطت لذلك شرطاً هاماً وهو ان لا يضر ، الوطن القومي اليهودي ، بحقوق سكان فلسطين ، من غير اليهود ، الدينية والمدنية .

* * *

في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) رأت الصهيونية ، التي كانت عبارة عن حلم ظريف حتى عام ١٩١٤ ، انها قد حازت على اهم شيء لتحقيق غايتها ، وما هذا التغير السريع في وضعيتها الا نتيجة اسباب غير عادية :

كانت نتيجة الحرب ، اوائل عام ١٩١٧ ، غير معلومة ، ووضية الحلفاء فيها

(١) « وظن البعض ان ذلك ما هو الا فرق بسيط في الشكل . فحاولوا ، بعد ذلك ، في مفاوضاتهم مع بريطانيا استعمال عبارتهم الخاصة منوهين بها عن محتوى تصريح بلفور . ولكن الحكومة البريطانية كانت تعيد ، كل مرة ، في جوابها العبارة التي استعملها اللورد بلفور ، وهذا يبرهن على ان التعبيرين لا يعنيان شيئاً واحداً ، وان الوعد محدود تماماً بكلمات التصريح ولا يتعداها ابداً » . احد هاعام :

حرجة . وكان العالم اليهودي قوة هامة ، فسعت دول الحلفاء ودول اوروبا الوسطى الى اجتذابه ، ليس فقط للمساعدات المادية العظيمة التي في امكانه تقديمها ، ولكن لنفوذه العظيم في بلاد عديدة لا سيما في الولايات المتحدة .

ورأينا ان اليهود كانوا يميلون الى الدول التي كانت تحارب الروسياء فاظهرت المانيا رغبة شديدة في الاحتفاظ بميل اليهود وربطهم بها برباط صداقة جديدة . وتوسطت لدى الباب العالي ليسمح لليهود بسكنى فلسطين . فمنح طلعت باشا ، رئيس الوزارة التركية،اوائل١٩١٧الصهيونيين بعض الامتيازات. وفي شهر سبتمبر (ايلول) من العام نفسه ، تداخلت المانيا من جديد ، والحت على صديقتها تركيا بالتسامح مع الصهيونيين للاحتفاظ بصداقة اليهود ، وللاستفادة من اموالهم ونفوذهم .(١)

وفي تلك الاثناء اخذ الحلفاء يعتبرون جديا اقتراحات الصهيونيين .وعملوا على ارضائهم خوفا من انضمامهم الى الالمان ، فتساهلوا معهم واتفقوا واياهم على تصريح بلفور الذي ارضى جماهير اليهود وجعلها تنصر الحلفاء .(٢)

(١)راجع A History of the Peace Conference of Paris :Temperley مجلد ٦ صفحة ١٧٢ ، ١٧٣.

(٢) « لم يدن بالصهيونية من كبار اليهود الانكليز غير القليل ، وكانوا اقل عددا وشأنا في فرنسا . وكان نفوذ اليهود الانكليز مستعملا بشدة واستمرار ، ضد سياسة التصريح ، الذي كان موضع البحث ، خارج الوزارة وداخلها .

« ... لقد زالت او خفت احتجاجات اعداء الصهيونية ، تحت ضغط حاجة الحلفاء ، فظهر للملأ تصريح بلفور في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧ .

« ... وكان ذلك بمثابة جهود مجازفة وخيالية ، لتمنع العالم اليهودي ونفوذهم الذي لا يحد، من العمل في صالح دول اوروبا الوسطى .

« وبحثت الفوائد التي ترجى من اتباع سياسة التصريح بكل عناية ودقة في جميع نتائجها، ووزنت كل كلمة من كلمات التصريح واحدة فواحدة ، وكانت موضع التغيير والتنقيح مرارا ».
A History of the Peace Conference of Paris : Temperley
مجلد ٦ صفحة ١٧١ ، ١٧٢ . راجع ايضا : Rasvjet(وهي جريدة روسية ــ يهودية صدرت في باريس) العدد الصادر بتاريخ ٤ يناير (كانون الثاني) ١١٢٥ .

ويمكن اعتبار اتفاق الحلفاء مع الصهيونيين « مناورة حربية » من ناحية اخرى :

كانت نتيجة الحرب ،اوائل عام ١٩١٧ ، متوقفة على الوضعية التي تتخذها الولايات المتحدة،اذ لم يكن للحلفاء امل في الانتصار دون مساعدتها،فبذلو اجهوداً عظيمة لنيل هذه المساعدة . وكان الحلفاء يعرفون النفوذ الهائل الذي لليهود في دوائر الولايات المتحدة السياسية والمالية . وتأكدوا انه من الصعب جداً،ان لم يكن محالا ، ادخال الولايات المتحدة الحرب في صفوفهم ، ان لم يجتذبوا اولا قلوب اليهود الذين فيها ـ فكان تصريح بلفور ...

وكانت وضعية فلسطين الدولية ، وطموح بريطانيا اليها ، سبباً خاصاً لنجاح الصهيونية عام ١٩١٧ . اذ ان حكومة لندن رأت في سياسة تصريح بلفور وسيلة تمكنها من الرجوع عن الاتفاقات التي تعوق سياستها « الامبراطورية » وسأعود الى بحث هذه النقطة في الفصل التالي .

الفصل الثالث

الحق التاريخي والمصالح البريطانية

اكتسحت الدعاية الصهيونية العالم ، وكان اهم دعائمها ،ولا يزال ، ان لليهود حقاً تاريخياً في فلسطين . واخذ « الرأي العام » يعتقد ان اصل اليهود من فلسطين ، وان فلسطين بلادهم !. فهل هذا صحيح؟ وما هو حكم التاريخ في ذلك؟

وللاجابة على هذين السؤالين دون تغرض او محاباة ، نرى من المفيد للحقيقة ان نعرض بايجاز تاريخ فلسطين ،فيظهر لنا صحة الادعاء الصهيوني بحقه التاريخي في فلسطين او خطأه ، ونسمع حكم التاريخ الفصل في هذه القضية.

١

لمحة تاريخية

« لم تكن فلسطين تابعة لامة واحدة خلال العصور القديمة ».(١)وتاريخها مربوط بتاريخ الامم التي تحيط بها ، اذ هي « بلاد صغيرة لا يمكنها ان تؤلف وحدة جغرافية ، وقد قطنتها امم متعددة ، وكانت في سائر ادوارها ، اما مندمجة بسوريا واما ملحقة بمصر » . (٢)

ومن اقدم الشعوب التي عرفها التاريخ في جنوبي فلسطين قبيلة عربية تدعى قبيلة «مغان» ـ جاء ذكرها في آثار بابل ان نرام سين بن سرجون حارب تلك القبيلة في جزيرة سيناء عام ٣٧٥٠ ق.م، واسر اميرها وحمل بعض احجارها الى بلده(٣).

(١) الموسوعة البريطانية عدد ١٧ صفحة ٦٠٥
(٢) » » » ٦٠٥
(٣) راجع جورجي زيدان : « تاريخ العرب قبل الاسلام » صفحة ٥٥ .

وللعمالقة صلة كبرى بفلسطين ، وهم العرب القدماء الذين قطنوا شمالي الحجاز وجزيرة سيناء، وقد فتحوا مصر باسم الشاسو (البدو او الرعاة)، ويسميهم اليونان « هيكسوس » . اشتغلوا حوالي عام ٢٥٠٠ ق . م بنقل التجارة الى بابل . وكان موقعهم في الايام التالية بين المصريين والفلسطينيين والكنعانيين. وبعد ان دخل بنو اسرائيل فلسطين حاربهم العمالقة وتغلبوا على « جدعون » « وشاوول » وامتدت سلطنتهم حتى نابلس .

ومن اهم الشعوب التي قطنت فلسطين واثرت في تاريخها قبيلة الكنعانيين، وقد سميت البلاد باسم : ارض كنعان نسبة اليهم، نزحت هذه القبيلة من جزيرة العرب واحتلت فلسطين، زمنا طويلا قبل مجيء اليهود اليها. واسست فيها دولة منظمة امتد سلطانها حتى حماة . ولما دخل اليهود البلاد حاربهم الكنعانيون مراراً ، وظلوا لهم اعداء الداء .

وسكن ما بين القدس والخليل فريق من الحيثيين. وهم فرع من الحيثيين الذين اسسوا دولة قوية في سوريا وكانت عاصمتهم « ختى »، وتدعى الان « بوغاز كوى » Boghas Keui.

ولما دخل اليهود فلسطين بقيادة « يشوع بن نون » واحتلوا قسما منها ، كان يسكن القدس وحواليها اليبوسيون (وهم على الغالب فرع من الكنعانيين). فحاول اليهود استملاك القدس فردهم هؤلاء عنها خائبين . وظلت القدس في ايدي اليبوسيين حتى حاربهم داود ودخل المدينة عنوة وجعلها عاصمته عام ١٠٤٩ ق . م .

وترجع فلسطين باسمها الى الفلسطينيين الذين اتوا ارض كنعان من جزيرة كريت ، قبيل مجيء اليهود اليها ، واحتلوا القسم الواقع ما بين يافا وغزة. وظلوا في قتال مستمر مع اليهود ، واخذوا يتوغلون في البلدان التي في قبضة اعدائهم، فهزموهم في مرج بن عامر ، فقتل « شاوول » الملك الاول لبني اسرائيل، نفسه،

من شدة الغيظ وخوفا من الاسر ... وقصة الفلسطينيين مع شمشون شهيرة تري الحقد المتأصل بين الشعبين . والتاريخ يعيد نفسه ، والمأساة التي حصلت في العصور الاولى تعاد الآن على المسرح الفلسطيني ...

وسكن فلسطين غير من ذكرنا من القبائل ، واهمها المديانيون ،وهم عرب، حاربوا اليهود وازعجوهم كثيراً. وكان في شرق الاردن المؤابيون والعمونيون، وهم من القبائل العربية ، ظلوا في حرب مستمر مع الاسرائليين ، ولم يتمكن هؤلاء من اخضاعهم .

اما الأدوميون الذين كانوا يقطنون جنوبي البحر الميت ، فكانوا اعداء الداء لليهود . واشتهر منهم ، في اواخر عهد اليهود بفلسطين ، « هيرودوس » الادومي الذي عينه اغسطس قيصر اميراً على اليهودية فقضى على سلطان المكابيين ، وابتدأت به الدولة الهيرودسية .

* * *

ان من الخطأ القول أن اصل اليهود من فلسطين. هم قبيلة كانت تسكن جنوبي العراق « اور الكادانيين » . فهاجر ابراهيم واهله ، وساروا شمالا حتى وصلوا شمالي سوريا ، ثم انعكفوا الى الجنوب يرعون ماشيتهم في مراعي سوريا الخصبة . وانتهت مرحلتهم موقتا الى ارض كنعان ـ فلسطين ـ فسكن ابراهيم ومن معه الخليل ، واخذوا يرعون ماشيتهم في الوادي الكبير الذي لا يبعد عن المدينة .

رزق ابراهيم ابنان ، واحد يدعى اسحق من زوجته « سارة »، والآخر يسمى اسماعيل من جاريته « هاجر » . وولد لاسحق غلام سماه يعقوب ولقب بعدئذ « اسرائيل » فانتسب اليه اليهود معتقدين انهم تحدروا من صلبه !...

اما يعقوب نخلف ١٢ ولداً كان صغيرهم يوسف ، وقصته مع اخوته

مشهورة . ولما حصل القحط وجفت المراعي التي استقاموا من اجلها في « ارض كنعان » تابع اولاد ابراهيم السير متجهين نحو مصر حيث النيل وحيث الخصب والمراعي الطيبة ...

دخل اليهود « ارض كنعان » بقيادة يشوع « بن نون » حوالي عام ١٤٠٠ ق . م . ومن ذلك الوقت يبتدي ء تاريخ بني اسرائيل في ارض كنعان الذي هو صفحة من تاريخ فلسطين(١) . وقد عاشوا حتى القرن الحادي عشر في منطقة الخليل ، عيشة بدوية ، دون ان يكون لهم حينئذ شأن يذكر . وكانوا محصورين بين اعدائهم ، ولا هم لهم الا رد غارات جيرانهم ودفع شرهم عنهم .

وبعد ان مضى عليهم نحو خمسة قرون ، وهم على الفطرة البدوية ، وفي حالة انقسام مستمر ، شعروا بضرورة توحيد الصفوف ، ومالوا الى الحضارة ، فاخذوا يقلدون جيرانهم في الادارة ، واتفقوا على تنصيب ملك بينهم ، فاختاروا شاوول عام ١٠٩٥ ق . م ، اميراً عاماً على جميع بني اسرائيل . وبقي لكل سبط من الاسباط الاثنى عشر امير خاص ، يحكم شعبه خاضعا للسلطة العليا . ولم يتخذ شاوول عاصمة له ، لانه قضى جل حياته محاربا اعداء قومه الذين كانوا يحيطون بهم .

ولما اخذ سبطا يهوذا وبنيامين خبر انتحار شاوول انتخبا داود ملكا عليهما عام ١٠٥٥ ق . م . فحاربه ابن شاوول مع الاسباط العشرة ، الذين لما رأوا كفة داود راجحة قتلوا ملكهم وقدموا رأسه الى داود ، فتوج ملكا عاما على بني اسرائيل . وظلت عاصمته الخليل حتى افتتح القدس من اليبوسيين عام ١٠٤٩ ق.م . فجعلها مركز مملكته .

---

(١) الموسوعة البريطانية مجلد ١٧ صفحة ٦٠٥

وورث سليمان عام ١٠١٥ ق.م. ملك ابيه داود ، فعقد المحالفات السلمية مع جيرانه وتمكن من بناء الهيكل بمساعدة الفينيقيين . وكان عصر سليمان ، عصر بني اسرائيل الذهبي ، وبه تم عقد وحدة بني اسرائيل الذي دام مدة ١٢٠ سنة والمؤلف من ثلاث خرزات فقط ، الاولى شاوول ، والثانية داود ، والثالثة سليمان . وبعد وفاة سليمان تفرقت الكلمة ، وعاد الشقاق حاداً ، فانقسمت المملكة الى قسمين : مملكة اسرائيل ، ومملكة يهوذا .

وعاشت « مملكة اسرائيل » من عام ٩٧٥ الى ٧٢١ ق.م. اي ٢٥٤ عاما . وولي عليها ١٩ ملكا لم يكونوا من اسرة واحدة ، اذ كثيراً ما كان يخرج على الملك قائد او امير او رجل له مكانة ، فيحاربه ويخلعه ويجلس على عرشه . ولهذا يمكن القول بانه قد حكم مملكة اسرائيل تسع حكومات لان كل ملكين كانا من اسرة واحدة ! . ولم يكن النظام سائداً ولا الامن مستتبا فيها ... وقد غيروا عاصمة بلادهم مراراً ، كانت الاخيرة السامرة (سبسطية) ، وهي اليوم بلدة صغيرة شمالي نابلس .

ولم يكتف اليهود بالانقسام الى مملكتين ، بل جعلت هاتان المملكتان تتحاربان وتتحالف احداها مع الدول المجاورة لتقضي على الاخرى . وظلوا على هذه الحال حتى هاجمتهم المملكة الاشورية فقضت على مملكة اسرائيل عام ٧٢١ ق.م. وهدمت عاصمتها ، واسرت رجالها وقادتهم الى « نينوى » ، واسكنت مكانهم السامريين من اهل العراق .

وكانت حياة مملكة يهوذا اطول من حياة مملكة اسرائيل بمائة وخمسين عاما . غير انها قضت حياتها فى قتال وحروب ، لان جيرانها « الداخليين » ، اي الشعوب التي كانت تقطن فلسطين من قبل مجيء اليهود اليها ، كانت تبغضها وتريد استرداد القسم الذي استولى عليه اليهود الدخلاء من البلاد . وكان لهذه

الدولة الصغيرة ، جيران « خارجيون » اشد وطأة واعظم خطراً عليها من جيرانها الداخليين : اي حكومتي مصر وبابل . فكانت كل منهما تطمع بفلسطين لموقعها الجغرافي ، ولتتخذها درعا لرد غارات الدولة الاخرى عليها . ورغم وجود مملكة يهوذا فان البلاد كانت خاضعة تارة للسيادة المصرية وتارة للسيادة البابلية . واخيراً اغضب اليهود ملك بابل لعصيانهم واحتمائهم بملك مصر ، فأتى « نبوخذ نصر » القدس وحاصرها ، ثم دخلها عنوة عام ٥٨٦ ق.م. فخرب الهيكل وحرق المدينة وسبى معظم السكان الى بابل ، فقضى بذلك على حكومة اليهود فى فلسطين .

ويمكن القول ، بان اليهود خرجوا من العراق ومروا بسوريا ، واستراحوا في فلسطين ، ثم خرجوا منها وابتعدوا عنها زمنا طويلا ، وبعد ذلك عادوا اليها ومكثوا فى قسم منها مدة ، واخيراً اعيدوا الى العراق وطنهم الأصلي .

* * *

ولما اسس « كورش » المملكة الفارسية على انقاض آشور وبابل ضم اليه سوريا وفلسطين ، واعاد اليهود الى القدس عام ٥٣٦ ق . م . ليستند عليهم في فتح مصر . ثم دخلت فلسطين ضمن امبراطورية الاسكندر عام ٣٣٢ ق.م. ومن بعده تناوبُ الحكم فى فلسطين ، البطالسة فى مصر والسلوقيون فى سوريا ، وكلتاهما دولتان يونانيتان ، الى ان دخلت ضمن الامبراطورية الرومانية عام ٦٤ ق .م .

ومما هو جدير بالذكر ان العنصر اليهودي اصبح قليل الاهمية في فلسطين بعد ان قضى البابليون عام ٥٨٦ ق.م. على مملكتهم ، وعلى عكس ذلك ، فان العناصر العربية حوالي فلسطين وداخلها اخذت تزداد بكثرة :

وقبل القرن الرابع ق .م . اتى من الشرق شعب عربي عرف بالتاريخ باسم الانباط ، واسس في الجنوب والشرق من البحر الميت مملكة عربية ذات ملوك

ووزراء وادارة منظمة . وكان اليونـان يسمون بلادهم « العربية الحجرية » «Arabia Petra» نسبة إلى عاصمتهم « بطرا » ومعناها الحجر .

واختلفت حدود مملكتهم حسب العصور ، واتسعت حتى شملت سينـاء ، وجنوبي فلسطين وشرق الاردن ، وسوريا الداخلية بما فيها دمشق حتى العراق. وكان الانباط يحترفون التجارة ، وظلت بلادهم مركزاً تجاريا بين امهات البلدان حينئذ . وظل نفوذ مملكة الانبـاط سائداً في تلك البلاد حتى اوائل القرن الثاني بعد الميلاد .

وفي ايام يوليوس قيصر واواخر حكم هيرودس ولد السيد المسيح في بيت لحم ،وعاش في الناصرة مع والدته مريم ومربيه يوسف النجار.ولما بلغ سن الرجولة اخذ يبث دعوته وينشر مبادئه وتعاليمه ، فهاج عليه من في القدس من اليهود ، لانه كفر في عرفهم ، وقبضوا عليه ، وعذبوه كل العذاب وسعوا في صلبه ...

وكان كثيراً ما يثور من في القدس وحوالبها من اليهود على الحكم الروماني، وكان آخر ثوراتهم نهاية ايام الامبراطور نيرون . فقدم «طيطس» القائد الروماني القدس وحاصرها بجيش كان فيه فرقة عربية — نبطية — واخيراً دخلها عنوة عام ٧٠ م ، واجهز على البقية الباقية من اليهود واحرق الهيكل وهدم المدينة ... وبعد ذلك بسنين قليلة تشتت اليهود في انحاء الارض وخلت فلسطين منهم ومحيت آثارهم فيها .

* * *

نشأت في الحجاز ، أوائل القرن السابع،دولة عربية فتية لعبت طيلة العصور الوسطى الدور الاول في التاريخ ... ودخلت جيوشها القدس سلما عام٦٣٧م. وتوطنت الجيوش العربية فلسطين واندمج بها من كان يسكن البلاد ، فاصبحت

فلسطين عربية في حكومتها وشعبها . وظلت فلسطين ، منذ ذلك التاريخ حتى اليوم ، عربية في كل شيء . وان دخولها ضمن الامبراطورية العثمانية ، عام ١٥١٦ ، لم يغير شيئا في وضعية السكان واحوال البلاد ، اذ لم يقطن الشعب التركي فلسطين ، بل بقي السكان عربا يتمتعون بجميع حقوقهم .

وقصارى القول ، ان تاريخ فلسطين يرينا ان اليهود لم يكونوا فيها امة بالمعنى السياسي الا مدة اربعة قرون . وان هذه السنين لم تكن متواصلة ، بل تخللها عهد التسلط الاجنبي .

ويظهر لنا ايضاً ان العنصر العربي كان موجوداً في فلسطين قبل مجيء اليهود اليها ، واثناء وجودهم فيها ، وبعد نزوحهم عنها .

وبينما ان فلسطين لم تكن يوما ما يهودية في كل شيء ، اصبحت عربية في كل شيء ، ابتداء من عام ٦٣٧ م ، وظلت كذلك حتى الاحتلال البريطاني ، اي مدة ثلاثة عشر قرنا .

٢

الحق التاريخي

كيف يمكن لليهود الادعاء بفلسطين بموجب الحق التاريخي ، واصلهم ليس من فلسطين ، والمدة التي اقاموا خلالها فيها اقل بكثير من المدة التي اقامت فيها الامم الاخرى ، من جهة ، ومن المدة التي اصبحت فيها فلسطين عربية في كل شيء ، من جهة اخرى ؟ .

اذا اردنا تحكيم التاريخ بحق ملكية فلسطين ، فانه يحكم دون شك بان فلسطين عربية ، وانها حق للعرب وحدهم : لان العنصر العربي ، كما رأينا سابقاً ، كان فيها منذ ابتداء تاريخها وبقي فيها مع العناصر التي هاجمت فلسطين ، ومن

بينها العنصر اليهودي ، ثم اخذ في التغلب حتى اصبحت فلسطين عربية الحكومة والسكان منذ اواسط القرن السابع للميلاد .

وحين صدر تصريح بلفور ، كان عدد العرب في فلسطين لا يقل عن سبعمئة الف ، بينما كان عدد اليهود لا يتجاوز الخمسة والخمسين الفاً .(١) وبعبارة اخرى كان العرب يؤلفون ٩٣ بالمئة من مجموع السكان .

امام هذه الحقائق التاريخية ، يتضح أن ادعاء اليهود « بالحق التاريخي » قائم على غير اساس . ولم تتخذه الصهيونية حجة لها الا لانها لا تملك ادنى حجة قانونية تسند بها رغبتها في الاستيلاء على فلسطين . ومع ذلك فقد اظهر اليهود مهارة فائقة في عرض قضيتهم القائمة على ادعائهم بحقهم التاريخي في فلسطين ، فخلبوا افكار الجماهير ، وضللوا كثيراً من المتعلمين والمثقفين ...

والحكم لليهود بفلسطين لان اجدادهم الغابرين سكنوها قبل ٢٦ قرناً ، حكم غريب في بابه ، لا يقبل به اي عقل فهم التاريخ وسنته ويحب العدالة ويرغب في تطبيقها .

وان تابعنا المنطق الصهيوني ، فيحق للعرب المطالبة بشبه جزيرة اسبانيا ، لان اجدادهم ملكوها ، وصبغوها بالصبغة العربية مدة ثمانية قرون ، واقاموا فيها مملكة ازدهرت وكانت مركز المدنية في الغرب في العصور الوسطى . كما انه يحق للايطاليين المطالبة باعادة القسم الجنوبي من فرنسا ، على الاقل ، اليهم لان اجدادهم ملكوها ، وكانت يوماً ما ، مدينة « نيم » « Nimes » عاصمة امبراطوريتهم . ويحق لهذا الشعب ايضا المطالبة بملكية جنوبي بريطانيا العظمى ، لان اجدادهم فتحوها واقاموا فيها مدة ما ... فمثل هذه الادعاءات تدعو الى الابتسام ، واذا كانت تحتوي على شيء من الحق والعدل ، فشبيه بها الادعاء الصهيوني القائل بوجوب اعادة فلسطين الى الشعب اليهودي ، ان لم يكن

(١) Great Britain & Palestine 1915 - 1936 . كتاب اصدره المعهد الملكي للعلاقات الدولية في لندن . ويظهر من قراءته ان واضعيه من اصدقاء الصهيونيين .

اقل واضعف .

وتطبيق المنطق الصهيوني يضطر الامم الى الرحيل والتنقل المستمر من بلاد الى اخرى . وفي هذه الحالة ، اقترح على كبار المتمولين ، تأسيس شركة « للنقل الدولي » ،واني اضمن لها استمرار العمل والارباح العظيمة !...

واتخذ الصهيونيون دليلا آخر على حقهم فى فلسطين ، قائما على ان اليهود البالغ عددهم خمسة عشر مليونا يقدسون فلسطين ويحنون الى الرجوع اليها!... وهم ينسون ان فلسطين مقدسة ايضا لدى المسلمين الذين ينيف عددهم على ٣٥٠ مليونا ، وكانت قبلتهم الاولى ، وفيها ثالث الحرمين . وانها المكان الاول المقدس عند المسيحيين البالغ عددهم اكثر من ٤٥٠ مليونا ، وفيها قبر السيد المسيح ...

ففلسطين ، من الناحية الدينية ، مقدسة لدى الاديان الثلاثة.ولو فرض انه لم يعتبر الحق القومي للشعب العربي فيها ، يمكن القول بان فلسطين بلاد دولية ، لا يحق لطائفة دينية ان تسيطر عليها . وعلى هذا الاساس جعلت منها معاهدة سايكس — بيكو بلاداً دولية . فالحجة الصهيونية الدينية لا تخدمهم فى هذا المضمار ، بل هي سلاح يستعمل ضد المطامع الصهيونية ، اذلا يحق لليهود الذين لا يتجاوز عددهم خمسة عشر مليونا ان يستولوا على بلاد يقدسها حوالي ثمانمائة مليون مسلم ومسيحي .

موهت الصهيونية على العالم بحقها التاريخي فى فلسطين ــ فاخذ كثير من الناس ، حتى كبار السياسيين ، يقولون بهذا القول ! . وقد اتخذته الحكومة البريطانية اساساً لوعدها اليهود بفلسطين . وقالت فى الكتاب الابيض الذي اصدرته عام ١٩٢٢ ، لتبين خطتها السياسية فى فلسطين « انه من الضروري عليها ــ اي الطائفة اليهودية ــ ان تعلم بان وجودها فى فلسطين حق وليس منة. ولهذا من الضروري ضمان انشاء « الوطن القومي » ضمانا دوليا ، والاعتراف

رسمياً بانه قائم على اساس علاقات تاريخية قديمة» .

وفى هذا التصريح نقطتان رئيسيتان : الاولى ان وجود اليهود فى فلسطين قائم على حق . والثانية ان الوطن القومى قائم على اساس علاقات تاريخية قديمة .

لنأخذ اولا النقطة الثانية . رأينا مما سبق ان احتلال اليهود قسما من فلسطين اثناء العصور القديمة ، واقامتهم فيه ، مدة ثمانية قرون ، كانوا خلال القرون الاربعة الأول منها قبيلة لا شأن لها ضاربة في مقاطعة الخليل ـ لا يعطيهم الحق بالادعاء بملكية فلسطين . وكل ادعاء من هذا القبيل ان هو الا تضليل وقائم على غير منطق صحيح . فعلاقات اليهود القديمة بفلسطين لا تجيز لهم تجديد مثل هذه العلاقات ، واقامة مملكة صهيونية فى الاراضي المقدسة .

ثم لماذا ينحصر الكلام عند البحث في تاريخ فلسطين ، على علاقات اليهود القديمة بها ؟! الا توجد امم اخرى لها علاقات تاريخية بفلسطين تزيد شدة واهمية عن علاقات اليهود ؟ أليست علاقات العرب بفلسطين متينة ، لا فى الايام القديمة وحدها ، بل طيلة العصور الوسطى والحديثة ؟ واذا ضربنا صفحا عن علاقات العرب القديمة بفلسطين ، ألم تصبح البلاد المقدسة عربية فى كل شيء منذ ثلاثة عشر قرنا ؟ اذن لماذا تقوم الحكومة البريطانية بالدفاع عن علاقات اليهود القديمة بفلسطين التي اكل عليها الدهر وشرب ، وتغض النظر ، بل تتجاهل علاقات العرب بها وحقهم فيها ؟! . تريد الحكومة البريطانية ان تكون « قاضية » للتاريخ فتصحح مسراه وتعيد الى اليهود حقا تاريخياً قديماً . ولكنها لاقامة العدل ترتكب جناية ! انها تنظر الى البلاد بمنظار واحد ، منظار الصهيونية ، ترى اليهود مظلومين فى البلاد الغربية ، فتعمل لانصافهم . وفى سبيل انصافهم تتجاهل كل حق آخر حقيقي . انها تتجاهل تاريخ فلسطين العربية . وسياستها ، حتى الآن ، تؤدي الى ابعاد الشعب العربي القائم فيها منذ ثلاثة عشر قرنا . أوليس عملها هذا بمثابة ارتكاب جناية كبرى فى سبيل ارضاء الصهيونيين ؟...

لا ادري ما هو الحق الذي تعنيه الحكومة البريطانية في الشطر الاول من تصريحها المتقدم . اهو الحق التاريخي ؟ ان كان هذا فقد رأينا فساده وبطلانه. ام ان هذا الحق قائم على « تصريح بلفور » ؟

اني لا اود مناقشة هذا التصريح لاظهار عدم قانونيته من الوجهة الحقوقية. ويكفي ان اثبت هنا ان كبار متشرعي الحقوق الدولية ، يجزمون بان تصريح بلفور ليس معاهدة ولا قيمة حقوقية له . (١) والذي يهمني هو ان الحكومة البريطانية اعطت هذا الوعد تحت ظروف حربية قاهرة ، والبلاد ليست تحت حكمها ، بل كانت لا تزال تحت الحكم التركي ، وتركيا تنازلت عن البلاد على ان يعود حق مصيرها لاصحاب الشأن فيها ، و« اصحاب الشأن »، في رأينا، لا يمكن ان يكونوا غير اهلها ، أي انها تنازلت عن فلسطين للشعب الذي كان يسكنها حينئذ . (٢) وكان سكان فلسطين ولا يزالون من الشعب العربي . والشعب العربي الفلسطيني لم يتنازل عن حقوقه في بلاده ولم يعترف بتصريح بلفور . فلا قيمة سياسية لتصريح بلفور من هذه الناحية ايضا .

٣

المصالح البريطانية

أصحيح ان الحكومة البريطانية تؤازر الصهيونية بكل قواها لاعتقادها بحق اليهود التاريخي في فلسطين ؟! كل يعلم ان حكومة لندن لا تتخذ النظريات ولا العواطف قاعدة لسياستها . فلا يمكن ابداً ، اذن ، الاعتقاد ان رائد بريطانيا في سياستها الفلسطينية انصاف اليهود من « مظالم التاريخ » التي ترجع الى قبل عشرين قرناً . وما هذا الا حجة باطلة، يراد بها اخفاء الاسباب الحقيقية،

(١) راجع قرار محكمة العدل العليا في القدس سجل ١٩٣٢ صفحة ١١.
(٢) راجع معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ وخصيصاً المادة ١٦ .

وتمويه يراد به تضليل الجماهير والباحثين السطحيين :

كان الحلفاء ، عام ١٩١٧ ، فى حاجة ماسة الى المساعدات الخارجية، من جهة ، والى تقليل الاصدقاء عند اعدائهم، من جهة ثانية، ليخرجوا من الحرب ظافرين . فرأوا في اجتذاب اليهود نحوهم تحقيقا لغايتهم . اذ هم بذلك يحولون بين دول اوروبا الوسطى وعطف اليهود عليهم، ومساعدتهم اياهم ، وفي الوقت عينه يستعملون القوى اليهودية فى سبيل مصالحهم . ولليهود قوى عديدة منها المال والنفوذ الدولي . وكان الحلفاء حينئذ فى اشد الحاجة اليهما .

ورأينا ان موقف الولايات المتحدة عام ١٩١٧ ، كان عاملا هاما فى مصير الحرب . فاراد الحلفاء ضمها اليهم ، ونيل المساعدات المالية منها، وادخالها الحرب في صفوفهم . غير ان ذلك لم يكن من الميسور الا بارضاء اليهود ، لان مالية الولايات المتحدة تحت اشراف هيئة صغيرة قوية ، معظم اعضائها من اليهود، زيادة على ما لبني اسرائيل من النفوذ في الدوائر السياسية الاميركية . فعمل الحلفاء على ارضاء اليهود، فدفعوا لهم ثمنا لذلك انشاء وطن قومي لهم في فلسطين. ويظهر جليا ان تصريح بلفور ماكان الا « خطة حربية » . ووصف مستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية اثناء الحرب ، الظروف التي دعت الى اصدار تصريح بلفور بقوله : « وكانت تلك الايام من اشد ايام الحرب ظلاماً ... كان الجيش الفرنسي ، في ذلك الوقت ، ثائراً ، وكان الجيش الايطالي على وشك التلاشي ، وكانت الولايات المتحدة قد ابتدأت فقط بالاستعداد . . . فتقرر لدينا ... ان اكتساب عواطف الطائفة اليهودية امر حيوي لنا . »(١)

وكانت بريطانيا في مفاوضتها مع الصهيونيين ، تسير ايضا وراء مصلحتها الخاصة ، محافظة في الوقت عينه على فائدة الحرب العامة : ان لمركز فلسطين الجغرافي اهمية كبرى للمحافظة على سلامة الامبراطورية . واهميتها تعظم

(١) راجع Hansard 19 - 6 - 1039 Col . 1343

بخروج بريطانيا من مصر . فرأت ، حكومة لندن ،ان لا بد لهامن الاستيلاء على فلسطين ، ان رامت تأمين السلامة لطريق مواصلات الامبراطورية . غير ان ذلك لم يكن سهلا ، لتعدد المصالح ، ولوجود اتفاقات تحدد وضعية فلسطين الدولية . فلسطين بلد عربي ، مأهول بقسم من العرب الذين كانوا يحاربون مع الحلفاء ، بكل ما أوتوا من قوة ، لتحقيق وحدة بلادهم ، ونيل استقلالهم، اللذين وعدتهم بهما الحكومة البريطانية في اتفاقها مع الشريف حسين . ثم ان اتفاق سايكس ـ بيكو وضع الارض المقدسة تحت نظام دولي لا يحق بموجبه لدولة ما ان تسيطر عليها . فكانت وضعية فلسطين هذه ، تحول بين حكومة لندن، وبين وضعها فلسطين رأساً تحت سيادتها . فعملت على ايجاد حيلة للوصول الى غايتها ، فوجدتها في الصهيونية . فكان تصريح بلفور حجة لبريطانيا في عدم اعترافها باستقلال العرب في فلسطين ، وفي الحيلولة دون تطبيق نظام دولي على الارض المقدسة .

واعتقدت حكومة لندن حينئذ أن في السياسة الصهيونية ما يؤمن لها البقاء في فلسطين . اذ هي لا تستطيع البقاء فيها كدولة فاتحة ، لأنها لم تدخل بلاد اعداء ، وانما احتلت بلاد العرب حلفائها الذين حاربوا معها للتغلب على العدو المشترك ، ولنيل الاستقلال . وحتى لو انها حصلت ، بعد الحرب ، على الانتداب على فلسطين ، فان ذلك لا يخولها البقاء فيها ، ولا بد للانتداب ان ينتهي امده ، كما انتهى ، بعد ذلك ، انتدابها في العراق، وانتداب فرنسا في سوريا، لان عرب الشرق الادنى ، تواقون الى الحرية التي عملوا من اجلها منذ سنين ، وحاربوا في سبيلها . وهم يودون تحقيق وحدة بلادهم ويسعون اليها ، لارجاع مجدهم الغابر والقيام بما قام به اجدادهم ، من المساهمة في تقدم الحضارة. فحب الحرية ، وتعشق الاستقلال ، والنهضة العلمية ، كلها حائل منيع بين البلاد العربية واطماع المستعمرين . وكانت بريطانيا تعرف ذلك حينما وضعت الخطوط

الكبيرة لسياستها في فلسطين عام ١٩١٧ . فعزمت على استخدام « تضارب المصالح الصهيونية مع الحركة القومية العربية » لتبقى هي في فلسطين .

فهل اسكان اليهود فلسطين مما يؤمن لبريطانيا المستقبل فيها ، ويحفظ لها النفوذ في الشرق الادنى ؟

التاريخ يظهر ان اليهود متى استقووا في بلاد لا يحتملون سيادة اجنبية، ويعملون بكل ما في وسعهم على ابعادها ، وهم لا يترددون في التحالف مع عدو سابق للقضاء عليها ... وبعبارة موجزة ، لم يكن اليهود ابداً اصدقاء اوفياء للدول التي حمتهم .

ورغم ان اليهود لا يزالون اقلية في فلسطين ، وفي حاجة الى مساعدة الحراب والمدافع والطيارات البريطانية لحفظ كيانهم فيها ، فانهم لم يلاطفوها ، بل كالوا لها التهديد كيلا :

صاح « ابرلين » Eberlin . J منذ ١٩٢٠ ،والصهيونية لم تقف على رجليها: « لا يأخذ الشعب اليهودي فلسطين الا عندما يضعف (الامبريالزم) البريطاني. (١).

وقال الدكتور وايزمن في العام نفسه « سنبقى في فلسطين أردتم ذلك،أيها البريطانيون أم لم تريدوا ».(٢)

وصرح اوسكار كوهين Oskar Cohen ، في اجتماع عقد في برلين: « اننا نعلم ان الدولة البريطانية لم توجد الا منذ زمن يوازي سدس مدة تاريخنا. ولا يستولي اليهود على فلسطين الا عندما تزول الامبراطورية البريطانية».(٣)

ولا يصح الاعتقاد بان هذه الاقوال ليست الا كلمات مرسلة في الهواء ،

(١) راجع ⟨Our tasks in the lands of our Fathers on the Eve of regeneration⟩ . J. Eberlin

(٢) راجع الجريدة الالمانية الصهيونية : Die Judische Rundshau العدد ٤ عام ١٩٢٠ .

(٣) ذكرها الدكتور كنعان في كتابه: The Palestine Arab Cause صفحة ١٠٥ راجع في الكتاب ذاته كلمة كولدمان Goldman : « لن يكون مستقبل فلسطين في يد بريطانيا ، اننا نحقق الصهيونية تحت اي حكومة »

او اعتبارها آراء فردية . ان الوقائع في فلسطين منذ الاحتلال ، تثبت ان هنالك خطة منظمة يعمل لتنفيذها كل صهيوني . لقد نجحت الصهيونية ، ولما تزل اقلية في الارض المقدسة ، في التسلط على ادارة فلسطين وحكومة لندن . لا يسن قانون ، ولا يؤتى بعمل ، الا بعد موافقة الصهيونية ، ولو كان ذلك يمس الكرامة البريطانية ، ويضر بمصالحها... ولقد عظم نفوذ الصهيونيين حتى اصبح لهم حق الرقابة على تعيين الموظفين في فلسطين. اذا لم يعجبهم موظف، انكليزي او غير انكليزي ، فلا يجدون ادنى صعوبة في اقصائه عن عمله ، وابعاده عن فلسطين ، مهما كانت مكانته في الحكومة . والامثلة عديدة كان بينها ابعاد مندوب سام ، وسكرتير عام للحكومة ، وقاضي القضاة . ولم يكن ذنبهم الا انهم كانوا شرفاء ، يحبون العدل ، ويأبون الخضوع للسياسة الصهيونية ...

ونفوذ الصهيونية في لندن جد عظيم . ومن المهم ان يقف المرء على خفايا القضية التي أقيمت على مستر توماس ، وزير المستعمرات السابق . كل شيء في هذه القضية يحمل على الاعتقاد بانها لم تكن الا مؤامرة حاكها الصهيونيون للانتقام من مستر توماس ، لانه اصر على انشاء مجلس تشريعي في فلسطين لم يكن الصهيونيون راضين عنه . وكم كان فوزهم عظيما عندما تمكنوا من استبداله بصديقهم الحميم ، وداعية قضيتهم الكبير : السير اورمسبي غور...

وأخيرا أليس عجز حكومة جلالته عن العمل بما اوصت به لجانها الرسمية ، التي درست الحالة في فلسطين ، بل أليس عجزها عن تنفيذ قرارها الذي ضمنته في الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ ، واضطرار مستر ماكدونالد، رئيس الوزارة حينئذ ، الى محادثة الصهيونيين ، وارسال كتاب الى الدكتور وايزمن ، يلغي به ما جاء في الكتاب الابيض لصالح العرب - أليست هذه الوقائع ، دليلا ساطعاً على خضوع الحكومة البريطانية للصهيونية ، وتحكم الصهيونيين فيها ؟.

ليس من مصلحة بريطانيا ايجاد اكثرية يهودية في فلسطين، وانما مصلحتها

تقضي فى بقاء فلسطين بلداً عربياً ، تسكنه اكثرية عربية .

لقد بذلت بريطانيا جهوداً عظيمة ، قبيل الحرب الكبرى واثناءها ، لنيل صداقة العرب . فوثق العرب بها وصادقوها، واخلصوا في صداقتهم لها. والعرب عامل كبير وقوي فى تأمين مركزها ومصالحها فى الشرق الادنى . والانكليز لا ينكرون ذلك . وبريطانيا لا تستطيع المحافظة على المركز الذي لها في الشرق الادنى ، ولا تأمين مصالحها في بلاد العرب ، الا اذا كان العرب راضين عنها . وقد زادت اهمية هذه الحقيقة ، بعد الانقلاب الاخير الذي طرأ على الوضعية الدولية ، فقوي مركز ايطاليا في افريقيا الشرقية ، وفي البحر الاحمر ، بالقرب من باب المندب ، وفي البحر الابيض المتوسط .

ومن درس نفسية العرب ، وصلابتهم في مبدئهم ، وتعلقهم بفلسطين ، التعلق الذي يفوق حد الوصف ، يعرف ان العرب ، في جميع بلادهم ، لن يرضوا عن السياسة الصهيونية الطامحة الى جعل فلسطين مملكة يهودية . وهم بالطبع لن يرضوا عن الحكومة البريطانية ان استمرت خاضعة للصهيونية ، وسائرة على سياسة تهويد فلسطين . وان موقف الاقطار العربية من الثورة الفلسطينية الاخيرة ، واشتراكها فيها معنوياً ، ومادياً ، واهتمام ملوكها بشأنها ، لخير دليل على صحة هذا الحكم . كل عربي ، سواء أكان من فلسطين ، او من سوريا ، او من العراق ، او من قلب الجزيرة الخ ... يبغض الصهيونية ومن يساعدها، ويجد في محاربتها . وأخذ هذا البغض يعظم ويشتد ، حتى قلقت النفوس واضطربت، وعادت لا تصبر ، وعزمت على التخلص من الصهيونية مهما كلفها الامر ...

وما اقرب الشبه بين موقف العرب من الترك قبل الحرب ، وموقفهم الآن من الانكليز . لم يكن العرب براضين عن الحكومة التركية ... فلما سنحت الفرصة ثاروا عليها ، وانضموا الى الانكليز ، وحاربوا الترك ، فكانوا العامل الاكبر على انكسارهم وانتصار الانكليز في ساحات القتال الشرقية. ومما يؤسف

له ان الحكومة البريطانية لم تنصف العرب فيما بعد الحرب ... واخذت تنفذ السياسة الصهيونية في فلسطين ، رغم احتجاجات العرب الصارخة . فادى ذلك الى امتعاض العرب وتشكيهم من بريطانيا ، التي كانت اعز اصدقائهم. واخذهذا الامتعاض يتحول الى سخط لان حكومة لندن لم تزل اسبابه. وهذا السخط يشتد ويعظم لاستمرار حكومة جلالته في سياسة تهويد فلسطين ...

واذا لم تغير الحكومة البريطانية سياستها الصهيونية في فلسطين ، ولم ترض العرب ، فالتاريخ يعيد نفسه . ويكون العرب ، هذه المرة ، ضدها في الساعات العصيبة . وطبيعي ان ينقلبوا عليها ويكونوا مع الدول التي تنازعها النفوذ في الشرق الادنى . ولا يحق لبريطانيا ان تلومهم ، لانها هي التي تكون قد حملتهم على سلوك هذا السبيل مكرهين .

وفي امكان بريطانيا اجتناب هذا الخطر بسهولة ، والاحتفاظ بصداقة العرب المفيدة . وذلك بان تحل القضية الفلسطينية ، حلا عادلا يقبل به العرب كلهم . وليس هذا الخطر وهميا ، لان اكثر من امة تتودد الى العرب ، وتسعى لنيل صداقتهم ، لاتخاذهم فيما بعد ، سهما تضرب به بريطانيا . ولا مجال للجدل فيما اذا كان العرب يستفيدون من مجازفة كهذه . لان الشعب العربي عاطفي وسريع الغضب ، ويفضل ، في كثير من الاحيان ، شعور الاطمئنان الى انه ثأر لنفسه ، ويقدم ذلك على المصلحة الحقيقية التي قد يقررها العقل والمنطق. وكثير من الامثال تري هذه الناحية من النفسية العربيه .

واهمية العرب لبريطانيا زادت اليوم عما كانت عليه قبل الحرب العامة لاسباب عدة . منها ما يتعلق بانابيب البترول : ان فوز الاسطولين البريطانيين البحري والجوي ، في حرب مقبلة ، في البحر الابيض المتوسط ، يتوقف على حسن تموينهما بالبترول ... ومستودع هذا البترول حيفا . ويأتي البترول الى حيفا من مسافة بعيدة ، من الموصل ، البلد العربي ، مارا ببلاد كلها عربية . ولاجل

ان يصل هذا البترول الى حيفا ، يجب ان يكون العرب اصدقاء للانكليز،اوان يخصص الانكليز اسطولا خاصا من الطيارات لحفظ خط الانابيب ومنع العرب بالقوة من مهاجمتها واتلافها . فهل بريطانيا في غنى عن مثل هذا الاسطول لتخصصه للمحافظة على الانابيب ؟ . ثم ان كانت في غنى عنه ، هل تستطيع الطيارات ، مهما كان عددها ، من المحافظة عليها ليلا ، ورد هجمات العرب عنها في الظلام ؟ . من الاكيد ان الجواب سلبي . فينقطع عندئذ البترول عن حيفا، وتضطرب حركة التموين ، التي يتوقف على استمرارها بانتظام الامل في الفوز في الحرب المقبلة ...

ولا يجب ان يغيب عن البال ان الحكومة البريطانية اكبر دولة تحكم شعوباً اسلامية . واريد الكلام بصورة خاصة عن مسلمي الهند . معلوم ان الحكومة البريطانية لا تستطيع البقاء في الهند ، او على الاقل، لا تستطيع حكم هذه البلاد الغنية بسلام ، دون مساعدة الطائفة الاسلامية فيها . وان خسران الهند ، او اختلال الامن والادارة فيها ، له عواقب جد خطيرة على مصير الامبراطورية البريطانية . فان تساهلت انكلترا في تهويد فلسطين ، او في ايجاد اكثرية يهودية فيها ، فانها تغضب بذلك مسلمي الهند . وهي لا تجهل ان هؤلاء قد اظهروا مراراً عديدة حبهم وتعلقهم بالارض المقدسة .

فهل تريد بريطانيا تضحية صداقة العرب وولاء المسلمين ، في سبيل ارضاء الصهيونية ، دون ان تعرض امبراطوريتها للاخطار ؟ .

وفي الواقع ليس هناك من سبب رئيسي يفرق بين الانكليز والعرب غير الصهيونية، فاذا زال خطر الاستعمار الصهيوني ، زال معه السبب الرئيسي الذي يبعد العرب عن الانكليز ، ولا يبقى بعد ذلك شيء يحول دون التفاهم الذي يضمن للعرب استقلالهم ، وللانكليز مصالحهم وسلامة طرق مواصلات الامبراطورية .

نرى من هذه الكلمة السريعة ، ان السياسيين البريطانيين الذين يعتقدون بان وجود اكثرية يهودية فى فلسطين ، مما يفيد المصالح البريطانية، على خطأ عظيم . ان على الحكومة البريطانية ، حرصا على مصالحها ، ان تفكر مليا فى أهمية فلسطين الحديثة ، الناجمة عن استقلال مصر ، وعن التغير الكلي الذي طرأ على الوضعية السياسية فى البحر الابيض المتوسط . وهذه الحالة تقضي عليها بان لا تدع الصهيونية تستولي على فلسطين ، وان تحافظ على عروبتها .

الكتاب الثاني

الوطن القومى اليهودى

« لا استطيع أن أصد نفسى عن القول بسان هذه التجربة (الوطن القومي) ، تجربة عظمى ، لان العالم لم يجرب واحدة مثلها من قبل،ولانها بحذافيرها بدعة » .

اللورد بلفور ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٧

اذن ، فالوطن القومي،اليهودي في فلسطين ، تجربة،وتجربةفيها مجازفة،لانه لم يسبق ان رأى العالم مثلها . وحظ كل تجربة النجاح او الفشل . والفشل ينجم اما عن خطأ في النظرية التي قامت التجربة لتحقيقها،واما عن اعوجاج فىالطريقة التي اتبعت لتطبيقها .

ونرى من الوقائع التي سادت فلسطين منذ الاحتلال حتى اليوم ،ان هناك شيئا غير عادي ، يمنع الامن من الاستتباب ، ويدخل فى نفوس اهل البلاد الخوف على مصيرهم وكيانهم ، ويدفعهم الى التشكي ثم الى الثورة ...فهل الدافع الى هذه الحالة الجديدة التي سادت فلسطين ، هو الخطأ فى نظريةالوطن القومي نفسها ، أم الخطأ فى الطريقة التي اتبعت فى تطبيقها ؟ .

ولنقف على الجواب الصحيح ، يجب ان نعرف اولا ، على أي اساس يقوم الوطن القومي اليهودي فى فلسطين ؟ وهل هذا الاساس خال من كل عيب؟ثم،الم تسع الهيئات الصهيونية فى تأويله وتحويره حسب اغراضها ومآربها ؟ واخيراً، هل طبقت التجربة حسب الغاية التي وضعت من اجلها ، ام وقعت فى تطبيقها اغلاط فادحة ؟ .

هذه ثلاث نقاط من الاهمية بمكان ، افرد لدراسة كل منها فصلا من هذا الكتاب .

الفصل الاول

وعد بلفور وصك الانتداب

رأينا ان الحكومة البريطانية اصدرت عام ١٩١٧ تصريح بلفور ، تحت ظروف قاهرة . وكانت الغاية منه اجتذاب العالم اليهودي نحو الحلفاء ، للحصول على مساعدته المالية ، ولاستخدام نفوذه في التأثير على الولايات المتحدة ، لتخرج من حيادها ، وتدخل الحرب في صفوفهم .

وضمنت انكلترا ، بعد الحرب ، سياسة التصريح في صك الانتداب على فلسطين . فاصبح التصريح وصك الانتداب الاساس الذي تقوم عليه السياسة في الارض المقدسة .

فما هي الواجبات التي تضعها هاتان الوثيقتان على عاتق الحكومة البريطانية؟ وما هي قيمة كل من التصريح وصك الانتداب ؟ .

١

واجبات الحكومة المنتدبة

في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧ ، ارسل اللورد بلفور ، وكان حينئذ وزير خارجية بريطانيا العظمى ، كتابا الى اللورد روتشيلد ، هذا نصه :

« عزيزي اللورد روتشيلد ،

« يسرني ان ابعث اليكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك ، بالتصريح (الوعد) الذي ينم عن العطف على اماني اليهود الصهيونيين ، والذي رفع الى الوزارة ووافقت عليه .

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي

للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، مع البيان الجلي بان لا يفعل شيء يضير الحقوق المدنية والدينيه التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن،ولا الحقوق او المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى » . (١).

ان هذا التصريح كتب باسلوب ديبلوماسي ماهر . روعي فيه التيقظ ، ووزنت كل كلمة منه مراراً ، واريد فيه الغموض . فهو لم يعرف معنى «الوطن القومي » وحدوده ، ولم يبين ما هي « الحقوق المدنية والدينية التي يجب ان لا يضيرها الوطن القومي » .وذلك لان التصريح تجربة لا عهد للتاريخ بمثلها ، ولكي يكون المجال واسعاً لاعمال اليهود ، فينالوا بجهودهم ما لم ينالوه بالوعد. وعلى كل حال فالتصريح يحتوي على شقين :

الاول — العطف على انشاء وطن قومي لليهود فى فلسطين ، وبذل الجهد لتسهيل تحقيقه .

والثاني — ان لا يفعل شيء (الوطن القومي) يضير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة فى فلسطين .

على السياسة التي تريد العمل بموجب تصريح بلفور ان تراعي شقيه حق المراعاة . ومما زاد فى صعوبة تلك السياسة الاختلاف الواقع فى اولية الشقين، وضعف الحكومة المنتدبة امام الصهيونيين .

فالصهيونيون يدعون بان القسم الرئيسي من التصريح والمهم فيه هوالشق الاول..ويريدون تنفيذشقي التصريح حسب ترتيب نصها . ويعتقدون بان واجب الحكومة المنتدبة انشاء الوطن القومي اليهودي قبل كل شيء ، ومتى تم ذلك ، تراعي الشق الثاني ، وتعمل على تنفيذه (ا) . اما لجنة الانتدابات ، والحكومة البريطانية ، فعلا خلاف هذا الرأي،وقد صرحتا مراراً، بان اهمية

(١) ترجمة رسمية .

الشق الثاني كاهمية الشق الاول ، ولا يصح انشاء الوطن القومي اليهودي دون مراعاة ما جاء فى الشق الثاني من التصريح .ومما يؤسف له ان الحكومةالمنتدبة لم تدعم هذا الرأي بالعمل بل تركت الامور تسير حسب اهواء الصهيونيين...

* * *

لو كان « تصريح بلفور » المستند الوحيد الذي ترتكز عليه السياسة فى فلسطين ، لكان فى امكان الحكومة ان تبرر بموجبه اي عمل سياسي تقوم به ... على ان هناك مستنداً آخر يشمل تصريح بلفور ، ويرسم قواعد السياسة الواجب اتباعها فيانشاء الوطن القومي . وهذا المستند هو «صك الانتداب»، الذي اصدرته عصبة الامم عام ١٩٢٢ . وهو مؤلف من ديباجة ومن ٢٨مادة، بعضها يتعلق بالوطن القومي (١) واهمها المادتان الثانية والسادسة .(٢)

تضع المادة الثانية ، التي تضمنت تصريح بلفور ، على عاتق الحكومة المنتدبة ثلاثة امور :

١ — انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .
٢ — ترقية الحكم الذاتي .
٣ — ضمان الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين ، بقطع النظر عن الجنس والمذهب .

اما المادة السادسة ، التي تنص على الهجرة ، فتلقي على عاتق الحكومة ...

(١) وهي : ٢ ، ٤ ، ٦ ، ٧ ، ١١ (٢) ، ٢٢ و٢٣ .

(٢) المادة الثانية : « تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في احوال سياسية ، وادارية ، واقتصادية ، تكفل انشاء وطن قومي لليهود ، كما جاء في ديباجة هذا الصك ، وترقية انظمة الحكم الذاتي ، وضمان الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين ، بقطع النظر عن الجنس والمذهب »

المادة السادسة : على حكومة فلسطين ، مع ضمان عدم الحاق الضرر بحقوق ومركز سائر طوائف الاهالي ، ان تسهل الهجرة اليهودية ، في احوال وشروط مناسبة ... » .

البريطانية ثلاثة واجبات :

١ — ان تسهل الهجرة اليهودية .

٢ — في احوال وشروط مناسبة .

٣ — مع ضمان عدم الحاق الضرر بحقوق ومركز سائر طوائف الاهالي.

ومع ان صك الانتداب اوضح من تصريح بلفور ، فهو لم يعرف معنى « الوطن القومي » ، ولم يبين متى يتم انشاؤه . وعلى كل حال فهو صريح من جهة تأثير انشاء الوطن القومي على مصالح العرب . ويفهم منه جلياً بانه :

١ — لا يجوز الاستمرار في انشاء الوطن القومي اذا كان ، ذلك الاستمرار ، يضر بمصالح الاهالي غير اليهود .

٢ — على الحكومة ان ترقي انظمة الحكم الذاتي ، اثناء انشاء الوطن القومي لا بعده .

٣ — لا يجوز استمرار الهجرة اليهودية متى صارت مجحفة بحقوق ومركز سائر طوائف الاهالي .

رغم صراحة صك الانتداب ، من هذه الناحية ، فان الصهيونيين نجحوا في الضغط على الحكومة لتنفذ الفقرات ، التي في صالحهم فحسب من صك الانتداب . عندها زاد خوف العرب على مصيرهم ، فارسلوا وفداً الى لندن ، ليطالب الحكومة البريطانية بانشاء حكومة وطنية . فرفضت حكومة لندن طلبهم . ورفضها انشاء حكومة نيابية دمقراطية ، معناه وضع العرب في حالة لا يستطيعون فيها الدفاع عن مصالحهم وحقوقهم .

* * *

ولازالة المخاوف ، ولتهدئة العواطف الثائرة ، اصدرت الحكومة البريطانية ، عام ١٩٢٢ ، بيانا لسياستها في فلسطين . واعتبرت هذا البيان تفسيراً « للوطن القومي » ، وخطة تسير عليها في سياستها الفلسطينية . ومما جاء فيه :

« ... وهي (حكومة جلالته) تلفت النظر الى الواقع بان احكام التصريح المشار اليه ، لا ترمي الى تحويل فلسطين برمتها الى وطن قومي لليهود ، بل الى انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . » (١)

« وتنفيذاً لهذه السياسة ، من الضروري ان تتمكن الطائفة اليهودية في فلسطين من زيادة عدد افرادها بواسطة المهاجرة . ولا يجوز ان تكون هذه المهاجرة كبيرة ، لدرجة بحيث تزيد على مقدرة البلاد الاقتصادية عندئذ على استيعاب مهاجرين جدد . ومن الضروري ضمان عدم صيرورة المهاجرين عبئاً على اهالي فلسطين كافة،وعدم حرمان اية طبقة من الاهالي الحاليين من عملهم...».

« ان اللجنة الصهيونية في فلسطين،المعروفة الآن باللجنة الصهيونية التنفيذية لا ترغب في ان يكون لها ، كما انها لا تملك اي قسط في ادارة البلاد العامة... وانما ينحصر عملها الخاص ، في التدابير التي تتعلق باليهود ، ومساعدة البلاد في تقدمها ، دون ان يخولها ذلك حق الاشتراك ، بصورة ما ، في حكومتها».(٢)

لم يرض الصهيونيون ، بادىء الامر ، عن هذا البيان ، وبذلوا جهوداً عظيمة لالغائه . غير ان شخصية مستر تشرشل الكبيرة ، حالت بينهم وبين ما كانوا يريدون . فاضطرت ، في النهاية ، الجمعية الصهيونية،الى قبوله ،وتعهدت بأن تدير سياستها على مقتضاه . وهي انما تعهدت بذلك مرغمة مضطرة،وفي نيتها، كما اظهرت الوقائع فيما بعد ، تمزيقه حينما تسمح الظروف.ثم اخذت في الانحراف عنه ، واتباع سياسة معاكسة للسياسة التي خطها البيان . الى ان بلغت الجرأة بهم ان قرروا في المؤتمر الصهيوني السادس عشر عام ١٩٢٩ ما نصه : . .

« يرى ان الوقت قد حان ، لمطالبة الدولة المنتدبة باتخاذ التدابير التي تضمن قيام الوكالة اليهودية بقسطها الحقيقي في ترقية البلاد عن طريق اشتراكها ،

---

(١) الخط موجود في النص الاصلي .
(٢) الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢. تجد نصه في الذيل الخامس لتقرير «لجنة شو» ١٩٣٠.

اشتراكا تاما ، في ادارة البلاد » ! . ومما لا شك فيه ، ان هذا القرار مخالف كل المخالفة لبيان مستر تشرشل ولتعهد الصهيونيين . وقد ادت هذه السياسة التي اتبعها الصهيونيون ، والمخالفة لاقوالهم وتعهداتهم ، الى « عدم نجاح بيان المستر تشرشل في ازالة الغموض الذي ساد البلاد عام ١٩٢٢ ، بشأن السياسة المقبلة في فلسطين » (١) ، بل زادت الحال سوءاً . وفي الواقع ، ان الغاية من وضع بيان مستر تشرشل كانت « تصحيح الاماني التي تغنى بها بعض طبقات من الشعب اليهودي ، لا تفسير حقوق غير اليهود من اهالي فلسطين » . (٢)

وكان غموض السياسة البريطانية ، وتلونها ، في فلسطين ، وطمع الصهيونية في « جعل فلسطين يهودية كما ان بريطانيا انكليزية » ، السبب الرئيسي لتخوف العرب على مصيرهم ، ولحدوث اضطرابات وثورات في الارض المقدسة .

« وفي رأينا ، أنه لو اصدرت حكومة جلالته تفسيراً اوضح من التفسير السابق لمعنى الشق الثاني من تصريح بلفور ، واحكام صك الانتداب التي ، لكونها بنيت على ذلك الشق من التصريح ، تنص على صيانة حقوق الطوائف غير اليهودية في فلسطين ، لكان عملها هذا جزيل الفائدة » .

« وفضلا عن ذلك فاننا نحث حكومة جلالته ، حبا في مصلحة جميع اهالي فلسطين على السواء والحكومة المحلية ايضاً ، ان تفسر ، بصراحة وجلاء المعنى الذي تعلقه على تصريح بلفور برمته ، وان تبين ايضا ، بنفس الصراحة ، مجرى السياسة التي تريد ان تتبعها في تلك البلاد في المستقبل . » (٣)

* * *

وكان لتقرير اللجنة التي درست الحالة في فلسطين برئاسة السير والترشو ،

(١) تقرير لجنة شو ١٩٣٠ . صفحة ٨٣ . اننا نورد الوقائع التي تثبت مخالفة الجمعية الصهيونية بيان مستر تشرشل في مكان آخر .

(٢) تقرير لجنة شو . صفحة ١٨٢ .

(٣) تقرير لجنة شو . صفحة ١٨٢ و١٨٣ .

ولوصايا الخبير الكبير السير جون هوب سمبسون ، وقع عظيم لدى حكومة لندن وفي الدوائر السياسية الانكليزية . وظهر لها رسميا ، وبوضوح جلي ، الخطر الذي يداهم كيان العرب في فلسطين. فعزمت على تبديل السياسة التي كانت متبعة حتى ذلك الوقت ، واختطاط سياسة جديدة مستقاة من وصايا الخبراء القديرين. وبعد درس الموضوع ، اصدرت حكومة لندن كتابها الابيض في اكتوبر ١٩٣٠ ، وشرحت فيه ، بعض الشرح ، صك الانتداب ، وابانت بغموض اقل من المعتاد ، السياسة التي تنوي اتباعها في فلسطين .

وخاطبت الحكومة البريطانية ، في كتابها الابيض ، زعماء الصهيونية قائلة : بانه ليس من الصواب ، ولا من الحكمة ، ان يتابعوا الضغط على حكومة جلالته ، لتتبع سياستهم في مسألتي المهاجرة والاراضي . اذ معنى عملهم هذا ، انهم يتجاهلون واجب الحكومة نحو سكان البلاد من غير اليهود ، المعادل تماما لواجبها نحو السكان اليهود . (١)

ومما يؤسف له ، ان الحكومة لم تفسر ، في كتابها الابيض لعام ١٩٣٠ ، معنى « الوطن القومي » تفسيراً جديداً ، بل اكتفت بان تورد تفسير المستر تشرشل له عام ١٩٢٢ ، ذلك التفسير الذي اثبتت الحوادث والتقارير بانه لم يزل خوف العرب على حقوقهم ومصيرهم ، ولم يكشف تلك الغيوم الظلماء التي تلبدت في جو فلسطين ، منذ تصريح بلفور حتى اليوم . وتفسير مستر تشرشل يقول:

« ومتى سأل سائل ما هو معنى ترقية الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، يمكن ان يجاب على ذلك بانه لا يعني فرض الجنسية اليهودية على اهالي فلسطين اجمالا ، بل زيادة رقي الطائفة اليهودية بمساعدة اليهود الموجودين في جميع انحاء العالم ، حتى تصبح مركزاً يكون فيه للشعب اليهودي برمته ، مكانة وفخر من الوجهتين الدينية والجنسية . »(٢).

(١) راجع الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ صفحة ٥ ، (من الطبعة الانكليزية) .
(٢) الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ .

ويرى من هذا النص بانه ليس بتعريف صريح للوطن القومي، بل يمكن تأويله وتفسيره حسب اهواء واغراض الطائفة اليهودية . ويمكن القول بانه ان اخذ هذا التعريف على حدته ، كان اشد ظلما وعدوانا على حقوق العرب من تصريح بلفور وصك الانتداب . اذ هما يشرطان في انشاء الوطن القومي ، عدم ايقاع الضرر بحقوق عرب فلسطين الدينية والمدنية وعلى ترقية الحكم الذاتي . اما تعريف المستر تشرشل فيوقف انشاء الوطن القومي على مشيئة وارادة اليهود فحسب . اذ هو يرى الاستمرار في عملية الانشاء حتى يصبح اليهود شاعرين بانهم قد صار لهم فخر ، في فلسطين ، من الوجهتين الدينية والجنسية . ! .ولكن متى يشعر اليهود بذلك ؟ أولا يجوز ان لا يشعروا بذلك الا بعد « ان تصبح فلسطين يهودية كما ان بريطانيا انكليزية » ؟ . وألم تظهر الصهيونية بانها عاملة على تحقيق امنيتها هذه ؟ ...

وكم كان حرياً بوزارة مستر ماكدنالد ، وضع تعريف آخر عادل وصريح للوطن القومي ، كما اوصت بذلك لجنة شو .

وعرض في الكتاب الابيض، بعد ذلك ، السياسة التي عزمت الحكومة البريطانية اتباعها في مشكلتي المهاجرة والاراضي ، وحددت وضعية الوكالة اليهودية ، وعلاقتها بحكم البلاد . وسنعود الى بحث هذه النقاط في مكان آخر. والذي يهمنا هنا ان نذكر ان الكتاب الابيض اظهر خطأ تفسير الصهيونية لصك الانتداب بادعائها بان الغاية الاساسية من الانتداب انشاء الوطن القومي اليهودي ، وان نصوص صك الانتداب الاخرى شيء ثانوي . واكدت حكومة جلالته ، بانها تعتبر دائما ادعاء الصهيونية هذا خطأ فاضحا ، وقائما على غير اساس . وصرحت ، من جديد ، بان واجبات الحكومة المنتدبة نحو العنصرين اللذين يتألف منهما سكان فلسطين ، متساوية، عام المساواة في الاهمية .(١) وان الوقت قد حان لتأسيس الحكم الذاتي في فلسطين ، لفائدة جميع السكان ،

(١) الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ . صفحة ١٠و١١ (من الطبعة الانكليزية)

وان حكومة جلالته ستشرع في ذلك فوراً بلا تأخر . (١)

ووعد مستر ماكدونالد، بشرفه وشرف حكومة جلالته ، بتنفيذ ما جاء في الكتاب الابيض، فيعيد بذلك السلام الى الارض المقدسة .

وما كاد الصهيونيون يطلعون على هذا الكتاب حتى ثار ثائرهم . واخذ قادتهم يترددون على وزارة المستعمرات ، ويناقشون ، بحدة ، وزير المستعمرات، اللورد باسفيلد ، ورئيس الوزارة، مستر ماكدونالد، مظهرين سخطهم ، رافضين قبول السياسة الجديدة التي تنوي الحكومة اتباعها في فلسطين . وعقدوا الاجتماعات وارسلوا برقيات الاحتجاجات ، ثم هددوا حكومة جلالته باعلان حرب اقتصادية عليها ...

تراجعت حكومة جلالته ، اما عن ضعف او عن خوف من عواقب مثل هذه الحرب، وخضعت لمشيئة وايزمن وجماعته ... وارسل اليه مستر ماكدونالد كتابا في ١٣ فبراير (شباط) ١٩٣١، ارضى فيه الصيونيين ومحا كل ماجاء في الكتاب الابيض لصالح العرب . واكد ، مستر ماكدونالد ، انه لا يحيد عن مبادىء السياسة التي وضعها مستر تشرشل عام ١٩٢٢ ، تلك السياسة التي اظهرت اللجان الرسمية ، انها عقيمة وانها سبب جميع الاضطرابات التي حدثت في فلسطين .

ودعا هذا الخضوع من حكومة جلالته لارادة الصهيونية الملأ ، الى ان يرى في ذلك تسلط الصهيونية على الحكومة البريطانية وتحكمها بها . وانها هي التي تدير السياسة الفلسطينية كما تشاء ، غير ناظرة الى مضمون صك الانتداب، وغير مراعية حقوق اهل البلاد، حتى تلك التي نص صك الانتداب على وجوب المحافظة عليها . واضر رجوع مستر ماكدونالد عن قرار حكومة جلالته ، الذى جاء في الكتاب الابيض ، بالهيبة والعدالة البريطانية . واقنع العالم عامة ، والعرب خاصة ،بان لا قيمة لاراء اللجان والخبراء الرسميين ، لان حكومة جلالته ، مهما كان حسن نيتها فهي عاجزة عن تنفيذها ، وليس لها الحول ولا القوة لاقامة

(١) الكتاب الابيض لعام ٩٣٠ ـ صفحة ١٣ «من الطبعة الانكليزية»

العدالة في فلسطين ، والمحافظة على حقوق العرب المهضومة هضما فاحشا .

ويظهر مما سبق ان شقي تصريح بلفور ، اي الواجبات المزدوجة التي يلقيها صك الانتداب على عاتق الحكومة ، يجب ان تسير جنباً لجنب . ولا يجوز تطبيق الشق الاول ، اي انشاء الوطن القومي ، دون مراعاة الشق الثاني ، اي المحافظة على حقوق العرب ، وترقية نظام الحكم الذاتي في البلاد . فكل سياسة تسير على خلاف ذلك ، معناها محاباة احد الفريقين ، وعدم تطبيق صك الانتداب.
ولنبحث الآن فيما اذا كان تصريح بلفور ، الذي ادمج في صك الانتداب ، غير مناف بعهود قطعها الحلفاء على انفسهم ، وصرحوا بانهم حاربوا في سبيلها ، ولمعاهدة عقدتها حكومة جلالته مع العرب .

٢

قيمة تصريح بلفور وصك الانتداب

لقد اشتمل صك الانتداب على تصريح بلفور ، فكل نقد يوجه للثاني يتناول الاول .

لا اريد مناقشة قيمة تصريح بلفور من الوجهة الحقوقية ، بل اكتفي بذكر رأيين في هذا الموضوع :

صرح ميرس S. D. Myres ، وهو كاتب يهودي ، بان « الوطن القومي اليهودي جديد في نوعه ، ولا يوجد مثيل له في الحقوق الدولية... وقد انشيء في بلاد اكثرية سكانها الساحقة من شعب آخر . ».(١) وجاء في قرار محكمة العدل العليا في فلسطين ، ان صك الانتداب « مستند سياسي وليس بحقوقي... يحتوي على نوايا حسنة ، كتابتها اسهل من قراءتها . » (٢)

(١) السجل القضائي . نوفبر (تشرين الثاني) ، صفحة ٩ .
(٢) السجل القضائي ، ١٩٣٢ ، صفحة ١١ .

وان المرء ليدهش ، عند قراءة تصريح بلفور ، من الاضطراب المنطقي في السياستين الانكليزية والصهيونية ، المذكورتين فيه :

منحت بريطانيا الشعب اليهودي حقوقا في بلاد لم تكن لها . كما انه لا يحق لها اليوم ادعاء حقوق فيها مكتسبة اثناء الحرب ، لأنها لم تفتح فلسطين ،وانما هي احتلت قسما من بلاد حلفائها العرب ، الذين حاربوا الى جانبها . وموقف بريطانيا مع اليهود كموقفها فيما لو عملت على اقناع ايطاليا بدخول الحرب لقاء اعتراف لها بحقوق خاصة في احدى المقاطعات الفرنسية، دون علم حكومة باريس...

وتعدت الحكومة البريطانية ، باصدارهـا تصريح بلفور ، على معاهدتين سابقتين وقعت عليهما : معاهدة حسين ـ مكماهون ، ومعاهدة سايكس ـ بيكو. واتخذت مبرراً لعملها هذا ، دفاعها عن الانسانية ، وانقاذ اليهود من حال البؤس، التي هم فيها ! . هي تريد العدالة وتصحيح التاريخ ! . ولكنها ترفع ظلما لحق باليهود قبل الفي عام ، ضحت بعرب فلسطين ، الذين ليسوا بمسؤولين عن الظلم الذي حاق باليهود . وبريطانيا لم تخسر شيئا في انصافها لليهود ، بل رأت في مشروع انصاف اليهود فائدة تعود عليها ...

والعبارة التي صيغ بها تصريح بلفور غامضة ومطاطة ـ فهو يقول بان وطنا قوميا لليهود ينشأ في فلسطين . وذلك يعني ان فلسطين تظل عربية، ويكون فيها فقط وطن قومي لليهود . وان كان هذا التفسير خطأ ، فلا معنى حينئذ لعبارة « في فلسطين » . وصعوبة سياسة تصريح بلفور تظهر عندما يتساءل المرء : ماهو « الوطن القومي »؟ ومتى يتم انشاءه في فلسطين؟ ومتى يجب وقف اتساعه حتى لا تتحول فلسطين الى مملكة يهودية؟ . وماهي الضمانات التي تضمن للعرب، بان الوطن القومي لا يتعدى الحدود التي اذا اجتازها اضر بحقوقهم ووضعيتهم في فلسطين ؟! انه لم يعط لهذه المسائل الهامة الا تفاسير سطحية، مكنت بريطانيا من القيام بما شاءت من مناورات، وجعلت الصهيونيين يأملون خيراً، وجلبت للعرب اخطاراً جساما.

وليس تصريح بلفور ، فيما يتعلق بتنفيذ السياسة الصهيونية ، بمنطقي ولا

بعفيد للقضية اليهودية :

فلسطين بلاد صغيرة لا تكاد تكفي من فيها من السكان . فبديهي انها لا تستطيع استيعاب جميع اليهود ، بل اليهود المضطرين لمغادرة البلاد التي يلاقون فيها شديد الاضطهاد ... وان تمكن الصهيونيون من ايجاد مملكة خاصة لهم في فلسطين، فمملكتهم تظل عاجزة عن الوقوف على قدميها ، وتبقى في قتال مستمر مع البلاد المجاورة لها ، لان العرب لن يرضوا بانسلاخ فلسطين عن بلادهم. وسأعود الى الكلام عن هذه المسألة الهامة في مكان آخر من الكتاب . ولسنا في حاجة الى توضيح انه ليس من مصلحة بريطانيا ايجاد دولة شابة في فلسطين، مجهزة بالاسلحة المالية ، وقادرة على منافستها في الشرق الادنى .

ويتضارب صك الانتداب هو ومعاهدة فرساي ، وعهد عصبة الامم . اذ ان الفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من معاهدة فرساي تفرض على فلسطين انتدابا من درجة (أ) ، مع جميع ما يتضمنه هذا الانتداب من النتائج . وقد وقع هذه المعاهدة عن العرب ، رستم حيدر وعوني عبد الهادي . وضمنت احكام هذه الفقرة من معاهدة فرساي، في الفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من عهد عصبة الامم. اما مؤتمر « سان ريمو » ، الذي لم يمثل العرب فيه ، فقد فرض على فلسطين انتدابا مخالفاً ، كل المخالفة ، لنصوص معاهدة فرساي وعهد عصبة الامم . ففي صك هذا الانتداب اشترط انشاء وطن قومي في فلسطين لشعب غريب عنها ...

ومن عيوب تصريح بلفور وصك الانتداب ، انه لم يراع فيهما البتة مبدأ « حق المصير » ، الذي ادعى الحلفاء انهم قد حاربوا في سبيله ، والذي اقرته عصبة الامم وجعلته من مبادئها الاساسية . وقد اظهر اهل فلسطين رأيهم للجنة « كراين » الاميركية ، التي اوفدتها عصبة الامم الى البلاد العربية للاطلاع على رأي اهلها ، انهم يريدون الوحدة مع سوريا والاستقلال التام ، وانهم يقاومون بكل قواهم الوطن القومي ، والهجرة اليهودية . وصرح المستخدمون

الانكليز للجنة الاستفتاء الاميركية ، بانه لا يمكن انشاء الوطن القومي الا بالقوة المسلحة ، التي يجب ان لا تقل عن خمسين الف جندي . وهذا في حد ذاته برهان ساطع على مافي تصريح بلفور من الاجحاف بحقوق سكان البلاد من غير اليهود ، وهم الاكثرية الساحقة .

ومما هو جدير بالذكر ان اللورد بلفور نفسه اعترف بانه كان يجهل عندما قام بتصريحه المشهور ، ان فلسطين مأهولة بالعرب ! وكل ما كان يعتقده ، انه متى انسحب الترك منها ، خلت البلاد ، واصبحت دون اهل ، ولا حق لشعب فيها . فيكون حينئذ من السهل انشاء الوطن القومي اليهودي ، دون ان يؤدي ذلك الى هضم حقوق ، والحاق اضرار بشعب آخر ! (١)

* * *

وتناقض تصريح بلفور وصك الانتداب مع معاهدة الحسين ـ ما كماهون يستحق ان يفرد له مكان خاص .

ادعت بريطانيا بان فلسطين لم تكن داخلة ضمن البلاد التي وعدت الحسين باستقلال العرب فيها . وادعاؤها هذا لا يقتنع به المؤرخ ، ولا يقبل به العرب . وتحليل مضمون المفاوضات التي جرت بين ما كماهون والحسين ، يؤدي الى نتيجة تخالف كل المخالفة ادعاء بريطانيا ، ويرسخ اعتقاد العرب ، ويقوي حجتهم . وزيادة على ذلك ، فالعرب لم ينسوا الظروف التى سبقت عقد المعاهدة الانكليزية العربية ، وتلتها ، وهي تزيد حجتهم قوة ، وتثبت ايمانهم في عدالة قضيتهم :

ففي اوائل عام ١٩١٧ ، كانت طائرات بريطانية تلقي نداءات ان « اهربوا وتعالوا الينا ... » . وكانت هذه النداءات موجهة « الى الضباط والجنود العرب في الجيش التركي فى فلسطين » ، ومذيلة بعبارة « الجيش الانكليزي فى فلسطين »

(١) السير ارنست بنيت : The Nineteenth Century سبتمبر (ايلول) ١٩٣٦ ، صفحة ٣٣٤ .

وفي جملة ما كانت تلقيه الطائرات الانكليزية مناشير موقعة بامضاء الملك حسين، تؤيد النداءات الانكليزية ، وقد جاء في احدها :

« الى جميع العرب وسواهم من الضباط والرجال الموجودين في الجيش العثماني -

« لقد كانت المملكة العربية مستعبدة تحت سلطة الترك مدة طويلة ... هلموا للانضمام الينا ، نحن الذين نجاهد لاجل الدين وحرية العرب ، حتى تصبح المملكة العربية كما كانت في عهد اسلافكم ... » .

« ويقول العرب انه اذا كانت هذه المناشير والنداءات لا تشكل عهداً فليست اذن الا خداعا من امة عظيمة ، في وقت محنتها ، لشعب وثق بها، واتكل عليها . وهم يجزمون انهم لو اشتبهوا بان سياسة بريطانيا العظمى كانت ترمي، او بانها قد ترمي يوما ما ، الى انشاء وطن قومي ، لأولئك الذين يعتبرونهم امة غريبة عن البلاد التي عاشوا فيها ثلاثة عشر قرناً ، لما فعلوا ما فعلوه، ولما تحملوا الاخطار التي استهدفوا لها » . (١)

لم تلجأ الحكومة البريطانية الى الحجة القائلة بان التحفظ في مراسلات السير مكماهون يشمل فلسطين (٢) ، الا بعد ان طالبها اهل البلاد ، بالحاح، بانشاء حكومة وطنية حسب وعدها لهم في شخص الملك حسين . ولم تتخذ حكومة لندن هذه الحجة مؤخراً ، الا لتبرر عملها في انشاء الوطن القومي، ولتظهر نفسها بانها لم تخلف عهدها .

وتظهر حجة العرب قوية من قراءة المراسلات التي دارت بين السير مكماهون والشريف حسين . ولازالة الشك ، الذي ربما يكون قد حدث في بعض الاذهان ، يحسن بنا ان نكتب كلمة عن النظام الاداري الذي كان متبعا في سوريا وفلسطين اثناء الحكم العثماني :

كانت الامبراطورية العثمانية مقسمة اداريا ، الى ولايات . فكلمة «ولاية»

(١) تقرير لجنة شو ١٩٣٠ ، صفحة ١٦٥، ١٦٦ .
٢) راجع الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ .

تدل على وحدة ادارية تقابلها بالفرنسية « مقاطعة »Departement . وكل ولاية كانت تشمل سناجق واقضية . وكانت سوريا مقسمة الى ثلاث ولايات، « وسنجق » مستقل ، وهي : ولاية سوريا ، وكانت تدعى ايضا ولاية دمشق، ولاية بيروت ، ولاية حلب ، وسنجق القدس المستقل . وكانت ولاية دمشق مثلا تحتوي على اربع سناجق ، منها حوران والكرك جنوبا ، وحماه شمالا ،وعلى عدة اقضية ايضا ، كما ان سنجق القدس كان يحتوى على عدة اقضية .

وكان مركز كل ولاية عبارة عن سنجق ، يشمل عدة اقضية .ولم يكن اسم المركز يعني الولاية كلها ، كما ان « باريس » لا تعني مقاطعة السين. وكثير من ولايات الامبراطورية العثمانية لم تكن تدعى باسم مراكزها . فمثلا كان مركز ولاية « معمرة عزيز » مدينة « خربوط » ، كما ان دمشق كانت مركز ولاية سوريا . وعليه فان كلمة « دمشق » لا تعنى قط ولاية دمشق .

يمكننا ، بعد هذا الشرح الموجز ، الوقوف على حظ الادعاء الانكليزي الصهيوني ، من الصحة : اكد السير مكماهون ، فى تحريره المؤرخ فى ٢٤ اكتور (تشرين الاول) ١٩١٥، المرسل الى الشريف حسين ، بان حكومة جلالته تعترف باستقلال العرب ضمن الحدود التي اقترحها شريف مكة بعد هذه التعديلات : لا تضم « مرسين وادنه ، وبعض الاقسام السورية الواقعة غربي دمشق وحمص وحماه وحلب » الى المملكة العربية لانه « لا يمكن ان يقال عنها انها عربية محضة » . ومن هذا النص الصريح يستنتج :

١ — ان ذكر المدن الاربع: دمشق ، حمص ، حماه ، وحلب ، التى هي على خط واحد ، دون تمييز بينها ،مع ان وضعيتها الادارية تختلف كثيراً ، يدل على ان المراد من استثناء السير مكماهون كان القسم الواقع غربي هذه المدن فحسب .

٢ — لو كان المراد من كلمة « دمشق » ولاية سوريا ، لما كان السير

مكماهون فى حاجة الى ذكر حمص ، وحماه ،لانهما يدخلان ضمن ولايةسوريا ، دخول الاقسام الجنوبية ، سنجق حوران ،وسنجق الكرك. ولكان يكفي ان يؤ كد السير مكماهون ان الجهات الواقعة غربي دمشق وحلب تخرج عن البلاد التي تعدحكومة جلالته استقلال العرب ضمنها .

ولو كان المراد من « دمشق » سنجق دمشق ، لما كان ذكر حمص لازما ، لانها كانت ضمن سنجق دمشق ، ولما استثنى فلسطين ، لان سنجق حوران وسنجق الكرك ، الواقع غربيهما قسم من فلسطين ، كانا مستقلين عن سنجق دمشق .

ويستنتج من هذا ان المراد من تحفظ بريطـانيا كان القسم الواقع غربي « قضاء » دمشق فحسب ، وليس الواقع غربي ولاية دمشق

٣ — لو اريد من كلمة « حلب » ولاية حلب،بالمعنى الذي تفسر به حكومة جلالته كلمة دمشق ، لشمل التحفظ ليس فقط القسم الشمالي الغربي من سوريا، بل ولاية ادنة ، فى حين انه قد افرد تحفظ خاص بادنة ومرسين .

٤ — ان عدم ذكر سناجق الكرك ،عجلون،وعمان، كما ذكرت حمص،وحماه، يدل دلالة واضحة على انه لم يكن المراد حينئذ اخراج القسم الواقع غربي شرق الاردن ، من البلاد العربية الموعود استقلالها . (١)

واخيراً لوان بريطانيا كانت حقا تريد عام ١٩١٥ الاحتفاظ بفلسطين، كما احتفظت بلبنان ، فلماذا لم تذكر ذلك بصورة واضحة وموجزة كقولها مثلا انها تحتفظ بالقسم الساحلي من سوريا ، من الاسكندرونة حتى العريش ؟

* * *

انه من الاكيد الواضح ان فلسطين كانت داخلة ضمن البلاد التي وعدت بريطانيا ، عام ١٩١٥ ، العرب باستقلالهم فيها . وقد منحت اليهود عام ١٩١٧

١ راجع انيس الصغير : Le Sionisme et Le Mandat Anglais en Palestine صفحة ٧٧ — ٨٠ .

بعض الحقوق فى الارض المقدسة . وبعبارة اخرى ، قد وعدت فارسين بجواد واحد ، احدهما صاحب الجواد الشرعي والمتصرف به ، والآخر يدعي بانه وعد به . ومن هذه الوضعية الشاذة نشأت الصعاب في فلسطين، وتعددت الاضطرابات والثورات . وليس هناك من أمل ان تهدأ الحال ، او ان تقطع الاضطرابات والثورات ، باظهار القوة او استعمالها ، بل الحال ستتفاقم ، والاضطرابات والثورات تتكرر ، ما دام الفارسان فى تخاصم . وقد صرح الدكتور وايزمن فى خطاب القاه فى لندن بتاريخ ٢٠ اغسطس (آب) ١٩١٩ ، بان الوعد المعطى للصهيونيين سيعقد الحالة السياسية فى فلسطين.

اننا نعتقد بان الواجبات المزدوجة التي يلقيها صك الانتداب على عاتق الحكومة ، متضاربة وغير قابلة التوفيق (١)، وخصيصا اذا فسرت كما تفسرها الصهيونية ، و نفذت كما تنفذها الحكومة البريطانية .

نعم ان حكومة جلالته لم تمل من تكرار تأكيداتها بان لا تضارب بين واجباتها المزدوجة فى فلسطين ، وانها آخذة فى تنفيذها بعدل وانصاف. ولكن التأكيد وحده ليس برهانا ، ولا يحمل المرء على الاعتقاد بصحته ، خصيصا عندما يأتي الواقع ، ويظهر ان الحالة خلاف ذلك . فقد اثبتت لنا الوقائع، حتى اليوم ، بان الوطن القومى لا ينمو الا بمقدار الاضرار التي يوقعها باصحاب البلاد.

واجابت الحكومة المنتدبة بصراحة فى دورتين متتابعتين لاجتماع عصبة الامم (١٩٢٤ و ١٩٢٥) ، بانه لا يمكن انشاء مجلس تشريعي فى فلسطين يمثل العرب فيه حسب عددهم ، لان ذلك، في اعتقادها ، يحول ، بين الحكومة

---

١ قال احد هاعام « يجب ان يبنى الوطن القومي للشعب اليهودي من المواد المتروكة التي في البلاد ، ومما يجلبه اليهود معهم من الخارج او يشتغله المقيمون منهم في فلسطين، دون ان يهدموا وطن السكان الموجودين . ولما كان الوطنان متجاورين فاذن لا بد من الاختلاف على مصالح الطرفين ، واذن لا محالة من وقوع اصطدام بينهما » . ضمنه محمد اختركتابه : وعد بلفور .

وبين تنفيذ الشق الاول من صك الانتداب ، اي انشاء الوطن القومي اليهودي . (١)

أليس هذا الجواب بمثابة اعتراف من الحكومة البريطانية ، بانه لا يمكن انشاء الوطن القومي اليهودي دون هضم حقوق العرب ، كعدم ترقية الحكم الذاتي مثلا ؟ . أليس جواب حكومة جلالته هذا دليلاساطعاً على ان الواجبات المزدوجة ، التى جاءت في صك الانتداب،متضاربة ولا يمكن التوفيق بينها ؟ .

واخيراً ، ليس تصريح بلفور معاهدة وانما هو وعد.وهذا الوعد يتضارب مع المعاهدة العربية الانكليزية السابقة له . ويحكم الحقوق الدولي ، بانه اذا وقع تضارب بين اتفاقين دوليين ، فلا يمكن للاتفاق او المعاهدة الحديثةان تمس بسوء محتويات الاتفاق او المعاهدة القديمة . وليس لمحتوى اتفاق جديد،يتضارب مع اتفاق سابق له اي قيمة حقوقية ، بل يعتبر لاغيا (٢) . فاذن يجب ان تتقدم المعاهدة العربية الانكليزية ، حسب الحقوق الدولية ، على تصريح بلفور ، المتضارب معها .

(١ البروفسور كارستانك The Observer : Garstang ٢٠ سبتمبر (ايلول)١٩٣٦ .

(٢) البروفسور جورج سيل L'Europe Nouvelle : G. Scelle ١٤ مارس (آذار) ١٩٣٦ .

الفصل الثـــاني

المطامع الصهيونية

رأينا كيف ان الدوائر الرسمية ، التي حاولت تفسير معنى الوطن القومي، تؤكد بانه ليس المراد منه جعل فلسطين يهودية ، بل ايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين ، على ان لا يمس ذلك بسوء حقوق سكان البلاد (١) . فكيف كان موقف الصهيونية ازاء تصريح بلفور وصك الانتداب ؟. وما هو الهدف الذي يرمي اليه الصهيونيون ؟ .

٢

كيف قابل الصهيونيون تصريح بلفور وصك الانتداب

طرب الصهيونيون كثيراً لتصريح بلفور ، لانه اول مستند تصل اليه ايديهم ، واول وعد يعطى لهم ، ويعطف به على قضيتهم رسمياً . فاخذوا يتغنون بمملكة صهيون الجديدة ، ويعدون العرب القاطنين فلسطين غرباء ... وقـاموا يخطون الخطط لاجلائهم عنها ...

تنبه العرب الى الخطر الذي يحيق بهم ، وتنبهت فيهم غريزة الدفاع عن النفس ، فوقعت اضطرابات عـام ١٩٢٠ ، والبلاد كانت لا تزال تحت الحكم العسكري ،وملأى بالجنود والذخائر الحربية . نبه ذلك الصهيونيين من سكرتهم، ورأوا ان ليس من السهل الاستيلاء على فلسطين دفعة واحدة، وجعلها «يهودية كما ان بريطانيا انكليزية » ، لا سيما والحكومة المنتدبة ترى في تصريح بلفور غير ما يرون .

---

(١) الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ ، والكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ .

رأى الصهيونيون انه من الحكمة والمهارة السياسية ان لا يكونوا مع الحكومة المنتدبة في خلاف ، فقبلوا بالتصريح حسب تفسيرها له . واكدوا لحكومة جلالته ان اللجنة الصهيونية في فلسطين،المعروفة الآن باللجنةالتنفيذية الصهيونية ، لا ترغب في ان يكون لها اي قسط في ادارة البلاد العامة (١) .
ومن ناحية ثانية ، اخذوا يتملقون العرب ، ويظهرون انفسهم بانهم لهم اصدقاء ، ليزيلوا مقاومتهم لهم.فقرروا في المؤتمر الصهيوني الذي عقدفي كارلسباد في سبتمبر(ايلول) ١٩٢١ ، وهو المجلس الاعلى المسيطر على الجمعية الصهيونية : « ان الشعب اليهودي عقد النية على ان يعيش مع الشعب العربي باتحاد واحترام متبادلين ، وان يسعيا معا لجعل هذا الوطن المشترك زاهراً بحيث يضمن تجديده الرقي القومي لكل من الشعبين بسلام » (٢).

« وكثيراً ما ردد الصهيونيون هذا القرار للدلالة على الغايات السامية التي تكنها صدورهم نحو العرب ، غير ان (اعمالهم) لا تتفق مع هذه العواطف التي يعلنها الصهيونيون جهاراً » (٣) .

مما لا شك فيه ان الصهيونيين لم يتعاونوا قط مع العرب ، ولن يعملوا واياهم لما فيه صالح جميع سكان فلسطين ، لان مصالح الطرفين متضاربة ، ولن يمكن التوفيق بينهما ، ما دام الصهيونيون متمسكين بمبادئهم الاستعمارية، وسائرين وراء سياسة توقع باهل البلاد مصائب كبيرة . وما قبول الصهيونية

---

(١) الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ .
(٢) غير انهم قرروا في مؤتمر زوريخ المنعقدفي اغسطس (آب) ١٩٢٩ ما نصه :« يرى المؤتمر ان الوقت قد حان لمطالبة الدولة المنتدبة باتخاذ التدابير التي تضمن قيام الوكالة اليهودية بقسطها الحقيقي في ترقية البلاد عن طريق اشتراكها اشتراكا تاما في أدارة البلاد » . ان هذا القرار يخالف مخالفة صريحة الفقرة المدونة اعلاه والتي وردت في الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ .
(٣) تقرير السير ج.هـ.سمبسون ١٩٣٠ ، صفحة ٨٠ .

بتفسير حكومة جلالته ، عام ١٩٢٢ ، لتصريح بلفور الآنف ذكره ، لأنها لم تستطع القاء اوامرها على وزير المستعمرات يومئذ . هي قبلت التصريح ولكنها لم تصدع به كما جاء ، ولو فعلت ذلك لهان الخطب . قبلت به لتحصل بالفعل على ما لم تستطع الحصول عليه بالوعد . فتبعت سياسة عملية ، سياسة الذي لا يقنع ، سياسة خذ وطالب ... واخذت تفسر تصريح بلفور وصك الانتداب حسب اهوائها ، خلافا لما يتضمنان ، وخلافا لتفسير الحكومة البريطانية لهما ، لتتمكن من تحقيق ما تطمح اليه .

٢

الهدف الذي يرمي اليه الصهيونيون

لم يخف الصهيونيون ، في مؤتمر باريس ، قسما كبيراً من مطامعهم ، التي لم يقبل بها المجتمعون . ومن المفيد ذكر مطالب الصهيونية حينئذ ، فيظهر كيف انهم تابعوا سياسة ترمي الى تحقيق ما طلبوا عام ١٩١٩ .

قدم اليهود في ٣ و٢٧ فبراير (شباط) ١٩١٩ ، الى المؤتمر مستنداً اوضحوا فيه فكرتهم عن الوطن القومي ، وطلبوا فيه :

١ — ان تعترف الدول « بالحق التاريخي » الذي للشعب اليهودي في فلسطين ، وحق اليهود في بناء وطنهم القومي .

٢ — ان توضع فلسطين في احوال سياسية واقتصادية وادارية ، تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي ، ويجعل ، فيما بعد ، من الممكن انشاء دولة يهودية مستقلة ، دون ان يحدث ذلك ضرراً بحقوق ومركز اليهود السياسي في البلاد الاخرى .

٣ — وان تتعاون الحكومة المنتدبة ، فيما يتعلق بالمهاجرة ، مع مجلس

خاص يمثل جميع يهود العالم (١).

ظهر عام ١٩١٩، بان مطامع الصهيونية اعظم بكثير مما جاء في تصريح بلفور. وهي اليوم ترمي الى ابعد من ذلك، هي تطمح الى انشاء دولة يهودية مستقلة تشمل بلاد بر الشام، بحدودها الطبيعية، وشمالي العراق، والى استعمار الشرق العربي خاصة، والشرق الادنى عامة، استعماراً اقتصادياً. وان كانت الصهيونية لم تظهر رسمياً الا قسما من برنامجها، فذلك خوفا من اثارة جميع الشرق العربي، والبلاد الاسلامية عليها. وهي الآن جادة في الوصول الى الهدف الاول: «جعل فلسطين يهودية كما ان بريطانيا انكليزية». ومتى وصلت الى هذا الهدف، تعرف الى اي هدف آخر توجه قواها.

ولم يخف الصهيونيون رغبتهم في جعل فلسطين دولة يهودية في كل شيء، خاصة ببني اسرائيل:

صرح الدكتور ايدر Eder، رئيس اللجنة الصهيونية، امام لجنة هايكرفت Haycraft عام ١٩٢١، بانه «لا يمكن ان يكون في فلسطين الا وطن قومي واحد، وهو اليهودي، ولا يجوز ان يكون تعادل بين حقوق اليهود والعرب، بل ان سيادة اليهود يجب ان تسود حالما يكون عددهم قدزاد لدرجة كافية. وان يكون لليهود حق حمل السلاح دون العرب» (٢).

وكتبت جريدة «نيوبالستين» New Palestine، لسان حال الصهيونيين الاميركان «ان المعتدلين (من الصهيونيين) ليسوا اقل تطرفا في تصورهم لغايتهم القصوى من المتطرفين انفسهم، اذ ان كليهما يتوقان الى ايجاد

(١) راجع اندروز The Holyland under Mandate: Andrews نيويورك ١٩٣١. جزء ١، صفحة ٣٥٦و٢٥٧.
(٢) تقرير هايكرفت عام ١٩٢١.

دولة يهودية في فلسطين ... »(١).

والنقاط الاربع الاساسية من المنهاج الصهيوني ، فيما يتعلق بفلسطين هي :

١ — ايجاد اكثرية يهودية ساحقة بواسطةالمهاجرةالواسعة ، كيما تسود كلمة اليهود في البلاد ، فيتمكنون ، تحت ظل الدمقراطية ، من صبغ فلسطين بالصبغة اليهودية ، ومن القضاء على ما بقي للعرب من مكانة في البلاد ، ومن سلب ما بقي لهم من حق . وقد قال ساكر ، رئيس اللجنة الصهيونيةالتنفيذية، امام لجنة شو « اني اقول ان الامر الذي يهمنا هو انشاء الوطن القومي للشعب اليهودي ، وان تكون هناك ، كما ذكرت سابقا ، مهاجرة غير مقيدة باية قيود اصطناعية ... بل اقول صراحة اننا نأمل ان يسفر هذا التدريج الطبيعي عن ايجاد اكثرية يهودية في البلاد » (٢) . واوضح جابوتنسكي للجنة نفسها نظريته في حل المشكلة اليهودية فقال : « ان من واجب الحكومة ان تشجع الاستعمار اليهودي تشجيعا فعليا كي توجد في البلاد ، بالطبع ، اكثرية يهودية » ، « وبعبارة اخري ان مرمى حزبه ليس الا ايجاد دولةيهودية في فلسطين»(٣).

٢ — الاستيلاء على جميع الاراضي الصالحة للزراعه ، وجعلها وقفا على اليهود . وقد صرح في هذا الصدد المستر كزنيك E . Kuzenek قائلا : « اننا في حاجة الى خمسة ملايين دونم من الاراضي ، على الاقل ، كيما نؤمن

...

(١) New Palestine عدد ١٠ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٢٦ . راجع ايضا The Jewish Chronicle ١٩٢١ عدد ٢٧٢٠ ، واقوال الصحف الصهيونية بهذا الصدد عديدة .

وكتبت التايمس في عددها الصادر في ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٠ : « ان مطالب الصهيونيين السياسيين المتطرفة تحتوي على ايجاد اكثرية يهودية ساحقة في فلسطين ، والتفوق على العرب ، مخالفين في ذلك ، مخالفة ظاهرة ، صك الانتداب ، وذلك بمساعدة الادارةالبريطانية اولا ، ثم بمساعدة الجيوش الانكليزية »

(٢) تقرير لجنة شو . ١٩٣٠ صفحة ١٤٢ .

(٣) تقرير لجنة شو ١٩٣٠ . صفحة ١٤٤ .

على انشاء الوطن القومي » (١). ومتى علم ان الاراضي الصالحة للزراعة في فلسطين تبلغ مساحتها حوالي ستة ملايين دونم ، فهم ان الصهيونية عازمة على اخراج العرب من وطنهم، لتضع يدها على ما يملكون من اراض. وقد تمكنت حتى الآن من الاستيلاء على اخصب الاراضي في البلاد .

٣ — قتل الاقتصاديات العربية . وكما ان الصهيونية تعمل على اخراج العرب من اراضيهم ، وعلى ايجاد اكثرية يهودية في فلسطين ، تبذل قواها ، في الوقت نفسه ، لقتل صناعات وتجارة العرب ، وتستعمل في سبيل ذلك طرقا مختلفة(٢). وتعتقد الصهيونية انها متى تمكنت من تنفيذ سياستها في هذه الامور الثلاثة، لا يبقى للعرب مكان عمل ، فيضطروا الى الرحيل عن وطنهم .

٤ — اجلاء العرب عن ديارهم . طالب الصهيونيون بكل جرأة ، غير مبالين بوعد بلفور وصك الانتداب ، بانه ، « يجب على العرب ان يهدموا خيامهم ويعودوا الى الصحراء ، المكان الذي اتوا منه » (٣) . وامثال هذه الاقوال كثيرة . ويريد بها الصهيونيون ، فضلا عما يطلبون ، ايهام القارىء او السامع، بان العرب في فلسطين يسكنون الخيام ويعيشون عيشة بدوية ! . ومما يؤسف له ان دعايتهم الواسعة المنظمة ، التي لم يهتم لها العرب ، ولم يقوموا بدعاية تزيل مفعولها ، قد أثرت على الرأي العام الغربي ، فاصبح القوم في الغرب يعتقدون ما يقول الصهيونيون . واذكر انني كنت ذات يوم ، في « صالون » احدى العائلات، في باريس ، وكان فيه سيدة بولونية لم اعرفها من قبل . وقد دهشت عندما علمت انني عربي من فلسطين ! فاقتربت مني واخذت تلقي علي اسئلة متنوعة :

(١) Die Bucht in Haifa ، Palestina المجلد العاشر صفحة ٤ و ٥ عام ١٩٢٧ .

(٢) اننا نفرد لهذه المسائل الثلاث فصولا خاصة في الكتاب الثالث لما لها من الاهمية .

(٣) كتبها Zuikwell وضمنها الدكتور كنعان في كتابه The Palestine Arab Cause صفحة ١٨ .

— هل ينزل المطر في فاسطين .

— نعم ، في فصل الشتاء فقط ، والمطر غزير .

دهشت السيدة من جوابي ، ولاحظت انها تريدالاستفهام عن امر، ولكنها لا تجرؤ . فشجعتها، فسألت:

— كيف لا يبل المطر ثيابكم ولا يتلف اثاث مساكنكم ؟! .

استغربت السؤال ولم افهم ، باديء بدىء ، ما تريد ، وقلت :

— وهل يتلف المطر اثاث البيوت في اوروبا ؟

— ولكن أليست مساكنكم من بيوت الشعر ؟...

ادركت ما تريد السيدة من سؤالها ، ووجدت صعوبة في نزع الفكرة السيئة التي علقت بذهنها عن الشعب العربي ، واستعنت بالصور لاقناعها بان العرب فى فلسطين ليسوا اعرابا ، بل هم وصلوا الى درجة عالية من المدنية الحديثة ، قبل احتكاكهم باليهود ، واحياؤهم الحديثة فى القدس ويافا وحيفا، لا تقل قط عن الاحياء اليهودية فى رونقها وجمالها ونظافتها ...

وقف العرب على غايات ومآرب الصهيونية ، وعلى ما تضمر لهم من نوايا سيئة ، فزاد قلقهم على مصيرهم وبغضهم للصهيونية . « ففي الشهادات التي اديت امامنا ، وفى الخطب التي القاها خطباء الوفود العديدة التي قابلناها فى كافة انحاء البلاد ، اكدت لنا تكرار مخاوف العرب من ان نجاح السياسة الصهيونية انما يعني اجلاءهم عن اراضيهم » (١) .

وتريد الصهيونية زيادة على اجلاء العرب عن وطنهم ، ازالة مدنيتهم ومحو آثارهم من فلسطين ، كيما تزول كل علاقة بينهم وبين الارض المقدسة ، فتصبح لليهود خالصة . وقد اهتمت بجد للاستيلاء على الاماكن المقدسة ، وخصيصا

(١) تقرير لجنة شو ، صفحة ١٤٨ . وجاء في تقرير هايكرفت عام ١٩٢١ « ان الاعتقاد السائد بان مقاصد الصهيونية ، والمهاجرة لليهودية ، خطرة على مصالح عرب فلسطين القومية والمادية . وهذا الاعتقاد عام بين جميع العرب وليس مقتصرا على طبقة من الشعب » .

الحرم الشريف ، لتشييد مكانه هيكل سليمان . ونشرت الدوائر الصهيونية صورة هذا الحرم يرفرف عليه العلم الصهيوني ا ...وكتب اللورد « ملتشت » Melchett ، الانكليزي الصهيوني ، بجسارة وتأكيد انه « اضحى اليوم الذي يعاد فيه بناء الهيكل جد قريب ، واني اخصص بقية حياتي لبناء هيكل سليمان مكان المسجد الاقصى » (١) .

وذكرت بعض المراجع العلمية الرسمية « ان اليهود ينتظرون ، بفارغ صبر ، بعث اسرائيل ... اعادة الدولة اليهودية ، بناء هيكل سليمان ، واعادة عرش داود »(٢). وانهم يريدون « العبادة في هيكل سليمان الذي هو جامع الاقصى وانشاء مملكتهم في فلسطين » (٣).

وتريد الصهيونية الوصول الى هذا الهدف مهما كلفها الامر ، حتى ان كان ذلك باستعمال القوة ضد العرب . ولكيما يكون قهر العرب سهلا ، يطالب الصهيونيون بالحاح الحكومة المنتدبة :

١ — سحب كل سلاح من ايدي العرب . وقد جعلوا حكومة فلسطين تسن قوانين صارمة ضد كل من يحمل سلاحا حتى ولو كان ذلك سكينا . ولا يسري هذا القانون عمليا ، الا على العرب ...

٢ — الترخيص لليهود بحمل السلاح .(٤)

٣ — تشكيل وحدات عسكرية من اليهود وحدهم تنضم الى الجيش البريطاني في فلسطين (٥) .

(١) ذكرها الدكتور كنعان في كتابه The Palestine Arab Cause صفحة ١٨ .

(٢) الموسوعة البريطانية طبعة ١٩٢٦ في بحث الصهيونية .

(٣) الموسوعة اليهودية . ضمن الدكتور كنعان هذين النصين في كتابه المذكور سابقا صفحة ١٨ .

(٤) صرح الدكتور ايدر Eder « انه من الضروري منع العرب من حمل السلاح والترخيص لليهود وحدهم بحمله » تقريرها يكرافت ١٩٢١ . صفحة ٥٧ « من الطبعة الانكليزية »

(٥) واكد جابوتنسكي ، في كتاب ارسله الى التايمس بتاريخ ١ مايو « ايار » ١٩٢١ ، انه من الواجب منح اليهود وحدهم امتياز الخدمة العسكرية .

٤ — تسريح قوة حدود شرق الاردن ـ لان معظم افراد هذه القوة من العرب .

٥ — اعادة تشكيل قوة البوليس الفلسطيني ، على ان تكون فصائل البوليس في الجهات التي يقطنها العرب واليهود بالاشتراك ، مؤلفة من اليهود فقط .

ولم يكتف اليهود المهاجرون في فلسطين بالمطالبة بحق التسلح ، بل هم ، عمليا وسريا ، يتسلحون منذ مدة طويلة . وان فضيحة تهريب السلاح ، التي ظهرت في ميناء يافا في اكتوبر (تشرين ١) عام ١٩٣٤ لاوضح دليل على ذلك : كان يرد هذه الميناء مئات من براميل « الزفت » اليابس ، باسم يهودي في تل ابيب . وكان هذا التاجر ينقلها ، بعد ان وقع اوراق الاستلام بامضائه ، دون ان يشعر احد بحقيقة ما في داخلها . وذات يوم ، بينما كان العمال جادين في نقلها ، وقع احدها ، فتصدع وظهر ان الزفت اليابس ما هو الا « قشرة » رقيقة تحجب صندوقا . ولما اخذت الحكومة خبر ذلك حجزت البراميل الباقية في الميناء ، وفتحت الصناديق التي في داخلها . فوجدتها ملأى بالسلاح من مختلف الانواع . فطلبت الحكومة المرسل اليه البراميل فلم تجده ، وعبثا حاولت العثور عليه ! . وحجزت الحكومة البراميل التي ارسلت الى تل ابيب ، وحرست المكان الذي كانت فيه بالجند . ورغم هذا الاحتياط فقد اختفت البراميل بعد يومين !...

ولم تكن هذه البراميل الاولى من نوعها التي وردت الى تل ابيب...(١)

واخيراً ، يود الصهيونيون ، وقد طلبوا مراراً ، الغاء الكتاب الابيض الذي اصدره عام ١٩٢٢ المستر تشرشل ، وزير المستعمرات حينئذ . لانه التفسير الرسمي لتصريح بلفور الذي حدد اعمال اليهود في فلسطين ، وقال بصراحة ان مطامعهم في تأسيس دولة لهم خاصة في الارض المقدسة قائمة على غير حق ، ومخالفة لتصريح بلفور .

وسنرى ، في الفصل التالي ، كيف ان الصهيونية نجحت في ضغطها على

١ راجع الصحافة الفلسطينية عام ١٩٣٤ .

حكومة جلالته ، ومنعها اياها من القيام بواجباتها نحو السكان العرب ، تلك الواجبات التي من بينها ترقية الحكم الذاتي سيراً مع انشاء الوطن القومي في فلسطين .

* * *

ومطامع الصهيونية في الشرق العربي لا تقف عند هذا الحد .

يريد الصهيونيون الاستيلاء على شرق الاردن ، وقد طالبوا به مراراً . وكتب جابوتنسكي في التايمس مبينا ضرورة تعاون الحكومة في فلسطين ، مع المؤسسات الصهيونية ، وجعلها الادارة والتشريع اداة لتسهيل الاستعمار اليهودي للبلاد . وطلب « فتح ابواب شرق الاردن امام الاستعمار الصهيوني ... »(١). والمهاجرة عندهم اول خطوة لاستعمار البلاد والاستيلاء عليها .

ومتى تم للصهيونيين وضع يدهم على فلسطين وشرق الاردن ، يستعملون قواهم للاستيلاء ، على سوريا ولبنان وقسم كبير من العراق . وكتب بلتويش « ان لا حاجة لان تكون فلسطين المستقبل محدودة بحدودها التاريخية . ففي امكان المدنية اليهودية الامتداد على جميع البلاد التي وعدوا فيها في التوراة، من البحر الابيض المتوسط حتى الفرات ، ومن لبنان حتى نهر مصر . هذه هي البلاد التي اعطيت للشعب المختار » (٢).

وحديثا قال ولهيلم ريبل Wilhelm Rippel ، المحامي الصهيوني البولوني، وقائد حركة « السير الى فلسطين » ، ورمزها « فلسطين لليهود » ، « اننا لا نعين الآن حدود مملكة اسرائيل ، وهذه الحدود تكون تلك التي نقدر على الوصول اليها » (٣) .

وتطمح الصهيونية ، زيادة على تأسيس مملكة يهودية في بر الشام والعراق،

١ راجع التايمس ، سبتمبر « ايلول » ١٩٢٩ .
٢ نورمان بنتويش : Palestine of the Jews .
٣ مورنينغ بوست : The Morning Post ١٧ نوفمبر « تشرين الثاني» ١٩٣٦ .

الى استعمار الشرق العربي استعماراً اقتصاديا ...

فطامع الصهيونية لا تنحصر في فلسطين فحسب ، بل هي تريد الاستيلاء على عموم البلاد العربية : استيلاء كلياً على قسم منها ، واستيلاء اقتصاديا على القسم الآخر .

فطامعها هذه ، التي تجد في تحقيقها ، ورفضها تفسير الحكومة المنتدبة لتصريح بلفور ، يثبت بان الصهيونيين يرفضون تصريح بلفور وصك الانتداب ، ويريدون ان يكونا اوسع افقاً بحيث يشملان جميع آمالهم وامانيهم .

الفصل الثالث

الحكم الذاتي

يوجب صك الانتداب ، المتضمن لتصريح بلفور ، على الحكومة المنتدبة القيام بواجبات مزدوجة : انشاء وطن قومي يهودي في فلسطين ، والمحافظة على مصالح وحقوق العرب وترقية الحكم الذاتي في البلاد ، وتنفيذ ذلك في وقت واحد . واعترفت لجنة الانتدابات في جنيف ، والحكومة المنتدبة بان شقي تلك الواجبات مستويان اهمية . فهل نفذت حكومة جلالته صك الانتداب بانصاف ودون محاباة ؟

من يدرس صك الانتداب وما نفذ منه ، ير وللاسف ، ان الحكومة البريطانية قد نفذت الشق الاول ، اي واجباتها نحو الصهيونيين ، واهملت تنفيذ الشق الثاني من صك الانتداب ، اي واجباتها نحو العرب ، وجميع التقارير الرسمية تثبت هذه الحقيقة .

ثم ، ما الذي قامت به حكومة جلالته ، لترقية الحكم الذاتي في البلاد ، كما توجب عليها ذلك المادة الثانية من صك الانتداب ؟ .

وما هي الاسباب التي حالت دون انشاء مجلس تشريعي في البلاد ؟ .

او ليست فلسطين في حاجة ماسة الى تأسيس حكومة نيابية ، حرصا على مصلحة جميع السكان ؟ .

١

ما الذي قامت به الحكومة المنتدبة لترقية الحكم الذاتي ؟

وعد اللورد اللنبي في ٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٨ ، شعب سوريا

وفلسطين« باقامة حكومات وادارات تستمد سلطانها من ارادة سكان البلاد »(١) .

ولما تأسست الحكومة المنتدبة في فلسطين صرح السير هربرت صموئيل ، اول مندوب سام على هذه البلاد ، بان « سياسة حكومة جلالته هي ارضاء الرغائب القانونية للشعب اليهودي في العالم بما يتعلق بفلسطين ، مصحوبا بالمحافظة التامة على حقوق السكان الحاليين ... ويجب ان تكون الوسائل التي ستتخذ لترقية مستوى معيشة العرب ، عين تلك الوسائل الواجب علينا اتباعها في فلسطين ، كما لو لم يكن هناك مسألة صهيونية ، وكما لو لم يوجد تصريح بلفور »...

بات العرب ينتظرون تنفيذ الحكومة البريطانية وعودها العديدة ...

وبعد ان تسلم السير هربرت صموئيل الحكومة من السلطة العسكرية ، الف في اكتوبر ١٩٢٠ مجلساً استشاريا ، نصف اعضائه من الموظفين البريطانيين ، والنصف الآخر ينتخبه المندوب السامي على ان يشمل اربعة من المسلمين وثلاثة من المسيحيين ومثلهم من اليهود . وبما ان الموظفين لا يخرجون عن رأي الحكومة ، وباضافة اليهود اليهم ، كانت الاكثرية ، في مثل هذا المجلس حكومية ، فضاعت الفائدة المرجوة من انشائه ، واصبح اداة حكومية ، لا يمثل البلاد بشيء ، ولا يعبر عن رأيها ابداً .

وبعد ذلك بقليل نشرت حكومة لندن مشروع دستور فلسطين. فشخص الى العاصمة البريطانية وفد عربي ليطلع الحكومة على مطالب الشعب، وليناقشها في ان الدستور الجديد المنوي سنه لا يحقق مطالب البلاد ، ولا يضمن حقوق العرب . فاصر وزير المستعمرات على رأيه ، ولم يعر اقوال الوفد كبير اهتمام . فارسل الوفد في ١٧ يونيو (حزيران) ١٩٢٢ ، قبيل عودته الى

١ البرفسور كارستانك J. Garstang The Observer في ٢٠ سبتمبر « ايلول » ١٩٣٦ .

وطنه ، كتابا للوزير جاء فيه : « ان حقوق العرب في فلسطين لن تكون مضمونة الا بتأسيس حكومة وطنية فوراً ، تكون مسؤولة امام مجلس نيابي، ينتخب جميع اعضائه اهل البلاد المسلمون والمسيحيون واليهود ».(١)

وصدر الدستور ، واصبح نافذاً في البلاد ابتداء من اليوم الاول من سبتمبر (ايلول) ١٩٢٢ ، ونشر في الجريدة الرسمية بصورة « امر صادر من مجلس الملك الخاص بمقتضى السلطات المخولة له بقانون الاختصاص الاجنبي عام ١٨٩٠ » ، ومهد له بمقدمة احتوت على تصريح بلفور وصك الانتداب .

وجاء ذكر المجلس التشريعي في الفصل الثالث من الدستور ، وحدد اعضاءه باثنين وعشرين عضواً ، عدا المندوب السامي الذي يكون رئيساً له ، عشرة منهم من الموظفين الانكليز ، وعشرة من الوطنيين بين مسلم ومسيحي ، واثنان من اليهود .

وكانت صلاحية هذا المجلس جد محدودة ومقيدة ، حتى انه كان للمندوب السامي الحق ان يرفض كل قرار من قراراته لا يروق في عينيه ! ...

نظر الوطنيون الى هذا المجلس التشريعي فوجدوا انهم لا يستطيعون داخله الدفاع عن حقوق الشعب العربي ، لانهم فيه اقلية . (٢) عندئذ قرروا مقاطعة انتخاباته ، وعدم الاشتراك فيه . (٣) فاوقفت الحكومة تنفيذ الجزء الخاص بانشاء المجلس التشريعي من الدستور . واكتفت بتعيين مجلس شورى

---

(١) تقرير لجنة شو . صفحة ٢٣.

(٢) لقد دلت التجارب بان جميع الموظفين الانكليز ، من غير اليهود ، غير راضين عن سياسة الحكومة الصهيونية ، ولكنهم لا يستطيعون مماكستها والوقوف ضدها، حفظا لمراكزهم...

(٣) نشرت اللجنة التنفيذية العربية دعوة الى الامة لمقاطعة الدستور والانتخابات جاء فيها: « نص الدستور انه ستشكل لجنة من اعضاء المجلس المنتخبين ، لكي تنظر مع الحكومة في امر مراقبة المهاجرين . ان هذه اللجنة ستكون مقيدة بنظام لا تتخطاه ، وان تنفيذ قراراتها يعود الى المندوب الذي انيط به امر تمهيد السبل بجميع الوسائل لهذه الهجرة ، التي علمت الامة انها هي التي ستلتهم البلاد بما فيها من اخضر ويابس ، ولهذا فلن يكون للجنة الا الموافقة على عدد المهاجرين الذين سيدخلون البلاد للقضاء على سكانها من الوجهة الاقتصادية والقومية » .

مؤلف من اعضاء عددهم وتمثيلهم كمدد وتمثيل الاعضاء الذين نص عليهم قانون المجلس التشريعي السابق الذكر . فرفضت اللجنة التنفيذية العربية هذا المجلس ايضا ، لانه لا يمثل الامة ولا يحقق امانيها . ورفض الاعضاء العرب ، الذين عينوا ، الاشتراك فيه .

وفي ١٣ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢٣، طلب المندوب السامي من العرب تأليف « وكالة عربية » يكون لها ما « للوكالة اليهودية » من الصلاحية . فرفض الزعماء في فلسطين هذا الاقتراح ، لانه ، في رأيهم ، لا فائدة حقيقية تعود على العرب منه .

وفي ديسمبر (كانون الاول) ١٩٢٣ ، انشأت الحكومة مجلساً استشارياً مؤلفاً من كبار الموظفين الانكليز ، وتابعت حكم البلاد مباشرة حتى يومنا هذا ، غير آبهة الى واجبها في ترقية الحكم الذاتي في البلاد .

وهكذا ، فان حكومة جلالته ، رغم وعودها العديدة للعرب ، رفضت رفضا باتا طلب العرب عام ١٩٢٢ في تأسيس حكومة وطنية مسؤولة امام مجلس نيابي ينتخبه سكان البلاد ، متعللة ان ذلك يتعارض مع الوعود التي اعطيت لليهود ! . وفي دورتين متتابعتين لاجتماع عصبة الامم (١٩٢٤ و ١٩٢٥)، اجابت حكومة جلالته بصراحة ، بانه لا يمكن انشاء مجلس تشريعي في فلسطين يكون العرب فيه ممثلين حسب عددهم ، لان ذلك يحول بين الحكومة وبين تنفيذ الواجبات المتعلقة بانشاء الوطن القومي . « واقل ما يقال في هذا الجواب انه ساذج : ومعناه الحنث بالوعد الذي اعطي، عام ١٩١٨، للسكان الوطنيين ». (١)

* * *

ولما عين السر جون تشانسلور ، في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٢٨ ، مندوبا

(١ البروفسور كارستانك The Observer : Grastang ٢٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٦ .

ساميا على فلسطين ، اعار ترقية الحكم الذاتي اهتمامه . وبعد ان اخذ رأي السكان ، وانعم النظر في احوال البلاد ، من جميع نواحيها ، اقترح في يونيو (حزيران) ١٩٢٩ على وزارة المستعمرات اقتراحات اعتبرت مكتومة. وكانت موضع النظر عندما وقعت اضطرابات اغسطس (آب) ١٩٢٩ ، فتأجل البحث فيها.

على اثر تلك الاضطرابات ، ارسلت الحكومة البريطانية لجنة تحقيق ، مؤلفة من بعض اعضاء البرلمان ، وبرئاسة السير ولتر شو ، لدرس اسباب الاضطرابات ووضع اقتراحات لمنع تكرارها . فدرست الحالة في البلاد ، ووضعت تقريراً دقيقا قيما . قالت فيه ان اهم اسباب الاضطرابات هو الاستياء العام السائد في البلاد من سياسة الحكومة . « ونحن نعتقد ان شعور الاستياء الذي يسود الاهالي العرب ، والناشيء عن عجزهم المتواصل عن نيل اي قسط من الحكم الذاتي ، يزيد في خطورة مصاعب ومشاكل الادارة المحلية ، وانه كان سببا ساعد على وقوع الاضطرابات الاخيرة ، وهو عامل لا يمكن تجاهله عند البحث عن التدابير الواجب اتخاذها لاجتناب وقوع مثل هذه الاضطرابات في المستقبل ... لذلك نقتصر على القول انه من المؤكد تقريبا ان يوجه طلب لاستئناف المباحثات (في موضوع الحكم الذاتي) ، وان رفض مثل هذا الطلب يكون ظلامة دائمة الأثر » . (١)

وبعد ان درست وزارة المستعمرات تقرير لجنة شو ، وتقرير الخبير القدير السير جون هوب سمبسون ، وضعت حكومة جلالته الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ ، الذي انصفت فيه العرب بعض الانصاف . وقالت في الموضوع الذي نحن بصدده : « قد امعنت حكومة جلالته النظر في هذه المسألة ، على نور درجة التقدم والرقي الحالي معتبرة على الاخص الواجب الملقى على عاتقها والذي يقضي عليها جعل البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل ترقية

(١) تقرير لجنة شو ١٩٣٠ ، صفحة ١٧٣ .

معاهد الحكم الذاتي . وقررت ان الوقت قد حان للتقدم خطوة اخرى في سبيل منح اهالي فلسطين درجة من الحكم الذاتي تتلائم مع احكام صك الانتداب . وبناء على ذلك تنوي حكومة جلالته تأليف مجلس تشريعي ينطبق على الاصول المتبعة في الخطة السياسية التي اعلنها المستر تشرشل في بيانه المؤرخ في ٢٢ يونيو (حزيران) ١٩٢٢ » .(٢)

أثار هذا الكتاب الابيض ثائر الصهيونيين على الحكومة البريطانية. وأخذوا ينتقدون السياسة الجديدة التي عزمت حكومة جلالته على اتباعها في الارض المقدسه . وقام دعاتهم في البرلمان البريطاني بحملة شديدة على وزير المستعمرات : اللورد باسفيلد . واخيراً هدد الصهيونيون حكومة جلالته باعلان حرب اقتصادية عليها ان قامت بتنفيذ محتويات الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ . فهاب رئيس الوزارة، المستر ماكدونالد ، الامر ، وارسل الى الدكتور وايزمن تحريراً فسر فيه الكتاب الابيض ، وقضى على ما جاء فيه لصالح العرب . وعدلت الحكومة البريطانية عن قرارها في انشاء المجلس التشريعي ، الذي ابانت فائدته وضرورته جميع اللجان الرسمية ! ...

على ان الصهيونية لم تكتف بهذا الفوز . بل ارادت الانتقام من السير جون تشانسلور ، الذي جرؤ على اثارة مسألة انشاء مجلس تشريعي في البلاد ، فاستعملت نفوذها لدى حكومة لندن . فكانت النتيجة ان أقيل السير جون تشانسلور ، المندوب السامي ، و نقل بعض كبار الموظفين البريطانيين في فلسطين حينئذ ! . واستمرت الحكومة المنتدبة في حكم البلاد مباشرة ، تاركة للصهيونية اليد الكبرى في ادارة شؤون فلسطين ...

* * *

وفي اواخر عام ١٩٣٥ اهتم المندوب السامي الحالي، السير ارثر واكهوب،

(٢) الكتاب الابيض عام ١٩٣٠ ، صفحة ١٤ (الطبعة الانكليزية) .

بانشاء مجلس تشريعي ، بعد ان رأى ضرورته وفائدته للبلاد عامة .وخابر بذلك وزارة المستعمرات ، فقبلت رأيه ومشروعه .

وكان مشروع المجلس التشريعي يتألف من ٢٨ عضواً موزعين على الوجه التالي :

	الاعضاء المنتخبون	الاعضاء المعينون
مسلمون	٨	٣
مسيحيون	١	٢
يهود	٣	٤
تجار		٢
موظفون بريطانيون		٥
	١٢	١٦

اما الرئيس فبريطاني يؤتى به من خارج فلسطين ...

وجابه العرب المشروع بترو وامعان فكر،واخيراً قبلته مبدئياًا كثريتهم على ان يحدث فيه بعض التبديل ، وان توسع دائرةصلاحيته.اما اليهود فحملوا عليه حملة شعواء ، واخذوا يحررون المقالات ، ويلقون المحاضرات ، ويدونون الكتب ، لمحاربته وابانة عدم فائدته للبلاد ! . وادعوا ان العرب فى فلسطين لا يهتمون بالسياسة . وان الذين يطالبون بانشاء حكومة نيابية هم افراد قلائل ، لا غاية لهم الا منافعهم الشخصية ... وتمكن الصهيونيون من اكتساب الرأي العام فى البرلمان البريطاني . وحمل انصارهم فى جلسة « مجلس العموم » الواقعة فى ٢٤ مارس (آذار) ١٩٣٦ ، على مشروع المجلس التشريعي ، متهمين العرب بأنهم لا يصلحون للحكم الذاتي ... ومدعين بان الوقت لم يحن بعدلانشاء مجلس تشريعي فى فلسطين . ومطالبين ان يكون لليهود ، ان قامت الحكومة

بانشاء مجلس تشريعي ، نصف الاعضاء على الاقل ! ...

حاول المستر توماس ، وزير المستعمرات حينئذ ، الدفاع عن المشروع ، غير ان اعضاء المجلس المتشبعين بالاهواء الصهيونية لم يعيروا براهينه ، على ضرورة تنفيذ المشروع ، اذنا صاغية . فخشيت حكومة بالدوين تألب النواب عليها ؛ فعدلت عن مشروع تأسيس المجلس التشريعي ، واوعزت الى مندوبها فى فلسطين ان يتمهل . وبعد ان اعلن المندوب السامي ، ان هذا المجلس سيؤلف رغم كل معارضة ، ولو بتعيين الاعضاء عن الفريق الذى يرفض الاشتراك فيه ، رجع واعلم ممثلي الاحزاب العربية بان تأليف المجلس التشريعي يعتبر فى وضع فلسطين حينئذ سياسة عليا ، ينبغي لها السفر الى لندن والمفاوضة بشأنها مع وزير المستعمرات رأساً ! . ولما كان الوفد العربي على اهبة السفر ، نشبت الثورة فى البلاد ، فرأى اعضاؤه ان وجودهم فى الوطن ، فى تلك الظروف ، اجدى وانفع من السفر الى العاصمة البريطانية .

وقد اظهر النقاش فى مجلس النواب ، ان معظم الذين تكلموا عن القضية الفلسطينية يجهلون واقع الحال فى البلاد ، ويعملون لصالح الصهيونية ، غير مكترثين بحقوق العرب وكيانهم في فلسطين . فظهر للعالم بكل جلاء ان نفوذ الصهيونية دخل وتمكن في البرلمان البريطاني . و« اعيدت قصة الخضوع الحقيرة للنفوذ الصهيوني . وانهالت على المشروع الجديد عاصفة شتائم ومرافعات غير عادية ، فترك ، رغم انه كان نتيجة قرار مجلس الوزراء ، ورغم الوعد الذي اداه المندوب السامي ، بطلب من الحكومة ، الى لجنة الانتدابات »(١).

ولم يكتف الصهيونيون بالغاء حكومة لندن مشروع المجلس ، بل ارادوا مقاصصة وزير المستعمرات الذي جرؤ على الدفاع عنه . ومن الاكيد انهم لم يكونوا غرباء عن الصعوبة القضائية التي وقع فيها مستر توماس ، والتي ادت

(١) السير ارنست بنيت The Nineteenth Century and After. E. Bennett
سبتمبر ١٩٣٦ صفحة ٣٣٧

الى استقالته من الوزارة ومن مجلس النواب . وعينوا مكانه صديقهم الحميم ، وداعيتهم الكبير ، السير ارمسبي غور ، والثورة تجتاح الارض المقدسة ! ... وكم كان من المستحسن ان يرى على هذا المنصب الرفيع رجل يوحي الثقة والطمأنينة الى القلوب ، لحياده وابتعاده عن اسباب الخصام المستمر في فلسطين ...

* * *

لماذا رفض الصهيونيون مشروع المجلس التشريعي لعام ١٩٣٥ ، وكانوا قد قبلوا بمشروع عام ١٩٢٢ الذي يمنحهم مقاعد اقل من المشروع الأخير ؟

كان الصهيونيون ، ابان حركتهم ، يشكون في نجاح مشروعهم ، ويودون نيل رضاء العرب عنهم والعمل معهم ، ولو موقتاً ، لانهم كانوا يخشونهم . اما الآن فقد رأوا ان مشروعهم يتقدم بخطى واسعات ، وان حكومة جلالته لا تجسر على مخالفتهم ، وان العرب ، الذين كانوا يحسبون لهم حسابا ، منقسمون ، وزعماؤهم لاهون في التنازع الشخصي والتحارب على النفوذ « والكراسي » ... فشعروا انهم ليسوا في حاجة الى مداهنة العرب ، وان لا خوف عليهم ان هم اماطوا اللثام عن حقيقة نواياهم ، برفضهم الاشتراك في مجلس تشريعي يكون للعرب فيه اصوات اكثر من اصواتهم ، والعمل على ايجاد اكثرية يهودية ساحقة في البلاد . وقد صرح جابوتنسكي امام لجنة شو . ان السياسة الصهيونية تعمل ، قبل كل شيء ، على « ان يكون في البلاد اكثرية يهودية كي تسود وجهة نظر اليهود تحت حكم ديمقراطي » . (١)

يحارب الصهيونيون الديمقراطية حينما تكون معارضة لسياستهم ، ويتمسكون بها عندما يستطيعون تحقيق مآربهم تحت لوائها . هم يحولون دون تطبيق النظم الديمقراطية في فلسطين ما داموا اقلية فيها ، ليتمكنوا ، عن طريق الاستبداد وهضم حقوق العرب ، من ايجاد اكثرية والاستيلاء على مناصب الحكم في

(١) تقرير لجنة شو صفحة ١٤٤ .

البلاد . وحينما تتحقق آمالهم في ايجاد اكثرية يطالبون الحكومة ، عندها، في انشاء مجلس تشريعي تكون لهم فيه الاكثرية الساحقة والسلطة التامة ، فيتمكنون حينئذ من تنفيذ ، داخل المجلس ، اي عن طريق التشريع، ما لم يقدروا على تنفيذه ، عن طريق السياسة والمال . فيسنون القوانين التي ترغم العرب، مباشرة او غير مباشرة ، على مغادرة وطنهم ...

وصرح الدكتور وايزمن في ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٦، امام اللجنة الملكية« ان اليهود قد عارضوا في انشاء المجلس التشريعي لانه قبل اوانه، ولان العرب يستعملونه اداة لعرقلة توسع الوطن القومي».(١) فمتى يا ترى يحين أوان المجلس التشريعي في فلسطين ؟ . مما لا ريب فيه انهم لا يريدون انشاءه الا بعد ان يصبحوا اكثرية في البلاد ، فيتمكنوا من تنفيذ سياستهم مستهزئين ، في ذلك ، بالاسس التي وضعها صك الانتداب ، ومستخفين بحكومة جلالته التي القي على عاتقها حماية حقوق العرب ، وكان من واجبها ترقية الحكم الذاتي في البلاد مع انشاء الوطن القومي . فهل يرضى الشعب البريطاني الابي ان تكون حكومته آلة فى ايدي الصهيونية ، وموضع سخرية ؟ ...

٢

مقدرة العرب على الحكم وضرورة تأسيس حكومة نيابية

نرى وللاسف ان الحكومة المنتدبة لم تتقدم خطوة واحدة في سبيل ترقية الحكم الذاتي فى فلسطين . وسبب ذلك ، ليس لانها لا تريد القيام بواجبها، ولكن لانها عاجزة عن مقاومة الصهيونية والقيام بعمل لا ترضى عنه، وان مجرى الحوادث في فلسطين، حتى الآن ، يمكن المرء من القول ، بان سياسة

(١) التايمس ٢٦ نوفبر ١٩٣٦ .

الحكومة ، في فلسطين ، تسير كما لو كانت الصهيونية عينها تنفذصك الانتداب. اذ لم ينفذ منه الا ما كان في صالحها . وقد تمكنت الصهيونية من الحيلولة دون اقامة حكومة نيابية ، حتى انها لم ترض عن تأسيس مجلس تشريعي ضئيل لا يمثل العرب فيه نسبة الى عددهم . فحرمت عرب فلسطين من التمتع بحق سياسي اولي، كانوا يتمتعون به قبل الحرب، بينما البلاد العربية الاخري حازت على قسط واسع من الاستقلال والحرية ...

كانت الولايات العثمانية قبل الحرب ، ومنها فلسطين وسوريا على الاخص، تتمتع باستقلال داخلي . ويظهر ذلك من التقرير الذي رفعته لجنة الحكومة المحلية في فلسطين الى المندوب السامي ، في ٢ يونيو (حزيران) ١٩٢٤. وجاء فيه : « ... ففي مختلف الولايات ، وفي سوريا وفلسطين على الاخص، انتشرت حركة واسعة النطاق تحبذ « اللامركزية » ، بلغت عام ١٩١٢ حداً كان يخشى معه ان تصبح حركة انفصال خطرة . ورأت الحكومة العثمانية ان من الحكمة وضع قانون الولايات الموقت ، الذي تلقاه الاهلون بنوع خاص من الارتياح والانفة . وقد جاء هذا القانون لاهالي سوريا وفلسطين، ليس كمنة جادت بها حكومة سخية ، بل كاعتراف عادل بحقوقهم وامانيهم ... »

«وقانون الولايات الموقت هذا ، الذي ورد ذكره في الفقرة السابقة ، عدل بقانون عثماني آخر صدر في ١٦ ابريل (نيسان) عام ١٩١٤، وكان من اثر هذا القانون ، بعد تعديله ، ان منحت ولايات المملكة العثمانية سلطة انشاء حكومات محلية مستقلة استقلالا حقيقياً » (١) . و« يكفي القول ان اهالي البلاد المعروفة الآن بفلسطين ، كان لهم بموجب ذلك الدستور —اي الدستور العثماني ١٩٠٨ — ستة مبعوثين في مجلس المبعوثان في الآستانة » (٢).« والحقيقة

(١) تقرير لجنة شو ١٩٣٠ ، صفحة ١٤ .
(٢) تقرير لجنة شو ١٩٣٠ ، صفحة ١٦٧ .

التي لا ريب فيها هي ان الفلاح ايضا كان يشعر ، اذا دفع ضريبة لا تتجاوز العشرة الشلنات في السنة التي تخوله حق التصويت ، ان له رأيا في ادارة شؤون قريته ، ثم بصورة غير مباشرة في ادارة شؤون الولايات، حتى السلطنة العثمانية نفسها ، عن طريق نظام الانتخاب الثانوي . وهذا المركز يختلف عن مركز البلاد الحالي، حيث ان الحكم الذاتي الآن محصور في مناطق البلديات ، وحتى في تلك المناطق لا يباشر الا تحت رقابة شديدة » (١).

* * *

ولكيما تحول الصهيونية دون ترقية الحكم الذاتي ، اخذت تضلل الرأي العام الغربي بقولها :

١ — ان الفلاح في فلسطين لا يهتم شخصياً بالشؤون السياسية .

٢ — وما الشعور السياسي الذي يظهر في القرى ، والمطالبة بتأسيس حكومة وطنية الا نتيجة دعاية اصطناعية يقوم بها الزعماء العرب لاغراض شخصية

« فالادعاء بان الفلاح لا يهتم شخصيا بالشؤون السياسية لم يؤيده اختبارنا في فلسطين . ولا يستطيع من تجول في البلاد كما تجولنا، وسمع اصوات الهتاف التي قاطعت عبارات كثيرة وردت في الخطب التي القاها رؤساء القرى والشيوخ ، ان يرتاب بان القرويين والفلاحين على حد سواء يهتمون، اهتماما حقيقيا وشخصيا، في نتائج سياسة انشاء الوطن القومي ، وفي مسألة ترقية مؤسسات الحكم الذاتي في فلسطين ... ولذا نرى ان الفلاحين العرب يهتمون في الامور السياسية اكثر من كثيرين من اهالي اوروبا ». (٢)

وان الذي كان في فلسطين اثناء الاضراب الاخير ، وكان فذاً في التاريخ،

---

(٣) تقرير لجنة شو ١٩٣٠ ، صفحة ١٦٨ .

(٢) تقرير لجنة شو . صفحة ١٧٠ .

شاهد ان الشعب العربي فيها كتلة واحدة ، يضحي بكل شيء في سبيل انقاذ فلسطين من التهويد ، والوصول الى انشاء حكومة وطنية في البلاد. وان الذي تفقد القرى اثناء الثورة الاخيرة ، رأى فيها الحماس الفائق حد الوصف ، والتضحية التي لم يسبق لها مثيل ، وكيف ان الفلاح الفقير يبيع كل ما يملك كيما يتمكن من شراء بندقية يخرج بها الى الجبال ليقاتل الذين يعملون على تهويد بلاده وابادته. ان وطنية هذا الشعب الضعيف المستميت في سبيل المحافظة على حقوقه في وطنه العزيز ، توجب الاحترام والاكبار. وان لم تغير حكومة لندن السياسة التي ترمي الى اضعافه وتلاشيه ، فانها تجني بذلك جناية كبرى لا يغفرها التاريخ للحكومة البريطانية. وغريب ان يدعي الشعب البريطاني حبه للعدالة والانسانية ، ويسمح لحكومته ان تقوم باعمال ، في فلسطين ، اقل ما يقال عنها انها تنافي الانسانية والعدالة كل المنافاة. وليس ذلك في سبيل مصالح الامبراطورية ، بل في سبيل خدمة الصهيونية. لان الشعب العربي في فلسطين ، وغيرها من البلاد العربية ، لا يريد لبريطانيا الا الخير ، ولا يود الا العمل معها ، وخدمة مصالحهما المشتركة ...

« وليس لدينا ما يحملنا على الريب بان زعماء العرب اجمالا ، وهم يسعون لتحقيق مطالبهم لانشاء حكومة ذاتية في البلاد ، كانوا مدفوعين بشعور وطني حقيقي ... ولذا ليس في وسعنا ان نقبل الادعاء القائل بان زعماء العرب السياسيين قاموا بنشر دعاية واسعة حول المسألة الدستورية بغية اشباع مآربهم الخاصة ، او تحقيقا لغاياتهم الشخصية » (١).

* * *

وتوجب المادة الثانية من صك الانتداب على عاتق الحكومة « ... ترقية

(١) تقرير لجنة شو ، صفحة ١٧٠ .

معاهد الحكم الذاتي » . والحكم الذاتي مبدأ اساسي في الانتداب ، ودونه لا تكون البلاد تدار حسب نظام الانتداب . وتنص المادة ٢٢ من عهد عصبة الامم : « ان البلاد التي كانت تابعة الى الامبراطورية العثمانية قد وصلت الى درجة من الرقي ، يمكن اعتبارها معه مبدئياً امة مستقلة ، على شرط ان تقود ادارتها نصائح ومساعدة امة منتدبة ، حتى تصبح قادرة على قيادة نفسها وحدها ».

وعلى هذا الاساس فان الانتداب يفرض وجود هيئتين سياسيتين . تتألف الاولى من الحكومة التي تنتدبها عصبة الامم لتقوم بمهمة « مساعدة » واسداء « النصح » لاجل « صالح ورقي » الشعب المنتدب عليه . وتتألف الثانية من الشعب نفسه . والمادة الثانية من صك الانتداب تريد من قولها « ترقية معاهد الحكم الذاتي » الهيئة السياسية الثانية .

والحكومة البريطانية لم تحكم فلسطين حسب مبدأ الانتداب ، بل حكمتها حكماً مباشراً منذ الاحتلال حتى اليوم . فهي لم تشرك الشعب في التشريع ولا في الحكم ، حتى ولا في الادارة . وكل ما هنالك انها عينت موظفين من الشعب ينفذون ما يتلقونه من الاوامر .

والمندوب السامي في فلسطين يجمع بين الهيئتين السياسيتين : فهو يمثل الحكومة المنتدبة ، وهو بمساعدة مجلس تنفيذي مؤلف من كبار الموظفين البريطانيين ، يحكم البلاد حكماً مباشراً . وفي الوقت عينه ، ليس لسكان البلاد اية مؤسسة رسمية يتمكنون بواسطتها من ابداء رأيهم في سير الحكم في بلادهم .

ومن الطبيعي ان هذا النوع من الحكم لا يوصل الى الغاية التي من اجلها وضع الانتداب : وهي جعل اهل فلسطين قادرين على حكم انفسهم بانفسهم . وكيف يمكن الوصول بالشعب الى هذه الغاية دون اشراكه في الحكم ؟!.

تعتذر الحكومة البريطانية ، لمخالفتها المبدأ الرئيسي ، الذي وجد من اجله

الانتداب، بانه ليس في الامكان تأسيس حكومة نيابية على اساس ديمقراطي، لان العرب يصبحون في المجلس التشريعي اكثرية، فيحولون دون انشاء الوطن القومي اليهودي ... وليس هذا بعذر مقبول. لانه ان استمرت الحكومة المنتدبة على هذه الوارابة، فسيأتي يوم، ليس ببعيد، تعلن فيه الصهيونية للملأ بأنها اصبحت الاكثرية في فلسطين. فهل تعتقد الحكومة المنتدبة عندئذ ان الوقت قد حان للقيام بواجبها نحو العرب ؟! . وهل يرضى العرب حينئذ بانشاء حكومة نيابية اكثريتها يهودية، مع علمهم بان الصهيونيين ينتظرون، بفارغ الصبر، اليوم الذي يصبحون فيه اكثرية، كيما يجعلوا « فلسطين يهودية كما ان بريطانيا انكليزية » ؟.

لقد ابتعدت الحكومة البريطانية كثيراً عن مبدأ الانتداب. وتوسعت في الخطة المخالفة لصك الانتداب، حتى انه يكاد يصبح من الصعب عليها القيام بواجبها كدولة منتدبة. وان غلطتها لا يمكن تلافيها ان تركت اليهود يصبحون اكثرية في فلسطين، اذ يصير محالا عليها القيام بواجبها الذي يلقيه على عاتقها صك الانتداب.

والانتداب، بطبيعة الحال، محدود. وحده ان يصبح الشعب قادراً على حكم نفسه. وليس في امكان الحكومة المنتدبة تثقيف الشعب تثقيفا سياسيا، وجعله قادراً على قيادة نفسه بنفسه، اذا لم تسلمه زمام الحكم، تحت اشرافها وارشادها. واما سياسة الحكومة في فلسطين، فتدل على ان مدة الانتداب ليست بمحدودة، لان الشعب لن يصل، اذا ظلت الحكومة متبعة سياستها الحالية، الى الهدف الذي من اجله وضع الانتداب. وطبيعي ان عصبة الامم لم ترد ذلك من انتداب بريطانيا على الارض المقدسة. ان مهمة الحكومة المنتدبة مهمة « مقدسة » تنحصر في تدريب الشعب على الحياة المستقلة. ومن البديهي ان تكون هذه المهمة موقتة. غير انه يظهر ان الحكومة البريطانية لم تنتبه الى هذه الحقيقة.

ان المبادىء الديمقراطية، وعهود بريطانيا العظمى وواجبها نحو صك

الانتداب ، توجب عليها انشاء حكومة نيابية في فلسطين .

وليس من العدالة والانصاف ان يحرم العرب ، وهم الاكثرية الساحقة في فلسطين ، من ابداء رأيهم في اعمال سير الحكومة . وليس من العدالة ولا من بعد السياسة ان لا يكون في البلاد مؤسسة رسمية يتمكن العرب داخلها من اسماع صوتهم ، على حين ان لليهود مؤسستين معترفا بهما : الوكالة اليهودية في فلسطين، والجمعية الصهيونية في لندن . ولهاتين المؤسستين نفوذ كبير ليس فقط على الادارة الفلسطينية ، ولكن على الحكومة والدوائر السياسية في لندن.

« وبناء على ذلك ، فان الحالة في بلاد يترتب فيها على الحكومة ان تفصل على الدوام في امور تمس بمصالح شعبين ، هي ان الاكثرية الكبرى من الاهالي تجد ان ليس لها مرجع معترف به للاتصال بالادارة ، بينما ان اقلية من شعب آخر لها علاقات متينة ورسمية معها ، وهي في مباشرتها لهذه العلاقات ، توجه نظر الحكومة الى مصالح تلك الاقلية من السكان فقط » (١).

ومما لا شك فيه ان عجز الحكومة المنتدبة ، عن انشاء حكومة نيابية في فلسطين ، زاد في استياء العرب وقلقهم على مصيرهم في وطنهم . وكان ذلك من اهم اسباب الاضطرابات والثورات التي اخذت في الازدياد منذ الانتداب . وان العرب لم يحملوا البنادق ضد الانكليز واليهود الا لانه لم يعمل شيء يهدىء روعهم ، ويزيل المخاوف العديدة التي احدثتها الصهيونية الخطرة على وجودهم. ومن الاكيد ان الهدوء والسلام ، لا يعودان الى الارض المقدسة ، مادامت الحكومة المنتدبة تسير وراء السياسة الصهيونية . وان السياسة الوحيدة التي تعود على البلاد المقدسة بالسلام ، هي تلك التي تؤمن السكان على كيانهم، وتعيد اليهم حقوقهم . وعلى تلك السياسة ان تبدأ بتأسيس حكومة نيابية ديمقراطية تحافظ على مصالح وحقوق جميع اهالي فلسطين .

(١) تقرير لجنة شو . صفحة ١٠٧١ .

الكتاب الثالث

النضال فى فلسطين

الفصل الاول

النضال الاقتصادى

كل يهودي يسعى وراء المال ، وهو يتبع انجع الطرق التي تعود عليه باوفر مقدار من ضالته المنشودة . وقد وجد بعد بحث طويل ، ان خير هذه الطرق هي : الصناعة والتجارة والاعمال الحرة التي تعود على اصحابها بربح وافر . واليهودي يبحث عن المكان الذي يمكن ان يكون ميدانا واسعاً لاستغلال مواهبه، وهو لا يتقيد ببلد ما ...

ورأى الصهيونيون ان خير وسيلة للاستفادة من تصريح بلفور هي اتباع منهاج مبني على طبيعة اليهودي ، اي المنهاج الذي يمكن اليهودي من الاستفادة من مواهبه الصناعية والتجارية .

فما هو المنهاج الصهيوني الاقتصادي ؟ . وهل حالة الشرق الادنى الاقتصادية تمكنه من النجاح ؟ . وما هو موقف شعوب تلك البلاد ازاء هذا المنهاج ؟ .

١

المنهاج الصهيونى الاقتصادى

رأينا ان الصهيونية تطمع فى تأسيس مملكة يهودية فى الشرق العربي تكون فلسطين قلبها . ويريد الصهيونيون ان يجعلوا من فلسطين « مصنعاً وعنبراً »، يصنعون فيه جل ما تحتاج اليه البلاد العربية خاصة ، وبلاد الشرق الادنى عامة. ثم يستوردون ما لا يقدرون على صنعه من الخارج . ويوزعون ،من فلسطين،

مصنوعاتهم وما استوردوه الى بلاد الشرق الأدنى ، ولاسيما البلاد العربية منه. وبعبارة اخرى يريد الصهيونيون ان يجعلوا فلسطين « مركز » التجارة فى الشرق الادنى ، ووضع ايديهم على جميع اسواقه . ويأملون ان يصبح التاجر والصانع اليهودي هو المسيطر والمتحكم فى هذه الاسواق ، وتصبح اقتصاديات الشرق الادنى فى قبضة سكان « مملكة اسرائيل » .

وهم يطمحون ايضاً الى جعل فلسطين « السوق المالي » لبلاد الشرق الادنى، اي ان تكون فلسطين « مصرفاً » للبلاد العربية وهذا الشرق الادنى ، وان يكون « المال اليهودي » الحاكم المطلق فى الاسواق المالية فى هذه البلاد.

واذا وضع الصهيونيون ايديهم على الاسواق التجارية والمالية فى البلاد العربية ، فانهم يستعمرونها اقتصاديا ، ويقبضون على « مخنقها » ، فتصبح لا تستطيع التنفس الا اذا سمح لها بذلك سكان « المملكة اليهودية ». وان خطر الاستعمار الاقتصادي لا يقل عن خطر غيره من انواع الاستعمار . وفى الحق ان لا قيمة للاستقلال السياسي ان كانت البلاد مستعمرة اقتصاديا ، اذ المستعمر الاقتصادي يتداخل فى كل شيء ، ويملي على حكومة البلاد السياسة التي يريدها ...

وللوصول الى هذه الغاية ، تجد الصهيونية فى قتل الاقتصاديات العربية ، وقد اتخذت الحكومة اداة لها . وهي تتبع ، للوصول الى غايتها ، قاعدة اقتصادية غريبة فى نوعها : حماية الانتاج فيما ينتجه اليهود ، وحرية التجارة فيما ينتجه العرب .

ومن اعمالهم، لقتل التجارة العربية فى فلسطين، احتكار الوساطة «القومسيون» فى البلاد . فيضطر كل تاجر الى طلب ما يحتاج اليه من بضائع عن طريق وسيط

يهودي . ولأجل ان يقتل الوسيط اليهودي تجارة عميله العربي ويربح عميله اليهودي، يقدم البضائع للتاجر العربي بسعر ، ويقدمها للتاجر اليهودى بسعر اقل . وينبغي ان لا يتوهم القاريء أن الوسيط في هذه الحالة ، يربح من اليهودي اقل من ربحه من العربي ! .فهو لا يفوت اي جزء من ربحه لأي كان ، وكل ما يعمله هو :

يأتي اليه مثلا تاجران احدهما عربي والاخر يهودي ، يطلبان قماشاً من نوع واحد.ففي هذه الحالة يطلب الوسيط للتاجر العربي بضاعته باوصافها المعتادة المعروفة ، ويلتمس للتاجر اليهودي وسائل ليوفر عليه في الثمن . ولنفرض ان عدد الخيوط في السانتميتر المربع،من ذلك القماش هو (ص).فهو يتفق مع التاجر اليهودي على ان يطلب له القماش عينه ولكن عدد الخيوط في السانتيمتر المربع منه(ص-٣). وبالطبع فان ثمن القماش الاخير يكون اقل من ثمن القماش الاول، ولذلك يستطيع التاجر اليهودي بيع بضاعته بثمن اقل من الثمن الذي يطلبه التاجر العربي . وبما ان المشتري لايستطيع التفريق بين البضاعتين ،اللتين هما من نوع واحد ، وعليهما «علامة» مصنع واحد، يعجب كيف ان التاجر الوطني يطلب منه ثمناً اعظم من الثمن الذى يطلبه التاجر اليهودي . فيحاول العربي اقناع عميله بان ربحه منه زهيد ويحلف الايمان المغلظة ...ومن الطبيعي في هذه الحال ان يذهب العميل،سيرا وراء مصلحته ، ويبتاع مايحتاجه من اليهودي، غير عالم ان ما يبتاعه اقل جودة من البضاعة التي لدى التاجر العربي .

واعلمني احد مهندسي دائرة الزراعة انه اراد شراء كمية كبيرة من الواح الخشب. فذهب الى تاجر عربي فطلب منه ثمناً معيناً لكل لوح من الخشب . فاعترض المهندس على ارتفاع السعر ، لانه يعلم ان تاجراً يهوديا يبيع لوح الخشب ، من ذات النوع ، بثمن اقل ، فاكد له التاجر العربي بان ربحه ، من الثمن الذي طلبه يكاد لايذكر ، واطلعه على «الفاتورة » . فعجب المهندس من ذلك ، لعلمه بان التاجر اليهودي يربح ربحاً كافياً ، في حين ان سعره اقل من السعر الذي

طلبه التاجر العربي ! وهو يعلم ان الخشب عند التاجرين مستورد من مصنع واحد، وعن طريق وسيط واحد ، وبسعر واحد . فحمله هذا على التفكير . وخطر له ان يحصي عدد الالواح في المتر المكعب، فوجد أن عدد الواح التاجر العربي (س) في المتر المكعب، والواح التاجر اليهودي س+٥، وذلك ناجم عن فرق في سمك الواح الاخشاب . فعلم المهندس عندئذ سبب الفرق في السعرين ...

وهناك امثلة كثيره اخرى ، اذكر منها ، مثال « علب الحليب » . فقد رؤي ان هذه العلب من بعض الماركات تباع في المخازن اليهودية بسعر اقل مما تباع به في المخازن العربية . وسبب ذلك انها تحتوي على كمية من الحليب اقل مما تحتويه العلب التي تباع عند التجار العرب ...

وبمثل هذا الغش التجاري، اوقعت الصهيونية اضراراعظيمة بالتجارة العربية

ويهم الصهيونية ، بصورة خاصة ، قتل الزراعة العربية في فلسطين ، حتى يفلس المزارع العربي ، ويضطر الى بيع ارضه لليهود .

واول من نفذ هذه الخطة ، المندوب السامي الاول السير هربرت صمويل « الصهيوني الصميم » . فانه ، مع علمه بان البلاد كانت في حال بؤس وفقر ، اخذ يشدد في تحصيل الضرائب بصورة ترهق المزارعين ، وعمل على تنزيل اسعار غلات البلاد تنزيلا عظيما ، وذلك بمنع اصدار الغلال والزيت الى الخارج . كان هذا عام (١٩٢٠) ، وكانت الحاصلات خصبة جداً ، والطلب عليها من الخارج قويا والاسعار عالية . وكان المزارعون يأملون في تسديد ديونهم ، الناجمة عن الحرب ، وتحسين ماليتهم ، ولكن حيل بينهم وبين جني الثمرة ، وانتهاز الفرصة، ومنعوا من الاصدار ، فهبطت اسعار محاصيلهم من الغلال والزيت ، التي هي اساس ثروة البلاد ، وضاعت بذلك آمالهم .

وزادت الحكومة ضائقة المزارعين شدة بتصفية البنك الزراعي العثماني ،

واجبارهم على دفع المبالغ التي كانوا قد استدانوها منه ، فوقع المزارعون في ضائقة مالية شديدة ، حتى ان كثيرين منهم وجدوا انفسهم عام ١٩٢٢ عاجزين عن حرث اراضيهم ، فدب اليأس الى نفوسهم . فمنهم من استدان بربا فاحش ، ومنهم ، وهم الاكثرون ، لم يتمكنوا حتى من الاستدانة، فاضطروا الى بيع ما يملكون من الارض ، او قسم منها ، تخلصاً من الضائقة المالية التي كانوا يعانونها .

ومما يؤسف له ان تقوم الحكومة المنتدبة بتصفية ذلك البنك الوحيد من نوعه ، في حين ان البلاد كانت ، ولا تزال ، في حاجة شديدة الى بنوك زراعية، وانه من واجب الحكومة تأسيس مصارف زراعية لمساعدة الفلاح . ومن التناقض ان تقوم الحكومة بتلك التصفية ، بعد ان قال السير هربرت صمويل، في المنشور الذي اذاعه في يوليو (تموز) ١٩٢٠ : ان الحكومة ستؤسس مصارف لاقراض الفلاحين ما يلزمهم لآجال طويلة، ولترويج الصناعات الوطنية! ...

ويستعمل اليهود سلاح المقاطعة في قتل الزراعة العربية... قرأت في الصحف، ابان الثورة الاخيرة ، صورة نشرات كتبت باحرف غليظة، وعلقت على جدران تل ابيب . هذا نصها : « ايها اليهودي : اعلم ان ٩٥ في المائة من البطيخ الذي يباع فى المدينة هو من محصول المجرمين ، سكان مدينتي قلقيلية وطولكرم. وكل من يدفع مليما لشراء بطيخ يزيد اعداءنا قوة فى حربهم ضد الاستعمار اليهودي . لا تأكل ولا تشتر بطيخاً » ....

ويعمل اليهود على تنزيل اسعار المحصولات الزراعية التي لا ينتجونها مستعملين ، لهذه الغاية ، طرقا اقتصادية ، يدعمها التشريع فى البلاد . ولنوضح ذلك بالامثلة :

لم يفلح المزارع اليهودي فى زراعة الموز، بينما نجح فيها المزارع العربي. فادعى اليهود ، لكي يؤذوا المزارع العربي، ان الموز فى البلاد قليل . وبعد سعي،

نالوا من الحكومة تخفيف الضريبة عن الموز الاجنبي،فدخل البلاد وعم السوق ونزل سعر الموز ، فقل ربح المزارع العربي ، ان لم يكن قد خسر . ولا يزال اليهود يتبعون مثل هذه الوسيلة لقتل بعض محصولات العرب من الخضار ...

والفلاح العربي يزرع السمسم . والسمسم من المزروعات الصيفية التي تحتاج الى دقة في التعشيب والفلاحة . « ويستطاع زراعة الارض بعد قلعه مزروعات شتوية فوراً ، ولهذا يجب تشجيع زراعة السمسم لاسباب زراعية علاوة على الاسباب التجارية » (١) . ورغم الفائدة التي تعود على البلاد من زراعته، فقد تعمدت الصهيونية قتله :

في حيفا معمل يهودي لاستخراج الزيوت(معصرة) ، يدعى معمل «شمن». وقد طلبت الصهيونية رفع الضريبة عن السمسم الخارجي لحماية هذا المعمل، متعللة بان اسعار السمسم الفلسطيني مرتفعة ، ومحصول البلاد منه غير كاف. وطلبت ايضا زيادة الرسوم الجمركية على الزيوت الواردة من الخارج ، فلبت الحكومة الطلب . فنزل سعر السمسم الفلسطيني ، وارتفع سعر الزيوت فتضرر الفلاح العربي والمستهلك الفلسطيني .

وتقاطع الصهيونية السمسم الوطني ، وتفضل شراء السمسم الاجنبي ، وان كان اغلى ثمنا ، واقل جودة ! ففي عام ١٩٢٩ ، بينما كانت صادرات السمسم ٣٥٣٩ طنا ، ومتوسط سعر الطون ٢٠ جنيها و٤٣٦ ملا ، بلغت الواردات منه ٣٤٧٠ طنا بسعر ٢٣ جنيها و٢٧٨ ملا الطن . ويرد اكثر السمسم من الصين، وهو اقل جودة من السمسم الفلسطيني . (٢)

ومن هذه الارقام ، التي ضمنها السير سمبسون تقريره القيم ، يظهر لنا ان السمسم الفلسطيني يسد حاجة البلاد ، لان الصادرات منه اكثر من الواردات.

---

(١) تقرير سمبسون ، ١٩٣٠ ، صفحة ١٤٩ .
(٢) راجع تقرير سمبسون ، ١٩٣٠ ، صفحة ١٤٨ .

ولربما يستغرب القارىء كيف يجد السمسم الصيني سوقاً في فلسطين ، في حين ان السمسم الوطني ، الذي هو احسن منه جودة ، يباع في الاسواق الخارجية بسعر اقل ! . والامر ليس بغريب اذا علمنا ان الوضعية في فلسطين سياسية قبل كل شيء . ووطنية اليهود كبيرة ، وهم يريدون قتل المزارع العربي حتى ولو تحملوا في سبيل ذلك شيئاً من الضرر المادي .

وتتبع الصهيونية عين هذه السياسة مع الزيتون الفلسطيني الذي هو محصول المزارع العربي وحده .

وفي حيفا ايضاً مطاحن يهودية اسسها البارون ادمون دي روتشيلد، وابتدأت تدور عام ١٩٢٣ . ولكي تحمي الحكومة هذه المطاحن اليهودية ، وضعت ضريبة كبيرة على الدقيق الوارد من الخارج ، ورفعت الرسوم الجمركية عن القمح الاجنبي . فتضرر المزارع العربي ، من ذلك كثيرا .(١)

ونتيجة لسياسة « حماية الانتاج بالنسبة لليهود ، وحرية التجارة للمنتوجات العربية » ، هبطت اسعار المحصولات الزراعية الى نصف قيمتها المعتادة . « فالسوق مكتظة بالمحصولات (الاجنبية) ، ولذا لم يعد فى وسع المزارع ان يبيع الزائد من محصوله ...» (٢) . ورغم كل هذا ، لم ترحمه الحكومة ، ولم تمد يدها لمساعدته ، بل زادت في شقائه ، « فرفعت نسبة العشر وضريبة تعداد المواشي للدخل الصافي من زراعة الأرض من ١٩ فى المائة الى ٣٢ في المائة » ! (٣) .

ولما كانت المصنوعات العربية فى فلسطين قليلة الاهمية ، لم تعرها الصهيونية

(١) راجع تقرير سمبسون ١٩٣٠ صفحة ١٥٩ .
(٢) تقرير اللجنة الحكومية « جونسون كروسبي » التي عينت لدرس حالة المزارعين ، ١٩٣٠ ، صفحة ٦٤ .
(٣) تقرير اللجنة الحكومية « جونسون كروسبي » التي عينت لدرس حالة المزارعين ١٩٣٠ ، صفحة ٦٥ .

اهتماماً كبيراً ، بل حولت قواها لمحاربة المصنوعات في جميع البلاد العربية، ليخلو لها السوق في الشرق العربي، معتمدة في ذلك على « الحماية الجمركية ».

ولنضرب مثلا على ذلك معمل اسمنت « نيشر » . هذا المعمل ملك لليهود والانكليز ، ومكانه حيفا . مكنت الحكومة معمل « نيشر » من الاحتفاظ بالسوق الداخلي ، وذلك بوضعها رسما جمركيا مرتفعا على الاسمنت الاجنبي . فبيع طن الاسمنت في فلسطين ، عام ١٩٣٠ بجنيهين و ٧٠٠ مل . وكان قسم من هذا الاسمنت يباع في مصر وقبرص ، « غير ان القسم الاعظم من الصادر كان الى سوريا ، حيث بيع الطن بمعدل ٤٥ شلنا ، اي اقل من السعر الذي يباع به في فلسطين بتسعة شلنات ، فضلا عن مصاريف الشحن ... اي باسعار غير مربحة » (١) . والغاية التي ترمي اليها « نيشر » ، هي اضعاف المركز المالي لمعامل الاسمنت العربية حتى تغلق ابوابها ، ويخلو السوق للاسمنت الصهيوني .

وتريد الصهيونية ايضا مضاربة المصنوعات المصرية القطنية والجلدية، وصناعة التبغ ، وتعمل على مضاربة البلاد العربية الاخرى في صناعة الملبوسات ... وقد اعربت الوكالة اليهودية عن املها هذا في التقرير الذي قدمته الى السير جون هوب سمبسون (٢).

* * *

وليتم للصهيونية الفوز في محاربة الاقتصاديات العربية ، تجد في اقصاء العامل العربي عن جميع اعمالها . ومن غريب امرها انها تعلن في الاندية والمجتمعات ، وفي كتاباتها ، انها قد جلبت الخير للعامل العربي ، وتصرح بانها تريد فائدته وايجاد عمل له ! . غير ان الذي له ادنى اطلاع على حقيقة الحال في

---

(١) تقرير سمبسون ، ١٩٣٠ ، صفحة ١٥٧ . وفي الصفحة نفسها قال الخبير : « وقد سبب رفع الرسم من ١٢ شلنا الى ١٦ شلنا و ٦ بنسات على الطن ، رغما عن انه في وسع الشركة الربح بموجب التعريفة الاولى ، الانتقاد الشديد ، وهو انتقاد لا يخلو من الحق » .

(٢) راجع تقرير سمبسون ١٩٣٠ ، صفحة ١٦٤ — ١٦٦ .

فلسطين ، يرى بوضوح ان اعمال الصهيونية تناقض اقوالها :

ففي ميدان الزراعة لا تسمح الصهيونية لاي يهودي باستخدام العامل العربي . وان فعل ذلك تجازيه المؤسسات الصهيونية اشد الجزاء (١).

وهي لا تستخدم العامل العربي في جميع مصانعها . فجميع عمال مصانع « شيمن » للزيوت مثلا هم من اليهود ، كما ان جميع عمال « مطاحن فلسطين الكبرى » من اليهود ايضاً ... (٢)

ولكي تؤمن الصهيونية على نفاذ سياستها هذه ، الفت نقابة العمال اليهود فرقا من العمال باسم « الحاميات اليهودية » . ومهمة هذه الحاميات التعرض للعمال العرب ومنعهم من الاعمال التي يمارسونها ، بحجة انها يجب ان تكون خاصة باليهود . واذا تابع العمال العرب عملهم اعتدى عليهم افراد الحاميات ، وحاولوا منعهم بالقوة ، فتقع حوادث دامية ... وفي كثير من الاحيان تكون تلك الاعمال عربية صرفة . فهم يعتدون مثلا على العمال الذين يقطفون البرتقال ويقومون بتعبئته لحساب التاجر العربي الذي يكون قد اشترى اثمار « بيارة » يهودي . ومتى اشترى تاجر اثمار بيارة ، انقطعت علاقة صاحبها بالثمر ، وحق للشاري التصرف بالثمر كما شاء ، وقطفه بواسطة اي شخص اراد . ورغم هذا الحق الصريح ، تأبى « الحاميات اليهودية » على التاجر العربي حق التصرف بشؤونه . وتمنعه من تشغيل بني قومه . والانكى من ذلك انها تحاول ارغامه على دفع اجر للعامل اليهودي ضعف ما يدفعه للعامل العربي! ... واشد في النكاية وجود تجار من العرب يشترون محصولات خصومهم ، ويقبلون بشروط « الحاميات اليهودية » !...

والغاية التي تسعى وراءها الصهيونية من مقاطعة العامل العربي هي اولا : ايجاد اعمال لاكبر عدد ممكن من اليهود ، لتحول دون « البطالة » ولتتمكن

---

(١) راجع تقرير سمبسون ١٩٣٠ ، صفحة ١٦٤ ــ ١٦٦ .

(٢) راجع تقرير سمبسون ، صفحة ١٥٨ و ١٥٩ .

من مطالبة الحكومة بفتح ابواب الهجرة . وثانيا : لتسد ابواب الرزق امام العامل العربي فترغمه على الرحيل من وطنه . ويمكننا تفهم حالة العامل المسكين متى علمنا ان الصهيونية واضعة يدها على معظم الموارد الاقتصادية في البلاد .

هذا هو المنهاج الصهيوني الاقتصادي . ويعتقد زعماء الصهيونية انه يضمن « لمملكة اسرائيل » الرخاء ورغد العيش . فهل يؤيده علم الاقتصاد، والحالات الاقتصادية والسياسية في البلاد العربية ؟!

٢

حظ المنهاج الصهيوني الاقتصادي من النجاح

لا يستطيع الواقف على حالة فلسطين وبلاد الشرق الادنى ، ان يأمل المنهاج الصهيوني الاقتصادي النجاح والتوفيق . وذلك لعاملين ، اولهما اقتصادي ، وثانيهما سياسي .

الصناعه والتجارة لا تعرفان المحاباة ولا الخواطر ! . فاذا وجدت سلعتان من جنس واحد ، واتقان واحد في سوق واحد، فذات الثمن الاقل تروج في ذالك السوق . فهل للمصنوعات الصهيونية في فلسطين عوامل تمكنها من الرواج في السوق العربي ، واقصاء البضاعة الوطنية او الاجنبية عنه ؟ . وللاجابة على هذا السؤال يجب البحث اولا في « المصنع الصهيوني » ومن اين تأتيه مواده الاولية ، وما هي العوامل التي تكون « السعر الادنى » الكافي لاحياء المصنع دون مكسب .

فلسطين بلاد فقيرة ، ولا يمكن ان تصبح يوماً ما بلاداً صناعية . اذ هي خالية من المواد الاولية ، التي هي العامل الاكبر في تفوق كل صناعة . فالمصنع الصهيوني في حاجة الى جلب هذه المواد من الخارج . ومن هذه الجهة فان

للعمل الاوروبي عامل تفوق عظيم ، اذ هو ليس في حاجة الى جلب جميع مواده الاولية من اسواق غريبة . واجرة العامل تلعب دوراً هاماً في تكوين السعر وتفوق مصنوعات على اخرى . فان ارتفعت كانت عائقا لرواج الانتاج ، وان قلت فانها تسهل الرواج. واجرة العامل الصهيوني في فلسطين لا تقل عن اجرة العامل الانكليزي وتفوق اجرة العامل الالماني والايطالى وغيرهما من عمال كثير من البلاد الاوروبية .

ولهذين السببين ستزاحم المصنوعات الاوروبية المصنوعات الصهيونية في فلسطين. واعتقد انها لن تمكن المصنوعات الصهيونية من تجاوز حدود الارض المقدسة .

وهناك عدو ثان اشد وطأة و اكثر صلابة على المصنع الصهيوني من المصانع الأوروبية ، وهو مصانع اليابان . فانه قد توفر لدى هذه الامة العجيبة عاملا التفوق في المنافسة الصناعية والتجارية : «المواد الاولية، وانخفاض اجرة العامل ».وفي امكانها اغراق اسواق الشرق اجمع بمصنوعاتها ان لم يكن اسواق العالم. فالمصنع الصهيوني لا يستطيع الوقوف امام هذه المصانع الحديثة والمجهزة بكل اسباب التفوق الصناعي .

ولقد انتشرت في امهات المدن العربية، روح اقتصادية فتية فتأسست فيها، بخطى واسعة ، مصانع ومتاجر ، ومصارف من الاهمية بمكان . وعندما قامت الجمعية الصهيونية بعمل برنامجها الاقتصادي ،لم يدر فى خلدها ان البلاد العربية ستمد بصرها فى احد الايام الى بعيد ، وتجد وراء الصناعة لتحرر نفسها اقتصاديا بقدر الامكان ، ليتم لها استقلالها السياسي . ولم يخطر ببالها ان نهضة مباركة صناعية ، تجارية ومالية ستعم الاقطار العربية التي تود الصهيونية ان تستغلها وحدها وتسودها اقتصادياً لتسودها سياسياً . لم تعتقد الجمعية الصهيونية ان الشعب العربي ، الكسول فى رأيها ، سيشمر عن ساعد الجد ، ويغالب العواصف

ويكيف نفسه حسب الظروف والازمان لتخلد له الحياة ، ويكون من الخالدين.
لم تفطن الى هذا كله . وظنت انه في مقدورها جعل العربي مطية لها ، واداة في بناء « وطنها القومي» في قسم من بلاده المقدسة . وعليه وعلى اسواقه تدوم حياة هذا الوطن . ولكن هي الحقيقة تخيب هذه الآمال وترى ان المنهاج الذي تبني عليه «المملكة اليهودية » في فلسطين خاطيء ،اذ هو قائم على نظريات مغلوطة. فالنهضة الاقتصادية في جميع الاقطار العربية من مصرية وسورية وعراقية لا تدع سبيلا لرواج المصنوعات الصهيونية ، ولا طريقا الى تفوق التاجر الصهيوني ، لا لسبب قومي فحسب بل لسبب حيوي اقتصادي لا يمكن التغلب عليه :

فلسطين خالية من جميع المواد الأولية . بينما بقية الاقطار العربية فيها بعض هذه المواد . في مصر القطن . وفي سوريا الحرير والصوف والقطن .وفي العراق الصوف والبترول ... فوجود هـذه المواد الاولية عوامل تفوق في الصناعة والتجارة . ثم ان العامل العربي يتقاضى اجراً لا يذكر ابداً بالنسبة الى اجر العامل الصهيوني ، الذي لا يستطيع العيش ان انخفض اجره.

وقد اخذت هذه الاقطار في تأسيس مصارف تجارية وصناعية وزراعية . وشجعت هذه المصارف الاعمال الاقتصادية الوطنية ، وعاد ذلك عليها بالربح الجزيل . وفي كل عام يقام معرض ، صناعي وتجاري ، في احدى امهات المدن العربية . ويكون الاقبال عليه عظيما...

* * *

ورغم هذه الحقائق الاقتصادية فان زعماء الصهيونية يحاولون ، ويؤكدون ان للصناعة والتجارة في فلسطين مستقبلا طيبا ! في حين اننا اذا نظرنا الى حياة المصانع الصهيونية في فلسطين نجدها اصطناعية لا تستطيع البقاء دون المساعدات الحكومية والخارجية . « ومن الواضح ان معمل اسمنت « نيشر » يعتمد على الضريبة الواقية ، ليس لاستدرار الارباح فقط ، بل للاستمرار في الوجود

ايضا . ذلك لانه لا يستطيع ان يزاحم الاسمنت الوارد من الخارج لو رفعت هذه التعريفة الجركية الواقية . ومن الجلي ايضا ان معمل الزيت « شيمن »، لم ينجح الا بعد ان الغي الرسم الجركي المفروض علي الحبوب الزيتية المستوردةمن الخارج . كما ان اقبية ريشون لزيون وزكرون يعقوب ، مدينة فى بقائها الى كرم واهتمام البارون ادمون دي روتشيلد ، لا الى مجهوداتها الاقتصادية، وصناعتها فى تقدم بسبب الرسم المفروض على واردات النبيذ والكحول. وكذلك يقال فى تجارة المنسوجات ، فقد استفادت من اعفاء المواد الاولية من الرسوم ومن الرسم الجركي الذي فرض على ما يماثلها من المنسوجات الاجنبية وقدره ١٢ فى المائة (اليوم من ٢٥ الى ٤٠ فى المائة) من قيمتها . وفى الحقيقة ان الصناعات الكبيرة فى فلسطين تعتمد على التعديل او التبديل فى التعريفة ، وان سائر الاهالي يتحملون الضرائب كي يتمكن اصحاب هذه المعامل من دفع اجور عمالهم وجني بعض الربح » (١). وقد كتب مدير الجمارك والمكوس والتجارة في هذا الصدد انه « يرتاب فيما اذا كان في امكان بعض المشاريع الكبيرة ان تحافظ على كيانها بدون مساعدة من الخارج ... » (٢). نرى من هذه التقارير الرسمية ان المصنوعات الصهيونية لا تستطيع ان تجد لها مكانا فى السوق الفلسطيني الا بصورة اصطناعية . فكيف يأمل زعماء الصهيونية اذن فى الاستيلاء على الاسواق الخارجية ؟ ! .

وقد بحثت الوكالة اليهودية في نمو وتقدم الصناعات فى فلسطين ، فى مذكرة قدمتها ، الى الخبير الكبير السير سمبسون ، جاء فيها : « يجب ان لا يؤبه من الناحية الصناعية لما يقال عن مقدرة البلاد على استيعاب السكان ، بل انه يجب ان يصرف النظر عن هذا القول نهائياً ، اذ ينبغي ان ينظر في الدرجة الاولى الى

(١) تقرير سمبسون ١٩٣٠ صفحة ١٦٣ و ١٦٤ .
(٢) تقرير سمبسون ١٩٣٠ صفحة ١٦٦ .

الشعب اليهودي بالذات ، والى ما تستطيع البلاد تصديره من منتوجاتها »(١). وهي تعني بعبارة « ان ينظر في الدرجة الاولى الى الشعب اليهودي بالذات » ارادة اليهود في المجيء الى فلسطين ومقدرتهم الصناعية! ولنفرض جدلاً ان جميع يهود العالم يودون المجيء الى فلسطين ، وان كل واحد منهم هو امهر صانع في العالم ، فهل يحل هذا مشكلة الصناعة في فلسطين ، ويجعل من الارض المقدسة بلاداً صناعية ، في استطاعتها الاستيلاء على الاسواق الاخرى ؟! .

ان مستقبل الصناعة في فلسطين يتوقف على المواد الاولية الموجودة في البلاد ، وعلى الاسواق الخارجية التي يمكن لتلك الصناعة الرواج فيها .(٢) هذا هو الشرط الاولي والاساسي لنجاح كل صناعة ـ وللاسف فان الوكالة اليهودية تتبع المواربة في حججها ، وتجعل من الشرط الاولى شرطاً ثانويا . وقد رأينا ان لا أمل للصناعة الصهيونية في اكتساح اسواق الشرق الادنى لعوامل اقتصادية فضلا عن العوامل السياسية .

وتحاول الوكالة اليهودية اقناع الخبراء والرأي العام ، بان في وسعها حل المشكلة الصناعية بواسطة المهاجرة . وقد ادلى « اليهود بحجة انه يمكن حل مشكلة تصريف الالبان الزائدة بادخال عدد وافر من المهاجرين . ورددت هذه الحجة ايضاً بشأن المساكن ، اذ قيل ان زيادة عدد المهاجرين تفسح مجال العمل لعمال البلاد » (!) (٣) وان زيادة المهاجرة تروج البضائع اليهودية وتحث على انشاء معامل كبيرة لصنع المنسوجات . « فان نظرنا الى هذه المسائل من هذه الناحية ، نجد ان ادخال رأس المال والعمال ، وانشاء معامل كبيرة للمنسوجات في حيفا وتل ابيب ، مما يجلب

---

(١) تقرير سمبسون ١٩٣٠ صفحة ١٦٤ .

(٢) قال مدير الجمارك والمكوس والتجارة في تقريره عن الصناعة في فلسطين : « ويلاحظ انه حتى يقيض لاي معمل النجاح الثابت ، يجب ان يوجه انظاره الى الاسواق المصرية والسورية لاستهلاك القسم الاكبر من منتوجاته ، لا الى الاسواق الفلسطينية » . تقرير سمبسون صفحة ١٦٦ .

(٣) تقرير سمبسون ١٩٣٠ صفحة ١٦٧ .

الرخاء الى البلاد، ولكن هذا الرخاء لا يدوم حتى تستهلك هذه الاموال »(١). ومن يضمن لهذه المعامل العمل المستمر ؟ وهل من المؤكد انها ستجد لمنتوجاتها اسواقاً تدر عليها الارباح لتعيش وتعيش العمال الذين يعملون فيها ؟ الم تدل الوقائع الاقتصادية انه لا يمكن لفلسطين ان تكون بلداً صناعياً، في امكانها الاستيلاء على اسواق الشرق العربي؟ «ان الواجب على الحكومة ان تنظر الى ابعد من الحاضر القريب، اذ لا يوجد دليل يقنعنا بان انشاء معمل كبير للمنسوجات في فلسطين سيكلل بالنجاح الباهر، لاسيما وان اجور العمال تتوقف على ما تقرره نقابة العمال اليهود العمومية، بينما معامل المنسوجات في اليابان وعباي، المجهزة بالماكنات الحديثة والتي تستخدم العمال باجور رخيصة، غير قادرة على ايجاد اسواق كافية لتصريف بضائعها ». (١) والصهيونية، في خطتها الصناعية، اي الاكثار من رؤوس الاموال والمصانع، ترمي الى غاية سياسية: ادخال العمال بكثرة لايجاد اكثرية يهودية في البلاد. وهذه السياسة ضارة جدا. لانه وان تمكنت الصهيونية من ايجاد اعمال للمهاجرين، فلا يمكن ان تكون تلك الاعمال، الا موقتة. «غير ان الحكومة ليست مسؤولة عن الحاضر الذي يتيسر فيه رأس المال الجديد فقط، بل هي مسؤولة ايضاً عن الاحوال المستقبلة لما ينفد ذلك المال، فلا حياة للمهاجر عندئذ الا بالعمل، وهذا العمل لا يتيسر الا اذا تمكنت تلك المعامل من الوقوف امام منافسة معامل سائر البلدان »(٢) وتمكنها من ذلك محال ».

لهذه الاسباب نعتقد اعتقاداً جازما أنه « من الخطر تشويق اصحاب رؤوس الاموال الكبيرة الى انشاء المعامل التي لا يضمن نجاحها في فلسطين تبريراً لزيادة عدد المهاجرين » (٣) .

---

(١) تقرير سمبسون صفحة ١٦٧ .

(٢) تقرير سمبسون ١٩٣٠ صفحة ١٦٨ .

(٣) » » » » ١٦٩ .

وهاقد رأينا ان المهاجرة ، منذ ١٩٣٠ وهو التاريخ الذي نشر فيه تقرير السير سمبسون الرسمي القيم عن الهجرة ومشاريع الاسكان والعمران في فلسطين، قد زادت كثيراً حتى انه بلغ عدد المهاجرين منذ ذاك التاريخ ٢٥٠ الفا على الاقل . فهل تمكنت الصهيونية من حل مشاكل صناعتها وايجاد اسواق لها ؟

تثبت الوقائع ان الصناعة اليهودية في فلسطين رغم المهاجرة الواسعة، ورغم المساعدات الخارجية، ورغم حماية الحكومة ، لم تتقدم ولم تستطع احتكار الاسواق الفلسطينية بدليل انتشار البضائع غير اليهودية فيها . وقد ادت هذه الحالة الى افلاس عدد كبير من المصانع اليهودية . واثبت مستر هرون Heron مدير دائرة الصحة ، في شهادته التي اداها امام لجنة التحقيق الملكية ، بتاريخ ١٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٦ ، « ان فلسطين هي اقل بلاد في العالم تستطيع سد حاجاتها بنفسها ، بدليل زيادة الواردات الهائلة عن الصادرات » (١) والامل الذي كان للدوائر الصهيونية في الاستيلاء على الاسواق في الشرق العربي قد خاب . بل ان مصنوعات هذه البلاد قد وجدت لها مكانا واسعا في الاسواق الفلسطينية . وارقام الصادرات والواردات بين سوريا وفلسطين توضح لنا ذلك :

السنة	الوارد من سوريا بالجنيه الفلسطيني	الصادر الى سوريا بالجنيه الفلسطيني
١٩٢٩	٤٧٣٠٧٦	١١١٦٠٨
١٩٣٠	٥٢٦٨٨١	١٠٦٧٠٣
١٩٣١	٣٠٤٧٩٥	١١١٢٠١
١٩٣٢	٢٦٦٥١٧	١١٤٢٢٨
١٩٣٣	٣٢٩٤٣٦	١١١٤٥٩
١٩٣٤	٤٢٩٤٠٥	٩٥٨٦١
١٩٣٥	٥٢٠٠٠٠	١٠٨٠٠٠ (٢)

* * *

(١) التايمس ١٩ نوفمبر « تشرين الثاني » ١٩٣٦ .
(٢) فلسطين وشرق الاردن ١٣ يونيو « حزيران » ١٩٣٦ .

والعامل السياسي فى عدم نجاح المنهاج الصهيوني الاقتصادي ، جد مهم :
لقد فهم العالم العربى الخطر الصهيوني . وعلم ان الصهيونية لا تهدد فلسطين فحسب ، بل جميع البلاد العربية ، سياسياً واقتصادياً . فعزم على محاربتها وقتل جرثومتها قبل ان يستفحل خطرها ... فقرر مقاطعة المصنوعات والمتاجر الصهيونية . واجتمعت هيئة العلماء في فارس ، وغيرها من البلدان الاسلامية ، وحرمت شراء البضائع الصهيونية .

اما فى فلسطين ، فقد اشتدت روح المقاطعة ، واظهر الشعب ، الكبير النفس ، رغبة شديدة وارادة عظيمة ، فى محاربة المنتوجات الصهيونية . لانه يشعر ان من الذلة والعار ان يغذى باموال الصهيونية التي تعمل على اخراجه من وطنه العزيز ... فتحول مثلا عمل لجنة « الحرس الوطني » اليافية ، من الاشراف على الاضراب الى الاشراف على المقاطعة .

ولكن هل يكفي الاقتناع بالمقاطعة السلبية ؟ اي هل يكفي الاقتناع بان تسود روح المقاطعة الشعب دون ان نمون اسواقنا بما يحتاجه من بضائع ،حتى يصبح العربي مستقلا ، عمليا ، عن الاسواق اليهودية ؟ . وهل ليس هذا النوع من الاقتصار على المقاطعة ، وخيم العواقب ، وربما يدب اليأس فى روح الشعب الذي يريد التخلص من الاستعمار الصهيوني ؟ . وهل ليس على هيئاتنا السياسية واجبات اقتصادية لا تقل اهمية عن واجباتها السياسية ؟ . هذا ما نوضحه فى الفصل السادس من هذا الكتاب..

نرى من كل هذا ان العوامل الاقتصادية والسياسية فى الشرق الادنى تحول دون تقدم الصناعة والتجارة الصهيونية . واذا نظم العرب مقاطعة اليهود ، واقاموها على اسس اقتصادية ، فانها تسد امام المنتوجات اليهودية اسواق الشرق العربي ، وتحصرها فى فلسطين فى الاحياء اليهودية . ومن المعلوم ان اليهود لا

يتجرون على بعض . فلا يبقى ، اكيداً ، مستقبل اقتصادي للصهيونية في الشرق العربي ولا في فلسطين ، وبدونه لا نجاح للوطن القومي اليهودي حتى وان تأسس سياسياً ...

* * *

ورغم الواقع والحقائق الاقتصادية ، فان الصهيونية لاتزال تكابر وتصر على تضليل الرأي العام عن واقع الحال في فلسطين. وتقول اذا كانت اقتصاديات فلسطين ضعيفة ، فكيف استطاع مئات الوف من اليهود دخول البلاد والعيش فيها برخاء . وكيف استطاعت حكومة البلاد القيام بمصاريفها ، وادخار ستة ملايين جنيه حتى اواخر عام ١٩٣٥ ؟ . وقد اثرت هذه الحجج على كثير من اعضاء البرلمان البريطاني ، فاخذوا يعتقدون بغناء فلسطين ورخائها . اما الذي له ادنى المام بحالة فلسطين، فانه يرى التضليل واضحاً ويستطيع الاجابة دون صعوبة:

ان حياة اليهود في فلسطين اصطناعية . وان جميع اعمالهم من صناعية وزارعية لا تسد نفقاتها، ولا تستطيع متابعة الاعمال دون المساعدات الخارجية. حتى ان الديون كانت قد تراكبت على تل ابيب ، اهم واغنى مركز صهيوني ، وبلغت سبعين الف جنيه فلسطيني . وما تخلصت منها الا بهبة من الحكومة ، كان قدرها اربعين الف جنيه ، والباقي دفعته الجمعيات اليهودية . ويعيش اليهود في فلسطين على رؤوس اموالهم ، وعلى ما يأتيهم من الاعانات الخارجية. « وقد اصاب الانكليزي الخبير باحوال البلاد في ملاحظته بان الرخاء في فلسطين ما هو الا نظري ووقتي » (١). ومن الاكيد ان تدفق الاعانات لا يستمر دائما . وعند انقطاعها تواجه الصهيونية الحقيقية وجها لوجه . وسيرى اليهود الذين خدعوا في قدومهم الى فلسطين ، انهم لا يستطيعون فيها مزاولة

---

(١) السير ارنست بنيت The Nineteenth Century سبتمبر (ايلول) ١٩٣٦

الاعمال المربحة التي تؤمن لهم مستوى الحياة الذي اعتادوا عليه . وعند جفاف تلك الانهر الذهبية التي تصب في فلسطين، تحل في البلاد ازمة لم ير تاريخ فلسطين مثيلها . وتكون شدتها ومصائبها متناسبة مع عدد اليهود في البلاد .

ووضعية مالية الحكومة في فلسطين غير طبيعية ، كوضعية حالة البلاد الاقتصادية . وما الوفر الذي لدى حكومة فلسطين الا نتيجة الضرائب التي تأخذها الحكومة على الواردات التي لا تتناسب مع حياة البلاد الاقتصادية . وتلك الواردات « بلغت خلال السنين الاربع الماضية ، اربعة اضعاف الصادرات » ! (١). وها ان هزة واحدة ، كانت هي نتيجة لتلك الحالة غير الطبيعية في فلسطين ، كلفت الحكومة مبلغا كبيراً لسد النفقات التي سببتها الثورة الاخيرة ... وها ان ازمة شديدة ، اشد بكثير من جميع الازمات السابقة ، تجتاح البلاد ، وتوقع اضراراً فادحة بالعرب واليهود معاً ....

وقال اقتصادي اميركي كبير ، بعد ان درس وضعية البلاد من الناحية الاقتصادية : « ما هذا الرخاء الا فيضان موقت ، وكثرة اصطناعية ، قائم على غير اساس اقتصادي . واني لا ارى الا مستقبلا مظلما ، وصدمة اقتصادية فظيعة تحل بهذه البلاد » (٢) .

---

(١) السير ارنست بنيت The Nineteenth Century سبتمبر (ايلول) ١٩٣٦
(٢) Palestine and Transjordan ، ٢١ يونيو « حزيران » ١٩٣٦ .

الفصل الثـــــاني

مشكلة الاراضي

فلسطين بلاد صغيرة ، لا تزيد مساحتها عن مساحة مقاطعة «ويلز» . وطبيعة الاراضي فيها متنوعة ، والزراعية منها قليلة لا تسد حاجة السكان . والمزارع الوطني يعاني ازمة اقتصادية اضطرتـه الى بيع ارضه او قسم منها . فامتلكت الصهيونية اخصب الاراضي الزراعية في البلاد ، وتركت له الاراضي الجبلية، القليلة الخصب . فنشأت عن انتقال الاراضي من الايدي العربية الى الايدي الصهيونية اضرار فادحة ، على اهل البلاد ، وعلى السلام في الارض المقدسة . ومما يؤسف له أن موقف الحكومة المنتدبة ازاء هذه المشكلة الخطرة العواقب لم يكن مشرفاً . وهي لم تستطع القيام باعمال تحفظ حق المزارع العربي وتحميه من الخطر الذي يداهمه ، كما اوجب ذلك صك الانتداب .

هذه هي النقاط الرئيسية التي ندرسها في هذا الفصل .

١

وضعية الاراضي « والقطعة الكافية »

ليست فلسطين وحدة جغرافية ، ومواردها الطبيعية لا تمكن اهلها من العيش برخاء طبيعي ومستمر منفصلين عن سوريا ، التي فلسطين جزء منها .

وفلسطين بلاد صغيرة ، يبلغ متوسط طولها من الشمال الى الجنوب ١٦٠ ميلا (٢٥٧ كيلو متراً) ، واقصى عرضها من الشرق الى الغرب اقل من ٧٠ ميلا (١١٣ كيلو مترا) ،وتبلغ مساحتها اقل من عشرة آلاف ميل مربع (٢٥٨٨٨

كيلو مترا مربعا) ، اي حوالي ٢٦ مليون دونماً نظامياً(١). فحجمها يماثل حجم بلاد ويلز او بلجيكا .

ومع صغر حجم فلسطين فان اوضاعها الجغرافية تفوق اوضاع كثير من البلاد الشاسعة المساحة : ففي الجنوب والجنوب الغربي توجد مساحات شاسعة من الرمال والصحاري ، غير صالحة للزراعة والامطار فيها قليلة. وعلى جانب القسم الاعظم من الساحل الغربي يمتد سهل رملي خصب . وفي وسط البلاد منطقة جبلية ، يقسمها مرج بن عامر الى قسمين : في الشمال جبال الجليل ، وفي الجنوب جبال السامرة واليهودية . ومعظم هذه المنطقة قفر بلقع كثير الوعورة . ومرج بن عامر يخترق جبال فلسطين ، ويكاد يكون مثلث الشكل ، وخصب تربته مضرب المثل ، وهي ملائمة كثيراً لزراعة الحبوب . ويمتد شرقي البلاد وادي الاردن الشامل لسهل الحولة . وهو سهل منخفض ، يبتديء من مستوى سطح البحر شمالا . وينخفض تدريجياً الى عمق ١٣٠٠ قدم تحت مستوى سطح البحر عند البحر الميت . ومساحة كبيرة من اراضي هذا الوادي تؤلف القسم الثالث من الاراضي الخصبة في فلسطين ، غير انه «يرتاب كثيراً فيما اذا كانت، تغذي عدداً كبيراً من السكان المزارعين» (٢) ، والقسمان الآخر ان هما مرج بن عامر والسهل الساحلي (٣).

والمناخ في فلسطين يختلف كثيراً من مكان الى آخر . فهو رطب وقليل الحرارة في السهول ، جاف واكثر اعتدالاوبرودة في المناطق الجبلية ، وحار لا يطاق في اكثر جهات وادى الاردن .

واذا استثنينا منطقة بئر السبع ، التي هى قاحلة في اكثر الاحيان، لندورة

---

(١) راجع تقرير السيرجون هوب سمبسون ١٩٣٠ ، صفحة ١٩ ــ ٢٠ ، وتقرير لجنة شو صفحة ٩ .

(٢) تقرير لجنة شو صفحة ١١ .

(٣) راجع تقرير لجنة شو صفحة ١٠ .

الامطار فيها ، فان مساحة جميع الاراضي الصالحة للزراعة في فلسطين لا تزيد عن ٦٥٤٤٠٠٠ دونم نظامي. (١)

* * *

ويملك معظم هذه الاراضي سكان البلاد . وقسم منها ملك لبعض العائلات الاجنبية وللحكومة . وقد اعطت الحكومة قسما مما تملك لليهود ... ومما يجب معرفته ان النظام الاقطاعي غير موجود في فلسطين . وما ادعاء الصهيونيين بوجوده الا بهتان مبين ، رغم وجود عدد من كبار الملاكين . لان معظم الاراضي في فلسطين موزعة بين الفلاحين . واهمية صغار الملاكين في فلسطين كاهميتهم فرنسا . في حين ان في كثير من البلاد الغربية ، وخصيصاً في بريطانيا ، يسود نظام كبار الملاكين ، الشبيه بالنظام الاقطاعي .

ولا تسد ، الاراضي في فلسطين، حاجة المزارعين الذين يقتاتون من اعمالهم الزراعية فيها (٢). وقد اوفى الخبراء واللجان درس هذا الموضوع في تقاريرهم الرسمية . ومع انهم اختلفوا في مقدار « القطعة الكافية » ، فهم متفقون على ان حدها الادنى ، اي الحد الادنى من اراضي البعل الكافية لاعاشة عائلة الفلاح في مستوى لائق ، يجب ان يكون على الاقل ١٣٠ دونماً (٣) .

غير انه لو قسمت جميع الاراضي الزراعية الميسورة عام ١٩٣٠ ، غير التي يملكها اليهود ، بين المزارعين العرب ، لنال العائلة الواحدة منهم مالا يزيد معدله

(١) راجع تقرير سمبسون ، ١٩٣٠ صفحة ٣٢ — ٣٦ .

(٢) « ومهما يكن الامر فيلوح لنا اننا لو اخذنا فلسطين على وجه الاجمال فان البلاد لا تستطيع ان تعول عددا من المزارعين يزيد على من فيها الآن » . تقرير لجنة شو ١٩٣٠ ، صفحة ١٥٩ .

(٣) راجع تقرير فرنش ١٩٣١ ، الفقرة ١٨ ، صفحة ٩ • وتقرير سمبسون ١٩٣٠ صفحة ٩٠—٩٥ ، وتقرير لجنة شو ، صفحة ١٥٩ .

عن ٩٠ دونما (١) . وفي الواقع ليس هذا العددمتوسط ما كانت تملكهبالفعل عائلة المزارع العربي من الارض عـام ١٩٣٠ . لانه يدخل ضمن الاراضي المذكورة ، ما هو ملك الحكومة ، وما هو خاص بالمستعمرات الالمانية،وماهو ملك لعدد كبير من الاغراب . ويظهر لنا معدل ما كانت تملكه العائلة العربية المزارعة من تقرير اللجنة التي عينتها حكومة فلسطين لدرس حالة المزارعين الاقتصادية في فلسطين . وجاء في التقرير الذياصدرته تلك اللجنة عام ١٩٣٠، بعد ان درست احوال ١٠٤ قرى ، ان متوسط ما كان يصيب العائلة ، من العائلات التي تملك ارضا ، هو ٥٦ دونما (٢) . وكانت قلة الاراضي التي يملكها المزارعون من اكبر اسباب سوء حالتهم المالية . مع العلم ان ٢٩،٤ في المائة من عائلات الفلاحين كانت ، عام ١٩٢٩ ، بلا ارض . (٣)

وساءت هذه الحالة منذ عام ١٩٣٠ . اذ متوسط ما كان يملكه المزارع العربي قد انخفض كثيراً ، بسبب زيادة العائلات المزارعة من جهة ، وتسرب قسم كبير مما كان يملكه العرب من الاراضي الى الايدي الصهيونية ،منجهة ثانية . وقد ملكت الصهيونية منذ عام ١٩٣٠ ، التاريخ الذى وضع فيه السير جون هوب سمبسون تقريره ، ما لا يقل عن نصف مليون دونم ، من اطيب الاراضي الواقعة في السهول.

٢

لماذا يبيع المزارع ارضه؟

تقول الصهيونية ، مدافعة عن اعمالها ، انهـا لا ترغم الفلاح على بيع ارضه ، بل هو يبيعها عن طيب خاطر ، ويسر كثيراً في قبض الثمن الذي لم يحلم

(١) راجع تقرير سمبسون ، صفحة ٢٠٣ .
(٢) تقرير لجنة جونسون كروسبي ، ١٩٣٠،فقرة ٤٠،صفحة ٣١ .
(٣)راجع تقرير سمبسون صفحة ٤٠ .

بمثله سابقا . وان كان شراء الصهيونيين لاراضي العرب يعود عليهم بالضرر،فما على العرب الا ان يمتنعوا عن البيع !.

هذا دفاع يقبله ويقتنع به من يجهل حقيقة حال الفلاح . ولمعرفةالاسباب التي تضطره الى البيع ، يجب الوقوف على حالته الاقتصادية والمالية ، ومعرفة الضرائب التي يرزح تحتها .

ان حياة الفلاح حياة فاقة وجهاد .

الفلاح فقير ، ودخله لا يسد ما عليه من المصاريف الضرورية ... طعامه بسيط ومطرد النسق . واكثر وقعات طعامه مؤلفة من الخبز ، مع قليل من البصل او الفجل او البندورة والملح ... وهو لا يتناول اللحوم الا نادراً،لعدم مقدرته على شرائها . وبالايجاز « ان احتياجات الفلاح الحيوية قليلة ، فهو يعيش عيشة بسيطة ، وفقره بازدياد ، وارضه قليلة الارجاء ، وقيمة محصولاته زهيدة » (١) .

وذكر مدير المعارف في سياق مذكرة له : « لقد اصبحت حالة المزارعين الاقتصادية ، على حافة اليأس والقنوط ، وتكاد لا توجد قرية عربية غيرمغرقة في الديون . والفلاحون مثقلون بالضرائب لدرجة انه يتعسر عليهم جداً دفع ضريبة العشر . وفضلا عن ذلك فهم في المواسم الجيدة لا يستطيعون بيع ما ينتجونه من قمح او شعير او زيت . وقد زرت في المدة الاخيرة خمس عشرة قرية في منطقة الجليل ، فوجدت هذه الحالة التعيسة بادية للعيان في كل منها.وقد شح النقد في بعض الاماكن حتى اصبح الاهالي يبتاعون حاجياتهم عن طريق الاستبدال . وليس في وسعهم دفع الاعشار دون ان يعمدوا الى الاستدانة، الامر الذي يؤدي الى زيادة ديونهم الباهظة للمرابين ... وقد قال لي احدهم،

---

(١) تقرير فرنش الاضافي عام ١٩٣٢ ، صفحة ٦٦ « من الطبعة العربية » .

في احدى القرى ، « ما زلنا نجاهد في غمر من المياه منذ سنين عديدة ، وعما قريب ستغمرنا المياه » . وهذا قول يصح اعتباره مثالاً للحالة النفسانية السائدة في كل قرية ... » (١) .

وليست وضعيته هذه نتيجة كسل ، او عدم ذكاء ، او نقص في خبرته الزراعية ، بل هي نتيجة عوامل سياسية واقتصادية احدثتها السياسة الصهيونية ، لتضع الفلاح في ازمة شديدة لا يطيق الصبر عليها ، فيضطر الى بيع اراضيه الى اليهود حيث لا مشتري في البلاد سواهم .

وكل من اختبر الفلاح العربي الفلسطيني ، ووقف على حالته ، شهدله « بانه نجيب ويعمل بجد لتحسين اسلوب مستوى زراعته ومستوى معيشته ، لكنه لم ينل من العناية فيما مضى ، الا النزر القليل »(٢) . وانه « ليس ... كسولاً ولا خاملاً ، بل هو مزارع قدير فطن . ومما لا شك فيه انه لو تمكن من التدرب على اساليب افضل من تلك التي يتبعها ، وتيسر له رأس المال ، وهو من الضروريات الاولية لمثل هذه الاساليب ، لاستطاع ان يحسن وضعيته واحواله بسرعة . اما في الوقت الحاضر فان الدخل الذي يكسبه من مزرعته الصغيرة لا يكفيه للاحتفاظ بمستوى لائق من العيش ولا يترك له مجالاً على الاطلاق لاجراء اي تحسين كان في ارضه » (٣) . « وربما حق له (اي الفلاح) ان يقابل من وجهة المعرفة وحدة الذهن بطوائف مخصوصة من فلاحي جنوبي اوروبا . وليس ثمة ، على ما يتراءى لي لاول وهلة ، من امر يحول دون بلوغه مستواهم في النجاح ، واخذه نفسه باتباع طرق الزراعة المثلى على نحو ما يفعلون » . (٤)

---

(١) من مذكرة لمدير المعارف ضمنها السير سمبسون في تقريره صفحة ٩٦ .

(٢) تقرير سمبسون . صفحة ٩٥ . وجاء في صفحة ١٣١ « ان العربي (الفلاح) ساذج ولكنه في نفس الوقت مفرط الذكاء ومجتهد في عمله » .

(٣) تقرير سمبسون صفحة ٩٩ .

(٤) تقرير مستر ستركلاند عن نظام التعاون الزراعي في فلسطين ١٩٣٠ صفحة ٢ .

غير انه « ما دام الفلاح غير مطمئن على مصيره في الارض فلن يجد في نفسه ما يدفعه الى تحسين اراضيه بتكييف زراعتها . والفلاح لا تعوزه الهمة ولا النشاط بل على العكس من هذا لا يستطيع من يقوده عمله الى الاتصال بالفلاحين الا ان يعجب عما يبدونه من النشاط بلا كلل ولا ملل ، تحت ضغط زيادة السكان ، لتوسيع اراضيهم باحياء الاقسام الجبلية وتعميرها وتقطيعها الى حبلات »(١) .

* * *

ومما لا شك فيه انه لو كانت حالة الفلاح الاقتصادية حسنة ، لما سقط الى المستوى المحزن من العيش الذي هو عليه ، ولما اضطر الى بيع ارضه التي هي اعز شيء لديه . « ويستدل من الافادات التي تيسرت لي من مصادر مختلفة ان الفلاح العربي في حالة يأس وقنوط، فليس لديه رأسمال لمزرعته ، بل بالعكس يرزح تحت عبء ديون طائلة ، والاجار المطلوب منه (من الفلاح غير المالك للارض التي يزرعها) اخذ يتصاعد ، وهو مكلف بدفع ضرائب فادحة، وبلغ ما يدفعه من الفائدة على ديونه درجة غير قابلة التصديق » (٢) .

ورأس مال الفلاح جد زهيد . وهو اما مالك للارض التي يزرعها ، واما مستأجر لها ، وهو خلو من النقد في كلتا الحالتين . ويبلغ متوسط ثمن ما يملك من الحيوانات والادوات التي يستعملها في حرث ارضه، وحصاد محصولاتها ودرسها ٢٤ جنيها . وفي بعض الاحيان ، يملك الفلاح حيوانات اخرى وطيوراً يستثمر البانها وبيضها . ويبلغ متوسط جميع ما يملك ٥٦ جنيهاً (٣) .

وحالة الفلاح المالية يرثى لها . دخله جد زهيد لا يسد نفقات مزرعته في كثير من الاحيان . وقد هبطت اسعار منتوج الفلاح ، عام ١٩٣٠ ، فاصبح

(١) تقرير فرنش الاضافي فقرة ١٢٣ ، صفحة ٦٦ « الطبعة العربية »
(٢) تقرير سمبسون صفحة ٩٥ .
(٣) راجع تقرير سمبسون صفحة ٩٧-٩٨ .

الدخل الصافي للمزارع الذي يملك مائة دونم ١١ جنيهاً و٨٠٠ مل ، والمزارع المستأجر ٣ جنيهات و٦٠٠ مل (١) « بينما ان نسبة العشر وضريبة تعداد المواشي للدخل الصافي من زراعة الارض قد ارتفعت من ١٩ فى المائة الى ٣٢ فى المائة ! » (٢) . هذا مع العلم بان متوسط ما كان يملكه المزارع العربي فى الـ ١٠٤ قرى التى جرى التحقيق عليها ، ليس ١٠٠ دونم وانما ٥٦ دونما . ولذا فان الدخل الصافي للمزارع هو فى الواقع نصف المبلغ الذي ذكرناه فيما تقدم او يزيد على النصف قليلا . واذا علمنا ان متوسط كلفة المعيشة لعائلة مؤلفة من ستة اشخاص ، بما فيه قيمة الفائدة التى تبلغ ٨ جنيهات سنوياً ، هي ٣٤ جنيهاً (٣) ، رأينا ان « ليس من قبيل المبالغة اذن ان يقال ان الفلاحين كمجموع قد بلغوا درجة من الافلاس لا رجاء بعدها » (٤).

وامام العجز المالي العظيم الذي يقاسيه الفلاح ، يرى نفسه مضطراً ، بادىء الامر ، الى الاستدانة بربا فاحش ليعيش . ومقدار الفائدة الاعتيادية ٣٠ فى المائة ، على انه يربو فى كثير من الاحيان على مائة بالمائة .

ووطأة ديونه عليه لا تقل عن وطأة الضرائب . « ففي منطقة احد المفتشين الاداريين التي تشمل ثلاثة اقضية يوجد ١٤ جابياً لضرائب الحكومة . بينما ان مرابيا واحدا فقط ، فى احدى هذه الاقضية الثلاثة ، يستخدم ٢٧ محصلا ، من الخيالة ، لتحصيل ديونه ، ومثل هذه الحالة ليست بالوحيدة » (٥) . ورغم العناء الشديد الذي يقاسيه الفلاح من الديون المتراكمة عليه ، والآخذة فى الازدياد ، فان الحكومة لم تعمل شيئا لتخفيفها عنه ، ولم تقم بفتح مصارف تقرض الفلاح

(١) راجع تقرير سمبسون صفحة ١٠٣ .
(٢) راجع تقرير لجنة جونسون كروسبي ١٩٣٠ فقرة ٦٨ . صفحة ٦٥ .
(٣) « « « « ١٩٣٠ ، فقرات ٣٥و٣٦و٧٧ صفحة ٢٨و٢٩ .
(٤) تقرير سمبسون صفحة ١٠٣ .
(٥) تقرير فرانش الاضافي ، ١٩٣٢ . فقرة ٦٩ . صفحة ٣٨ .

بفائدة معقولة ، وتخلصه من المرابين الذين لا يرحمونه . لم تقم الحكومة بأي عمل ايجابي في هذا السبيل رغم ان جميع الخبراء الذين درسوا الموضوع درساً وافياً الحوا عليها بذلك .

* * *

والفلاح مرغم على دفع ضرائب فادحة ، تفوق في كثير من الاحيان، دخله ! وترى الحكومة حالته المحزنة فلا ترحمه ، ولا تخفض عنه حمل الضرائب الثقيل . فيضطر الفلاح للاستدانة برباً فاحش ليدفع الضرائب التي لا مناص له من دفعها . (١)

والفلاح لا يدفع ضريبة واحدة ، بل عدة ضرائب ، منها ضريبة الويركو والعشر وضريبة تعداد المواشي :

ان الويركو ضريبة مفروضة على الاراضي والمباني ، وهي«مبنية في الغالب على ضريبة جرى تخمينها قبل الحرب ، وتوزيعها النسبي ير متعادل قط »(٢).

---

(١)وجاء في مذكرة قائمقام يافا بشأن تحصيل الضرائب من الفلاح« ... ان ما قيل ...في اللد بان الحجز يقع احيانا على جميع الحاصلات العائدة للشخص الواحد صحيح ... ان حاصلات الفلاح هي الشيء الوحيد الذي يستطيع مأمور المالية حجزه لاستيفاء الضرائب المستحقة عليه، وليس من وسيلة لتنفيذ الحجز الا بتعيين خفير على البيدر في اثناء الدراس ... وبالطبع يتحتم على المتخلفين دفع اجرة الخفير ، وهذا مما يزيد في الاعباء الملقاة على عاتقهم . فلكي يتخلصوا من هذه الاجرة يضطرون احيانا للاستدانة لدفع الضرائب والتخلص من الخفير . وذلك مما يثبت الاعتقاد السائد بان الحجز لا يرفع ما لم تدفع جميع الضرائب المطلوبة ... ولا يجد الفلاح في كثير من هذه الحالات مخرجا من هذا المأزق الا بالاستدانة ... وقد تمكن القرويون في الماضي من دفع الضرائب المستحقة عليهم اما بحرمان انفسهم من ضروريات المعيشة او بالتورط في الدين ... واني... اعتقد كل الاعتقاد انه لو تمنع هؤلاء عن اداء الضرائب وقالوا « ليتنا نستطيع الدفع لدفعنا » لتعذر علينا تحصيل الضرائب بالطرق القانونية . وهذه حالة تستوجب اهتمام الحكومة . ولهذا ارى انه من الواجب ان يعفى من الضرائب حد ادنى من الدخل بما امكن من السرعة . اذ ان المبالغ التي يدفعها هؤلاء القرويون ليست عظيمة ولكنها فاحشة بالنسبة الى دخلهم » . تقرير سمبسون صفحة ١٠٧ و١٠٨ .

(٢) تقرير لجنة جونسون كروسبي. فقرة ٦٧، صفحة ٦٢

وكانت ضريبة العشر تستوفي ، كل عام ، بمعدل ١٠ في المائة من المحصول .وقد استبدلتها الحكومة عام ١٩٢٨ بضريبة مقطوعة ، بنتها على متوسط اعشار حاصلات الاربع سنوات السابقة . الا ان اسعار الحاصلات هبطت منذ ذلك الحين هبوطاً مطرداً ، «فاصبحت منذ استبدالها بضريبة مقطوعة تتفاوت مع مقادير حاصلات الفلاح واثمانها ، ولما كان مقدار هذه الضريبة باهظاً بالنسبة لغيرها فان عدم مرونتها لفي مكان من الخطورة «(١) . وتجبي ضريبة المواشي سنويا عن كل رأس من الحيوانات التي يملكها الفلاح ، ومقدارها يختلف باختلاف انواع الحيوانات .

ومما هو جدير بالذكر أن الفلاح، مع فقره وزهادة دخله ، يدفع ضرائب اعظم بكثير من الضرائب التي يدفعها المالك الغنى في المدن . «وفي الاستطاعة القول بانه يمكن المقارنة بين ما يدفعه الفلاح من الضرائب ، ويبلغ ٣٤ في المائة من قيمة الاجار ، وما يدفعه صاحب الاموال غير المنقولة في المدن ، ويبلغ اقل من ١٠ في المائة ، ولا تستوفي من مناطق المدن ضرائب مباشرة في مقابل ال ١٩ في المائة ــ وقد ارتفعت نسبتها الى ٣٢ في المائة ــ من الدخل الصافى ، التي يدفعها المزارع بصفة عشر وضريبة تعداد مواشي » (٢)

ونظام الضرائب فى فلسطين شاذ . فالفلاح المسكين ، الذي يكد ويشقى للحصول على دخل لا يسد حاجاته الضرورية، يتحمل الضرائب وحده. «اما المرابي الذي يحصل ايراده او جميع ثروته بالاكثر من عرق جبين الفلاح فيتملص من دفع الضريبة بالمرة » . (٣)

(١) تقرير لجنة جونسون كروسبي فقرة ٦٧ صفحة ٦٢ .
(٢) « « « « « ٦٧ ، صفحة ٦٣ .
(٣) تقرير فرنتش الاضافي ، ١٩٣٢ ، فقرة ٦٧ ، صفة ٣٧ .
وجاء في هذه الصفحة ايضا ان « الاستياء الشديد مبعثه الاجحاف الذي ينطوي عليه هذا النظام الذي يفرض الضرائب على اصحاب الارض او المتصرفين فيها مهما كانت اراضيهم قليلة، ويتجاوز عن المرابين واصحاب الحرف والصنائع على اختلافها ، الذين يزيد ايرادهم كثيرا على ايراد طبقة الفلاحين » .

ورغم ان الاكثرية الساحقة من سكان البلاد تشكو نظام الضرائب ، ورغم ان الحكومة عالمة حق العلم بأن الفلاح فقير وفي حاجة ماسة الى المساعدة ، وان لا قبل له على دفع الضرائب المرغم على دفعها ، ورغم ان التقارير الرسمية اصرت على تغيير هذا النظام ، وابداله « بضريبة الدخل » فان الحكومة مستمرة على اتباع نظام الضرائب المجحف بحقوق الفلاح . ان الحكومة شاعرة بهذا الاجحاف ، غير انها لا تقدر على تطبيق « ضريبة الدخل » العادلة التي تقع على كاهل اصحاب الدخل الحقيقي ، والمتبعة في جميع البلدان ومنها بريطانيا . وهي لا تقدر على ذلك لان الصهيونيين يعارضونها ، لعلمهم ان «ضريبة الدخل» ترفع عن الفلاح الحمل الثقيل الذي ينوء تحته ، فينتعش ، وبانتعاشه لا يستيطعون اثقال كاهله بالديون ، وحمله اخيرا على بيع ارضه . لعلمهم ان ضريبة الدخل تجبرهم على دفع ضرائب عظيمة لا يدفعونها حسب نظام الضرائب الحالي . ولعلمهم ان نظام تلك الضريبة يكون ضربة قاضية على مشاريع الصهيونية في فلسطين ، لان هذه المشاريع ما تمكنت من الحياة الا باعفائها من الضرائب ، وبحمايتها «بالتعريفة الواقية » .

ومع ان الفلاح يدفع معظم الضرائب ، فليس له حظ من عناية الحكومة . ومع انه من واجب الحكومة المنتدبة السهر على حقوق المزارع ، وتسهيل الاقتراض عليه ، بفتح مصارف ، فانها لم تقم باي عمل من هذا القبيل ، رغم وعودها العديدة ، ورغم تقارير الخبراء الذين ابانوا لها ضرورة ايجاد مصارف زراعية . وعلى خلاف ذلك فان الحكومة المنتدبة قد اغلقت المصرف الزراعي العثماني الوحيد في البلاد . وهي لم تقم باي تحسين عمراني في القرى العربية . واكتفت بشق الطرق وتعبيدها بين المستعمرات الصهيونية . وكثيراً ماطالبت الصحافة والهيئات السياسية العربية الحكومة بتعبيد الطرق الموصلة بين المدن والقرى العربية ، دون جدوى . لان الصهيونية والحكومة لا تودان ان يمتد التحسين

العمراني الى الاراضي العربية ، حتى لا ترتفع قيمتها ويعظم ثمنها ، ويسهل على المزارع العربي نقل محصولاته الى الاسواق المجاورة . ومن الاستخفاف العظيم بالعرب وبحقوقهم ، اسراع دائرة الاشغال العامة بشق الطرق وتعبيدها ، متى بيعت تلك الاراضي الى الصهيونية ...

* * *

يتساءلون لماذا يبيع الفلاح ارضه ؟! .

وضع الفلاح في حالات اقتصادية ومالية اضطرته الى الاستدانة بربا فاحش. فهو يستدين ليدفع الفائدة التي عليه ، او ليسد ديونا سابقة ... وهو يستدين ليدفع الضرائب التي تقسم ظهره ... وهو يستدين ليتمكن من زراعة ارضه... وهو يستدين ليعيش ... وبالطبع عليه ان يعيد المبالغ التي استدانها . ينظر الفلاح فيرى الديون تغمره ، وحالته المالية تزداد سوءا بمرور الايام ، ويظهر له انه لا يستطيع سداد ديونه الا ببيع قسم من اراضيه ان لم يكن كلها . « وقد عرض علي كثيرون من الفلاحين اراضيهم للبيع رغبة منهم في الخلاص من ربقة الديون التي عليهم » (١) . « وقد تناقصت مساحة الاراضي التي يملكها الافراد تناقصا مطرداً ، حتى اني سمعت في كل قرية زرتها شكوى حول هذه النقطة ، ذلك ان بعض الاهالي اضطروا الى بيع بعض اراضيهم اما لتسديد ديونهم ، او لدفع ضرائب الحكومة ، او لاحراز نقد لسد رمق العائلة » (٢).

الفلاح يحب ارضه ويتعلق بها ، وهو لا يبيعها عن طيب خاطر ، وان اليوم الذي يجبر فيه على مغادرتها لهو يوم شقاء وحزن .

واننا نعتقد ان مسؤولية انتقال الاراضي العربية الى الايدي الصهيونية، يقع على عاتق الحكومة المنتدبة ، لاتباعها السياسة الصهيونية ، سياسة افقار

(١) تقرير فرنش الاضافي ١٩٣٢ فقرة ٦٦ صفحة ٣٦ .
(٢) تقرير سمبسون صفحة ١٠٣ .

طبقة المزارعين ، حتى يبيعوا اراضيهم ... ولولا هذه السياسة لما باع الفلاح ارضه ، ولما مكن الصهيونية من التوغل في البلاد مهما كان الثمن الذي تدفعه له.

ومتى اضطر المزارع الى بيع ارضه ، فهو لا يبيع الى اليهود رأساً في اغلب الاحيان . بل الى فريق من « السماسرة » العرب ، الذين اتخذوا مهنة لهم تسهيل انتقال الاراضي العربية الى الصهيونيين .

و « السماسرة » على نوعين . وافراد النوع الاول من الاغنياء . يبتاعون الاراضي من الوطنيين الذين يعز عليهم بيع اراضيهم الى الصهيونيين . ثم يبيع هؤلاء السماسرة ما اشتروا الى اليهود باسعار اكثر بكثير من تلك التي دفعوها ثمنا للارض .

وافراد النوع الثاني ، وهم اكثر عدداً من افراد النوع الاول ، يؤلفون حلقة الوصل بين الملاك العربي وبين الصهيونيين. فيزينون للفلاح البيع ، ويخيفونه من المستقبل ، ويأخذون في الكذب والتهويل ، ليرسخوا في ذهنه انه ان لم يبع اليوم عن طيب خاطر ، وبسعر مرتفع ، فستستملك الصهيونية ارضه ، عندما تصبح اكثرية في البلاد ، وتدفع له ثمناً زهيداً ! ...

وقد اوقع « السماسرة » اضراراً عظيمة بالقضية الفلسطينية العربية ، وجنوا على الوطن وعلى الشعب العربي جناية كبرى لا تغتفر ، بمساعدتهم الصهيونية في الاستيلاء على الاراضي .

٣

الاراضي التي دخلت في قبضة الصهيونيين

كانت الصهيونية ، ولا تزال ، ترمي الى الاستيلاء على جميع الاراضي الصالحة للزراعة في فلسطين ، واقصاء العرب عنها ... فامتلكت منها ، حتى عام ١٩٣٠ ،

١،١٧٠،٠٠٠ دونما نظامياً (١) ، اكثرها باسعار زهيدة . « ومن الجلي انه لم يكن في الامكان امتلاك هذه الاراضي الشاسعة لاقامة المهاجرين اليهود فيها اقامة دائمة دون ان يؤدي ذلك الى اخراج عدد كبير من المزارعين العرب منها، سواء ابتيعت من كبار الملاكين العرب ام من صغارهم » (٢) .

وفي عام ١٩٣٠—١٩٣١ درست لجان رسمية وخبراء رسميون حالة البلاد لا سيما مسألة الاراضي والاسكان . (لجنة شو البرلمانية ، جونسون كروسبي، سمبسون ، فرنش) فقرروا بالاجماع ان الاراضي التي في ايدي العرب لاتكفي حاجتهم . وظهر ان ٢٩و٤ في المائة من العائلات العربية المزارعة كانت حينئذ بدون ارض . وصرحت حكومة جلالته « ان حالة الفلاح العربي تحتاج الى كثير من العناية ، ومن الواجب وضع سياسة خاصة بالاراضي ، ان كان يراد تحسين احوال معيشته » (٣) . ورغم هذا التصريح فانها لم تعمل شيئاً لوقاية الفلاح وتحسين احوال معيشته ، بل تركت الامور تسير على اعنتها ، مع علمها بأنها تضحي بذلك حقوق العرب الاولية ...

ومنذ صدر تقرير لجنة الخبراء القائل بان الاراضي العربية في فلسطين لا تسد حاجة المزارعين العرب ،ضاعفت الصهيونية قواها ، فاستولت ، منذ عام ١٩٣٠ ، على ما يزيد عن نصف مليون دونم اخرى (٤). فاصبح ما في قبضتها من الاراضي ١،٦٧٠،٠٠٠ دونما . اي ٢٥و٧ في المائة من مجموع الأراضي الصالحة للزراعة .

تقع الاراضي التي تملكها الصهيونيون ، في اخصب بقاع فلسطين : في

(١) راجع تقرير سمبسون صفحة ٣٧
(٢) راجع تقرير فرنش عام ١٩٣١ فقرة ٨ صفحة ٥
(٣) الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ ، فقرة ١٧ صفحة ١٦ (الطبعة الانكليزية)
(٤) راجع كنعان : The Palsitne Arab Cause صفحة ١٠

السهل الساحلي ، وفي سهل مرج بن عامر ، وفي سهل الحولة (١) . وخطة الصهيونية الاستيلاء على السهول الخصبة واقصاء العرب عنها، وحصرهم في الجبال.

ومع ان الصهيونيين قد استولوا على اخصب البقاع الفلسطينية فهم، يدعون في الخارج ، انهم يذهبون الى فلسطين ، فيحيون الاراضي الموات ، ويجففون المستنقعات ، ويقيمون مكانها حدائق خضراء ، تدر الخير العميم على بني اسرائيل ... اما في الواقع « فانه ليس بين المستعمرات الصهيونية من هي قادرة على سد نفقاتها بنفسها بمعنى ان تستطيع القيام بنفقاتها دون مساعدة احد ... ومن المسلم به ، والحق يقال ... ان كثيراً من المستعمرات الصهيونية تتلاشى اذا حبست عنها الاعانات » (٢). ورغم النفقات العظيمة التي يصرفها الصهيونيون في زراعتهم فانهم لم يتوفقوا في كثير منها. « ... ففي قرية العفولة... يقطع المسافر مساحات طويلة ملأى بالاشواك ، وقد قيل لي بصفة رسمية ان هذه الحالة سببت ظهور فيران الحقل التي اتلفت المزروعات اليهودية والعربية في المرج ، وجعلت ٣٠،٠٠٠ دونم من اراضي اليهود في حالة يرثى لها كأنها مرج من الاشواك . ومن الثابت ان العشر الذي يدفعه اليهود في عدد من القرى هو اقل من العشر الذي كان يدفعه العرب لما كانوا يفلحون هذه القرى .

«من الخطأ ان يظن ان مرج بن عامر كان قفراً بلقعا قبل ان يحتله المستعمرون اليهود ،وانه اصبح الآن جنة من الجنان ...ليس من العدل ان يقال بان الفلاح الفقير الذي اجلي عن هذه الاراضي كان عالة على الارض،وانه لم يستنتج منها شيئا قط . فهذا قول،على ما يظهر جليا،لا يمثل الحقيقة قط .

« كان المرج قديما غنيا بالحبوب ، والعرب يحسبونه حتى الآن اخصب قطعة في فلسطين ، ولا يزالون ساخطين لان عائلة سرسق المتغيبة عن البلاد باعت مساحات واسعة منه لليهود ، مما ادى الى اخراج المزارعين العرب . وقد

(١) راجع تقرير لجنة شو صفحة ١٤٩
(٢) تقرير سمبسون صفحة ٧٢

تراءى لي هذا السخط في اثناء محادثاتي مع العرب ، الافندية منهم والفلاحين على السواء » (١) .

* * *

والمزارع العربي شديد الوطنية لا يبيع ارضه الى خصومه الا بعد ان تسد جميع ابواب الرزق امامه . على ان الذين اوقعوا بالعرب عامة ، وبالمزارعين خاصة خسائر عظيمة لا تعوض ، واضراراً فادحة لا تتلافى ، هم كبار الملاكين من الاغراب ، فهم الذين باعوا مساحات شاسعة من اخصب الاراضي الفلسطينية الى اليهود (٢) .

ولنوضح ذلك بثلاثة امثلة :

اولا — يعد مرج بن عامر من اخصب سهول فلسطين، واهم مصدر للغلال فيها ، مساحته ٤٠٠ الف دنم نظامي (٣) باع آل سرسق الاغراب عن البلاد ، الى الصهيونيين بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٥ ، اكثر من مائتي الف دنم ، تشتمل على ٢٢ قرية (٤) ، يقطنها ١٧٤٦ عائلة ، تؤلف ٨٧٣٠ شخصاً . وكان نتيجة ذلك ان بادت القرى ، وجلا اهلها وتشتتوا ، وتألب عليهم البرد والجوع . وفتكت فيهم الامراض واضطر كثير منهم الى الجلاء النهائي ، فهاجروا الى اميركا — وحل في المرج مكانهم اليهود ...

وكان في المرج مرتزق لآلاف غير اهله من سكان الجبال المجاورة . كانوا ينتقلون اليه بعد الحصاد لرعي مواشيهم . فانقطع رزقهم منه بعد انتقاله الى الصهيونيين (٥) ويضاف الى ذلك ان قرى المرج كانت مصدر خير وبركة

(١) تقرير سمبسون صفحة ٢٧ و٢٨ .

(٢) راجع تقرير لجنة شو . صفحة ١٥٠ .

(٣) تقرير سمبسون صفحة ٢٦ .

(٤) راجع تقرير لجنة شو ، صفحة ١٥٥ .

(٥) راجع شهادة الخبير سليم فرح التي قدمها امام لجنة شو صفحة ١٥٥ و١٥٦ . وراجع ايضا صفحة ٧٦ و٧٧ من تقرير سمبسون .

للمدن المجاورة ، كالناصرة وجنين . ففقدت هذه المدن ، بزوال القرى العربية، خير عملائها ، ومصدر ثروتها ، وظهر التأخر فيها ظهوراً جلياً .

ثم عاد آل سرسق فباعوا بعد ذلك صفقات اخرى من هذا المرج الى الصهيونيين ، حتى لم يبق منه في يد العرب الا القليل .

ثانياً — وادي الحوارث قسم من السهل الساحلي . واراضيه خصبة جداً باعها آل التيان ، الغرباء عن البلاد ، عام ١٩٢٩ ، وقدرها ، ٣١ الف دنم ، الى اليهود بمبلغ ٤١ الف جنيه .

ولم ينفذ البوليس الامر الصادر باخلاء الارض « لعدم وجود اي مكان آخر يمكنهم نقل المزارعين (العرب الذين كانوا يعيشون في الوادي) ومواشيهم اليه »(١) . على ان اليهود، رغم ذلك ، ضغطوا على الحكومة لاخلاء الارض. فقامت عام ١٩٣٣ بعملية الجلاء ، فاخرجت بالقوة ١٥،٥٠٠ عربي بأس من اهل هذا السهل الخصب مع مواشيهم التي كانت تبلغ ثلاثة آلاف رأس . ولم يحجم الجند عن اطلاق النار على المساكين الذين عزعليهم مفارقة مساكنهم واراضيهم، فاصاب بعضهم ، فوقعوا على الارض صرعى ... وفقدت العشيرة كيانها ، واصبحت مشتتة لا مأوى لها ...

ووادي الحوارث من اخصب الاراضي الفلسطينية . وكان العرب يزرعون ثلثه بطيخاً . « وتدل الاعشار التي دفعت عام ١٩٢٨ على ان قيمه محصول البطيخ بلغت سبعة آلاف جنيه على الاقل »(٢) . وهذا يرينا انه اذا اعتني بزراعة اراضي وادي الحوارث ، فانها تؤدي محصولا سنويا لا تقل عن قيمة الثمن الذي بيعت به ! ومع ذلك تدعي الصهيونية انها تشتري الاراضي باثمان باهظة ...

ثالثاً — وسهل الحولة ثالث الاراضي الخصبة في فلسطين ، لم تنعم الطبيعة

(١) تقرير لجنة شو صفحة ١٥٧ .
(٢) » » » » »

على مكان آخر بما انعمت عليه من ماء غزير . « وتقدر مساحة هذه المنطقة ب ١٦٥،٠٠٠ دنم تقريباً . ويقال ان بعض السوريين غير المقيمين في البلاد يملكون منها ٦٥،٠٠٠ دنم ، وان نحو ٤٥،٠٠٠ دنم اخرى تملكها عائلات من الفلاحين والبدو ، وما بقي منها (اي ٥٥،٠٠٠ دنم) مشمول بالامتياز » ...(١) الذي حازه بعض السوريين من الحكومة التركية .

وقد اكد الخبير السير سمبسون انه « اذا رجع امتياز الحولة الى الحكومة وجب ان تحتفظ بالاراضي المشمولة به لغايات التحسين... »(٢). ونصح الخبير الانكليزي مستر فرنش الحكومة بان تقوم هي بمشاريع التحسين الزراعي في منطقة الحولة « لانه يمكن القول بكل تأكيد ان كل مشروع عمراني لا يتناول السهل باجمعه لن ينجم عنه فائدة حقيقية »(٣).

ورغم هذه التواصي فقد سعت الحكومة لنقل الامتياز ، لعجز صاحبه الاول عن القيام بشروطه ، الى الشركات اليهودية . واراد المندوب السامي تبرير موقف الحكومة هذا ، فقال ، في اجتماع تم بينه وبين اللجنة التنفيذية العربية في صيف عام ١٩٣٤ ، انه لا يمكن الحكومة القيام بالتجفيف المطلوب في الامتياز لضخامة نفقات المشروع . في حين ان الخبراء من انكليز ويهود ، قرروا ان نفقات تجفيف سهل الحولة تتراوح بين ٥٠—٧٠ الف جنيه فلسطيني ، وهو مبلغ ضئيل بالنسبة الى مساحة الارض . وفي الوقت الذي تدعي فيه الحكومة ان لا طاقة لها بتجفيف السهل ، قررت صرف ١٧٠ الف جنيه لاعمال مقاومة الملاريا في تلك المنطقة ! تلك الاعمال التي كانت يجب على الشركات اليهودية ، صاحبة الامتياز ، القيام بها ....واعفت الحكومة تلك الشركة من

(١) تقرير فرنش ، فقرة ٩٩ ، صفحة ٤٧

(٢) تقرير سمبسون ، صفحة ٢١٥ و٢١٦ .

(٣) تقرير فرنش ، ١٩٣١ ، صفحة ٤٧ و٤٨ .

دفع خمسين الف جنيه ، كان يجب عليها دفعها بموجب عقد الامتياز ، كما انها اعفتها من دفع الضرائب مدة ١٥ سنة .

وكان من نتائج تحويل الامتياز الى اليهود ان نكب معظم العائلات البالغ عددها ١٥٠٠٠ عائلة ، واخرجوا من هذه الاراضي المشمولة بالامتياز ، والتي استوطنوها منذ مئات من السنين ، واضاعوا كيانهم ، بعد ان تشردوا فى كل مكان ... وحل اليهود مكانهم ...(١)

هذه ثلاثة امثلة (٢) ترينا كيف ان امتلاك اليهود للاراضي العربية يوقع بالعرب اشد الاضرار التى يستطيع ان يوقعها قوم بقوم آخرين : بؤس ، وآلام وموت ، وضياع كيان قرى عربية عديدة ، وتشتت اهلها ... هذه هي النتيجة الواقعية للصهيونية وانشاء الوطن القومي اليهودي ، وهذا هو المصير المنتظر للشعب العربي فى فلسطين ، ان لم تتغير الحال ...

ولكن الم يكن لهذه الألوف من العرب الذين جلوا عن القرى والاراضى التي قطنوها وقطنها اجدادهم مئات السنين ، حق فيها ، كان يجب على الحكومة المحافظة عليه ؟ . وللاجابة على هذا السؤال يجب اولا ان نعرف كيف ان كبار الملاكين الذين باعوا الاراضى من اليهود ، قد تمكنوا من تطويبها على اسمائهم :

ان الاراضى فى فلسطين حق للمزارعين العرب الذين يتصرفون فيها منذ مئات السنين . وقد حدث خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، ان أخذ بعض المتنفذين فى البلاد فى « تطويب » قطع واسعة من الاراضي على اسمائهم ، بطرق هي فى كثير من الاحيان غير مشروعة . واسندت بعض العائلات

(١) راجع التقرير الذي رفعه الحزب العربي الى لجنة الانتدابات في ٢ مايو (مايس) ١٩٣٥ ، صفحة ١٣ و ١٤ من الطبعة الانكليزية .

(٢) والامثلة الواقعية عديدة . « واذا اخذنا منطقة بيسان مثلا نجد دلائل هذا الجلاء ظاهرة للعيان ... » تقرير فرنش ١٩٣١ فقرة ٦٥ ، صفحة ٣٠ .

الارستقراطية واصحاب النفوذ فى المملكة العثمانية الى نفسها ملكية مساحات عظيمة من اراضي تلك المملكة ، ومنها فلسطين . تلك الاراضى التي كانت يتصرف بها الفلاحون بلا منازع ولا معارض ،اجيالا وقرونا .على ان الفلاحين لم يشعروا بخروج الارض من ايديهم ولم « ... يعترفوا بوجود صاحب الارض المفروض انه يملكها » (١)

وتأتي جمعية يهودية فتبتاع هذه الاراضي من الشخص الذى هي مطوبة على اسمه ، وتضع يدها ، بقوة سلاح الجند ، على الارض ـ « فينشأ عن ذلك اخراج المزارعين المقيمين فيها والذين انما سمعوا بصاحب الارض القديم كافندي مجاور لهم ليس الا ... وهؤلاء القوم يعسر عليهم ايجاد ارض اخرى يستقرون فيها ،ولا يستطيعون ادراك السبب الذي ادى الى تغير وضعيتهم ، والى حرمانهم من مورد رزقهم الوحيد المألوف لديهم » (٢)

فالاغراب الذين يملكون اراضي واسعة في فلسطين ، ليسوا بموجب العدالة اصحاب تلك الاراضي ، ولا يحق لهم بيعها واقصاء الذين تصرفوا فيها قرونا طويلة عنها . بل العدالة ، «والحق الادبي » يقضيان بان تبقى تلك الاراضي في تصرف الذين اجلوا او قد يجلون عن اراضيهم . لا سيما وانه ليس من الممكن ان يجد المزارع الذي يجلى عن الارض ارضا اخرى يمكنه الانتقال اليها (٣) « واذا كان يراد المحافظة على الحقوق الواسعة غير المقررة التي تتمتع بها طبقة المتنورين وذوي الجاه والنفوذ من الجهة الواحدة ، وجب من الجهة الاخرى، ان تصان الحقوق الواسعة غير المقررة التى لطبقة المعوزين وغير المتنورين، وتحفظ تجاه اي تجاوز عليها » (٤) .

(١) تقرير فرنش الاضافي ، فقرة ٦٣ ، صفحة ٣٤ .
(٢) » » » » » صفحة ٣٤ و ٣٥ .
(٣) راجع تقرير لجنة شو صفحة ١٥٨ .
(٤) تقرير فرنش الاضافي ١٩٣٢ ، فقرة ٦٤ ، صفحة ٣٥ .

ولكن، من المؤسف ان اعمال الحكومة المنتدبة اثبتت انها ليست في فلسطين لاقامة العدل، وحماية الضعيف، ولكنها اداة لتنفيذ السياسة الصهيونية...

٤

قلة الاراضي واخطار انتقالها الى الصهيونيين

يموه الصهيونيون ويكذبون على الرأي العام بقولهم انهم يذهبون الى فلسطين فيعمرون الاراضي « الزائدة » والمتروكة، التي لم يزرعها ولم يعتن بها المزارعون العرب، ويجعلون منها جنة خضراء. وانهم بعملهم هذا لا يعودون على الفلاح العربي باي ضرر ... « وواقع الامر ان ليس في البلاد في الوقت الحاضر عام (١٩٣٢) اراض غير مزروعة « زائدة »، بمعنى انها غير مفتلحة او مزروعة او مشغولة سواء من اصابها اومن مستأجرين » (١). « والحقيقة الناصعة هي انه لا توجد ارض ميسورة يمكن اسكان المهاجرين الجدد فيها الا باحلالهم محل الاهالي الحاليين » (٢). « ويبدو للناظر مقدار الحاجة الى الاراضي من افتلاح الاهالي (اي العرب) كل ما تيسر من الارض حتى القطع الصغيرة التي يتعذر استعمال المحراث فيها، فيلجأ الفلاح في فلاحتها الى الفأس والمجرفة. وحاصلات هذه الأراضي قليلة جداً حتى في السنين الجيدة » (٣). « ومهما يكن الامر فيلوح لنا انه لو اخذنا فلسطين على وجه الاجمال فان البلاد لا تستطيع ان تعول عددا من المزارعين يزيد على ما فيها الآن (١٩٣٠) ... » (٤)

وواقع الحال، ان الامر لا يقتصر على انه ليس في فلسطين اراض « زائدة »

---

(١) تقرير فرانش الاضافي، فقرة ١:٩، صفحة ٣.
(٢) تقرير لجنة شو، صفحة ١٠٦٣٣.
(٣) تقرير سمبسون صفحة ٢٢.
(٤) تقرير لجنة شو صفحة ١٠٥٩.

فحسب ، بل ان الاراضي التي كان يملكها العرب حتى عام ١٩٣٠ ، لم تكن تسد حاجتهم (١) . فقد ابانت « لجنة شو » والخبراء ، ان العائلة المزارعة في حاجة الى ١٣٠ دنم من اراضي البعل ، على الاقل ، لتعيش في مستوى كاف ، بينما ان العائلة المزارعة في ١٠٤ قرى جرى فيها تحقيق خاص ، لم يكن متوسط ما تملك عام ١٩٣٠ اكثر من ٥٦ دونما (٢) . فيرى من هذين الرقمين قلة الاراضي التي يملكها الفلاح وانها لا تسد حاجته .

هذه الاقوال والارقام تصف حالة الاراضي والفلاح في فلسطين عام ١٩٣٠ . ومما لا شك فيه ، ان متوسط ما كان يملكه المزارع العربي حينئذ قد نقص كثيراً ، لأن الصهيونية قد سلخت من ايدي العرب ، منذ ذلك التاريخ ، ما لا يقل عن نصف مليون دنم ، من اخصب الاراضي ، من جهة ، ولأن نفوس اهالي الارياف قد زادت كثيراً ، لسبب زيادة المواليد عن الوفيات ، من جهة ثانية .

* * *

ويولد انتقال الاراضي من الايدي العربية الى الايدي الصهيونية اخطارا اقتصادية . اذ هي تفصل بين العرب وبين الاراضي التي تضع عليها الصهيونية يدها ، فصلا تاما ، « ولا يعود في وسع العربي ان يجني منها اية منفعة سواء في الوقت الحاضر او في المستقبل » (٣) . لان الاراضي التي تملكها الصهيونية

---

(١) « هناك خطر ان اقتصادي اعظم يهدد اصحاب الاراضي من الفلاحين العرب في فلسطين ، ما تنقيص اراضيهم الى ما دون الحد الكافي لاعالتهم ، و نقل الاراضي ، بلا قيد عن طريق البيع او الرهن الى اليهود او الرأسماليين من العرب ، مما يؤدي الى اخراجهم » . تقرير فرنش ١٩٣١ ، فقرة ٦٩ ، صفحة ٣٢ . راجع ايضا الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ الفقرة ١٠٥ و ١٠٦ .

(٢) راجع صفحة ١٣٠٢ و ١٣٠٣ من هذا الكتاب .

(٣) راجع تقرير سمبسون صفحة ٨١ .

تصبح وقفا على اليهود ، غير قابل الانتقال الى الابد (١) . ولذا لا امل للعربي مهما كان الثمن الذي يدفعه ، ان يسترجع اراضيه . وفضلا عن ذلك فان العربي اصبح محروما الى الابد من الاشتغال في الارض التي كانت ملكه او ملك قومه . لان الصهيونية تحرم على جميع اليهود استخدام العرب في اعمالهم الزراعية او غيرها (٢) . ولكيما تتأكد الصهيونية من تنفيذ سياستها هذه، فان جمعياتها تضع شروطا صارمة في عقد الاجار على مستأجري الاراضي من اليهود ، لارغامهم على عدم استخدام العمال العرب ، وتضمن بموجبها انتقال الحق ، الذي يخوله عقد الاجار ، الى اليهود فحسب .

جاء في عقد اجار « الكارن كايمت » ، اي صندوق رأس المال القومي اليهودي ما يلي :

« ... يتعهد المستأجر بان يجري جميع الاشغال المختصة بفلاحة الارض وزراعتها بواسطة عمالا من اليهود فقط . واذا خالف المستأجر هذا الشرط بان استخدم عمالا من غير اليهود فانه يدفع عشرة جنيهات فلسطينية عن كل مخالفة ، ويعتبر استخدام عمال من غير اليهود دليلا قاطعا على الاخلال بهذا العقد، وعلى قيمة التعويضات الواجب دفعها لصندوق رأس المال القومي دون حاجة الى اخطار المستأجر بواسطة كاتب العدل او تبليغه اي اخطار آخر . واذا خالف المستأجر احكام هذه المادة ثلاث مرات فيحق لصندوق رأس المال القومي اليهودي ان يسترد الملك المؤجر دون ان يدفع للمستأجر اي تعويض كان » .

(١) جاء في دستور الوكالة اليهودية الموقع في زوريخ في ١٤ اغسطس (آب) ١٩٢٩ ما يلي: « تمتلك الاراضي كملك لليهود طبقا لاحكام المادة العاشرة من هذا العقد ، وتسجل الاراضي المشتراة باسم صندوق رأس المال القومي اليهودي ، وتبقى مسجلة باسمه الى الابد كي تظل هذه الاملاك ملكا للامة اليهودية ، غير قابل الانتقال » تقرير سمبسون صفحة ٧٨ .

(٢) جاء في دستور الوكالة اليهودية ما يلي : « تنشط الوكالة الاستعمار الزراعي بواسطة العامل اليهودي ، والمبدأ العام الذي يتبع في جميع الاشغال او المشاريع التي تقوم بها الوكالة ، او تنشطها هو استخدام العمال اليهود » . تقرير سمبسون ، صفحة ٧٩ .

« ويشترط عقد الايجار ايضاً ان لا يستلم الارض احد من غير اليهود . فاذا توفى المستأجر اليهودي ، ولم يكن وريثه يهوديا فيحق للصندوق ان يسترد الارض بشرط ان يعطي الوارث مهلة ثلاثة اشهر قبل الاسترداد، ويشترط على الوارث في هذه المدة ان ينقل حقوقه فى الارض الى يهودي،والا يسترد الصندوق الارض دون ان يكون للوارث اي حق بالاعتراض » (١)

وورد فى عقود المقاولات التي تعقدها « الكارنهايسود » ، الى الصندوق التأسيسي اليهودي بشأن السلفيات التى تعطى لرجال المستعمرات اليهودية الواقعة في السهل الساحلى ما يلي :

« يتعهد المستعمر ... بان يقيم فى الارض الزراعية ، وان يقوم بذاته او بمساعدة عائلته بجميع اشغال الفلاحة اللازمة في مزرعته،ويتعهد ايضا بان يستأجر عمالا من اليهود فقط اذا اوكلما اضطر لاستخدام عمال » (٢)

وتربط الهيئات الصهيونية ايضا افراد المستعمرات التى فى مرج ابن عامر بعقود مماثلة للعقود المار ذكرها .

فهذه الشروط ، ومقاطعتهم للعمال العرب فى جميع اعمالهم ، تكشف القناع بجلاء عن السياسة الصهيونية نحو العرب... ومع ذلك فالصهيونيون يجرأون، دون وجل ولا حياء ، على القول بانهم افادوا العرب ، وانهم لايودون الاخيرهم وسعادتهم ، وانهم يشغلونهم فى مستعمراتهم ومصانعهم ! ...

وسياسة الصهيونية نحو المزارعين العرب ، مخالفة تمام المخالفة للمادة السادسة من صك الانتداب ... (٣) .

(١) تقرير سمبسون صفحة ٧٩ .
(٢) تقرير سمبسون صفحة ٨٠ .
(٣) راجع تقرير سمبسون ، صفحة ٨٢ والكتاب الابيض ١٩٣٠ ، فقرة ٢٠ .
وجاء في تقرير سمبسون صفحة ٨٣ « ان الحالة الحاضرة التى ترمي الى استثناء العرب من الاستخدام في المستعمرات اليهودية، ليست بالحالة المرغوب فيها من وجهتي العدالة وحسن نظام

وانتقال الاراضي الى الصهيونيين لا يسبب اخطاراً اقتصادية فحسب، بل يسبب اخطاراً اجتماعية ، وخيمة العواقب: يشكل الفلاحون الذين اخرجوا من الاراضي التي كانوا يفلحونها ، طبقة عظيمة من السكان لا ارض لها ، كانت نسبتها عام ١٩٣٠ ٢٩،٤ في المائة من مجموع الفلاحين . « فاذا استمرت عملية اخراج الفلاحين ، على هذه الحال ، يصبح الفلاحون في الثلاثين سنة المقبلة معدمين من الارض » (١) .

وفي الواقع ، فان هذه الطبقة الجديدة التي لا ارض لها ، لا تستطيع ان تجد لها عملا في البلاد : لا تستطيع ان تجد ارضا تعمل فيها ، لانه ليس في البلاد ارض خالية ، ولان الصهيونية لا تشغلها في اراضيها . ولا تتمكن من ايجاد عمل في المصانع او غيرها ، لان الصهيونية قد قبضت على موارد الثروة والاعمال في البلاد ، وهي لا تشغل العمال العرب . وايجاد طبقة من الاهالي لا ارض لها ولا عمل من اشد الاخطار الاجتماعية . « ونظن انه ليس هناك ريب في ان الاستمرار ، بل الاسراع ، في عملية تنجلي عن ايجاد طبقة كبيرة من الاهالي مستاءة وبلا اراض، هو امر مفعم بالخطر الشديد لهذه البلاد . فان سلم معنا بان تحويل فئات كبيرة من اولئك المزارعين الى طبقة لا ارض لها ، ليس فقط غير مرغوب فيه بحد ذاته ، بل سببا يحتمل ان يفضي الى الاضطرابات» (٣).

الحكم في البلاد . وما دامت هذه الشروط باقية في دستور الجمعية الصهيونية ، وفي عقود الايجار التي تعقدها « الكارن كايمت» ، وفي مقاولات « الكارن هايسود » فلا يسوغ ان يعتبر انتقال مساحات كبيرة من الاراضي الى صندوق رأس المال القومي اليهودي من الامور المرغوب فيها .

وانه لمن المستحيل ان ينظر بعين التسامح الى توسيع هذه المنطقة المستقلة في فلسطين التي استثنى منها جميع العرب . ان الشعب العربي قد اخذ ينظر بعين الفزع والخوف الى انتقال الاراضي الى الايدي الصهيونية . ولا يجوز اعتبار هذا الفزع والخوف بلا اساس في نور السياسة الصهيونية التي اتيت على وصفها لما تقدم ».

(١) تقرير فرنش فقرة ٧١ صفحة ٣٣ . راجع ايضا فقرة ٨ صفحة ٥ من التقرير عينه وفقرة ٧٠ ، صفحة ٢ و٣ من التقرير الاضافي .

(٢) تقرير لجنة شو صفحة ١٦٣ .

٥

موقف الحكومة

رأت الحكومة بوضوح الخطر الناجم من استيلاء الصهيونية على اراضي المزارعين العرب واقصاءهم عنها . وسمعت اصوات الاحتجاجات الشديدة ، وشعرت بالتذمر العظيم من جميع طبقات الشعب . فعكفت على تخدير الأعصاب بوضع قوانين ، تقول ان الغاية منها حماية المزارعين . وفي الواقع انه لم يكن لتلك القوانين اي مفعول (١) . بل على عكس ذلك فانها كانت تشجع بصورة غير مباشرة خروج المزارع المستأجر من الارض التي يعتاش من عمله فيها . لانها لا تؤمن له غير تعويض مالي زهيد . . و « مجرد وضع نص يقضي بدفع تعويض نقدي للمزارع قد يشجعه على الخروج من الارض » (٢) ، اذ الفلاح بسيط ولا ينظر بعيداً . ولا غرابة ان تكون « قوانين حماية المزارعين » ترمي الى هذه الغاية ، لان واضعها ، حتى عام ١٩٣١ ، كان الداعية الصهيوني الكبير مستر بلتويش ، الذي شغل منصب النائب العام حتى ذلك التاريخ ، ولا يزال له نفوذ كبير في الدوائر الرسمية في فلسطين …

وقد طالبت اللجان والخبراء ، الذين درسوا حالة فلسطين حق الدرس ،

---

(١) « ومما يدعو لدهشتنا ان تكون قد مرت هذه المدة (١٩٢٩–١٩٣١) الطويلة قبل ان يبذل اي مجهود لتعديل تشريع ثبت انه لا يفي بالغاية المتوخاة منه . فان قانون ١٩٢٩ يخول المزارعين الذين يخرجون من اراضيهم حقوقاً تختلف عن الحقوق التي يخولهم اياها قانون ١٩٣٢ ، غير ان القانون الجديد لا يحتوي على نص يؤمن للذين يخرجون من الارض . « مساحات كافية لاعالتهم وعائلاتهم » ، وبعبارة اخرى ليس من المحتمل ان يؤدي هذا القانون الى تخفيض عدد اولئك الذين يصبحون بلا ارض ، او الذين يخرجون من الارض من جراء شراء الاراضي ، التي يعتمدون الآن في معيشتهم عليها ، دون علمهم » . تقرير لجنة شو صفحة ١٠٤ . راجع ايضاً التقرير ذاته صفحة ١٥٠ — ١٥٤ . وفقره ٧٦٠ صفحة ٢٧٤ من تقرير فرنش الاضافي .

(٢) تقرير لجنة شو صفحة ١٦٣ .

الحكومة بحماية حقوق المزارعين ، وابانوا ان الوسيلة الوحيدة هي ايقاف بيوع الاراضي الى الصهيونيين ، او على الاقل ، تأمين كل مزارع عربي على حد ادنى من الارض كاف لاعالته . ويقول في هذا الصدد مستر فرنش ، الخبير الكبير بشؤون الاراضي ، انه من الضروري « ان تجعل قطعة معلومة من ارض المزارع غير قابلة الانتقال او الفراغ ... ولو كانت (هذه) الحماية ... مؤمنة فيما مضى ، او لو امنت الآن ، لما جابهتنا مشكلة العرب الذين بلا ارض على الاطلاق » (١). « فمن الواضح انه لا مفر من ايجاد طريقة اخرى لوقاية المزارعين الحاليين ووضع بعض القيود على انتقال الاراضي » (٢) ، ان رامت الحكومة اجراء العدالة والقيام بواجبها.

ورغم ان الخطر من انتقال الاراضي من العرب الى الصهيونيين خطر واقعي ، ورغم صراحة تواصي اللجان والخبراء ، فان حكومة فلسطين ، لم تقيد بيع الاراضي ، ولم تحم الفلاح حماية فعلية . وكل ما قامت به انها سنت عام ١٩٣٣ قانونا ، دعته « قانون حماية المزارعين » ، كانت نتيجته كنتيجة القوانين التي سبقته ، والتي اظهرت التقارير الرسمية عدم وقايتها للفلاح مطلقاً..

وشعرت حكومة جلالته بالخطر الذي يهدد العرب من جهة ، وفلسطين عامة من جهة ثانية ، من وجود طبقة كبيرة من السكان لا ارض لها . فأخذت تدرس طريقة اسكانها في اراض اخرى . و« ان القرار الذي اتخذته الحكومة لاعادة اسكان العرب الذين اخرجوا من الاراضي التي كانوا يزرعونها قبل

(١) تقرير فرنش الاضافي فقره ٧٢ صفحة ٣٩ و ٤٠ . وجاء في فقره ١٢٣ صفحة ٦٥ من التقرير نفسه : « وقد حملني ما اكتسبته من المعرفة الوثيقة لاحوال الجهات الجبلية السابقة الذكر على الاعتقاد بان حالة الفلاحين المقيمين في هذه الجهات ما زالت في تقهقر ، فان النقص في عدم تأمين مزارعي الارياف على البقاء في اراضيهم لمن اصعب العقبات التي تقف حائلا في سبيل تقدمهم . وهذا النقص يمكن تلافيه عن طريق حماية المالك الصغير والمزارع المستأجر من الجلاء عن الارض » . راجع ايضا تقرير فرنش فقرة ٧١ ـ ٧٤ صفحة ٣٣

(٢) تقرير لجنة شو صفحة ١٦٣ وراجع ايضا صفحة ٢١٨

ان اشتراها اليهود ، انما هو بمثابة اعتراف بخطأ قضى على هؤلاء العرب بالخروج، وخطوة في سبيل الرجوع عن هذا الخطأ . ولست فى حاجة للقول ان في ارتكاب مثل هذا الخطأ ثانية مايؤدي الى الوقوع في نفس الحالة التي نحن فيها الآن » (١)

على ان ذلك القرار ، مع الاسف ، لم يخرج الى حيز الوجود. لانه ، عملياً، ليس فى الامكان اسكان الذين اخرجوا من اراضيهم فى اراض اخرى دون ان يتضرر او يخرج اصحاب الاراضي التي يراد اسكانهم فيها ، « اذ ان مقدرة البلاد على الاستيعاب قد بلغت حدها « عام ١٩٣٠ » (٢) . فكان لا فائدة عملية من قرار الحكومة . وليت الحكومة اهتمت بمن لهم اراض، فحالت دون استيلاء الصهيونيين عليها . بل هى بدلا من حمايتهم ،بايقاف انتقال الاراضى الى اليهود ، وضعتهم فى حالات اقتصادية ومالية ارغمتهم على بيع قسم كبير من اراضيهم . فاستولت الصهيونية على ما يزيد عن نصف مليون دنم ، من اخصب الاراضي في البلاد ، منذ عام ١٩٣٠ ، فزادت الطبقة التى لا ارض لها زيادة كبرى ، واشتد بلاؤها ، وعظم خطرها ...

ان حالة هؤلاء البؤساء يرثى لها ، فهم جهلاء وضعفاء ، ولا يستطيعون وحدهم مقاومة قوى الصهيونية الدولية واموالها ، ومن واجب الحكومة فى فلسطين حمايتهم ، اذ قد تعهدت في المادة السادسة من صك الانتداب على ضمان عدم الحاق الضرر بحقوق ووضعية هذا القسم من السكان . غير انها مع الأسف لم تحتفظ بعهدها ،فقطع المزارعون العرب كل امل ورجاء منها.وذهبوا ضحية المال والمطامع الصهيونية من جهة ، وضعف الحكومة المنتدبة ، او اشتراكها فى اثم الصهيونية من جهة ثانية . فلا يجب ،والحالة هذه ، الاستغراب

(١) تقرير فرنش الاضافي ، فقرة ٦١ ، صفحة ٣٣ .
(٢) تقرير لجنة شو ١٦٣ صفحة.

من رؤية هؤلاء المزارعين المسالمين حتى اليوم ، ينهضون فجأة حاملين البنادق ومستعدين للقيام باي عمل ...

* * *

غريبة سياسة الحكومة البريطانية في فلسطين . انها تصر على ترك بيوع الاراضي حرة ، لكي تستولي الصهيونية على ما تريد من الارض المقدسة ،وفي الوقت عينه ، تدعي بأنها جادة في المحافظة على حقوق وكيان العرب !... ولما كانت تقوم الصيحات من جميع انحاء فلسطين ضد المهاجرة اليهودية وبيوع الاراضي، كانت حكومة جلالته تجيب بان المهاجرة وبيوع الاراضي لاتضران بالعرب ، لان حكومة جلالته لن تسمح باستمرار المهاجرة وبيوع الاراضي زيادة على « مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب » .

وجاء عام ١٩٣٠ ، فابانت اللجان الرسمية والخبراء الرسميون ، ان « مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب » بلغت حدها الاقصى ، بل زادت عنه، بدليل وجود فئات عديده من المزارعين العرب بلا اراض ، وجماعات كثيرة من عمال اليهود والعرب بلا عمل ... وامام هذه الحجة القاطعة ، لم تعد حكومة جلالته تستعمل عبارة « مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب » قاعدة لسياستها ، ودليلا على حسن نيتها . غير انها لم تعدل عن سياستها السابقة بل اعلنت انها « ترمي الى زيادة حشد السكان في فلسطين في الحال وفي المستقبل »!!

واتخذت « الزراعة الكثيفة » مبررا لسياستها ، مدعية بانها تحل مشاكل فلسطين ، وتحول دون ايقاع اي ضرر بسكان البلاد ! .

والزراعة الكثيفة « تنطوي على اتباع اساليب ارقى في الزراعة ، اي التخلص من زراعة الحبوب الغذائية الزهيدة القيمة ، واتباع زراعة اربح وهي زراعة الاشجار المثمرة كالبرتقال والموز ، وانتاج الالبان ، وتربية المواشي والطيور وانتاج البيض » (١)

(١) تقرير فرنش فقرة ١٦ ، صفحة ٨ .

لا ادري ان كانت حكومة جلالته قانعة في نجاح هذه السياسة ، ام هي تتخذها مبررا لتقصيرها ، وعدم استطاعتها ايقاف الهجرة ومنع بيوع الاراضي الى اليهود . وعلى كل حال « فان المثل الاعلى يجب ان لا يحجب نظرنا عن الاخطار العظيمة المحيطة بهذه الخطة » (١) ، خطة الزراعة الكثيفة . ان ارادة الحكومة في اتباعها هذه الخطة لا تكفى لنجاحها . بل يتوقف نجاح الزراعة الكثيفة على شيئين :

١ ـ على طبيعة البلاد الزراعية .

٢ ـ على الاسواق الخارجية .

ولنقل مسرعين ان طبيعة الاراضي الزراعية فى فلسطين لا تمكن الزراعة الكثيفة من النجاح . لان نجاحها يتوقف على وجود الماء بكثرة . والماء فى فلسطين قليل ومحدود . « وقد قيل لنا ان التجارب التي اجريت فى مرج ابن عامر دلت على ان ادخال اساليب الزراعة الحديثة يتوقف لدرجة كبرى على وجود المياه بكميات تفوق ما هو متيسر منها الآن ... واننا نرتاب فيما اذا كان يوجد مياه كافية لسقي مساحة كبيرة من السهل الساحلي . اما ان يكون وجود المياه بكميات كافية ، وليس مقدار الارض الميسورة ، هو الشرط الذي يقيد احتمالات توسيع الزراعة فى هذه المنطقة ، فقد ذكره بصراحة احد الخبراء الذين رفعوا تقاريرهم الى لجنة الابحاث الفلسطينية العامة » (٢)

ونظراً لكون الماء محدوداً في فلسطين فان زراعة البرتقال بكثرة يهدد مستقبل البيارات بالجفاف ـ تسقى البيارات في فلسطين بالماء التي تصعده المضخات من جوف الارض . وقد ظهر ان هذا الماء قد خف منذ انتشار البيارات ، انتشارا واسعا فى السهل الساحلي . ويقول الفنيون انه إذا استمرت البيارات بالانتشار ، فانه سيأتي يوم تجف فيه المياه الكائنة في جوف الارض ، فتجف شجرة البرتقال

(١) تقرير فرنش ، فقرة ١٦ صفحة ٨ .

(٢ تقرير لجنة شو صفحة ١٥٩ و١٦٠ .

التي هي ثروة البلاد ، كما حدث ذلك في قسم من كاليفورنيا (١) . وعندها يضطر اصحاب الاراضي الي العودة الى « الزراعة الخفيفة » اي زراعة الحبوب السنوية ، التي لا يمكن ان تمون جميع السكان الذين كانوا يعتاشون من الزراعة الكثيفة ... ويا عظم المصيبة حينئذ التي لا يمكن تخفيفها الا بهجرة كثير من السكان الذين احتشدوا في البلاد اعتماداً على الزراعة الكثيفة .

والاسواق الخارجية عامل اساسي لنجاح الزراعة الكثيفة في فلسطين ، وذلك انه لأجل ان تعود الزراعة الكثيفة على اصحابها بفائدة ، يجب التمكن من اصدار محاصيلها الى الاسواق الخارجية وبيعها بأثمان مربحة . وقد ظهر لنا ان لا رواج لمحصولات فلسطين في هذه الاسواق (٢) . « وقد تساوى الطلب » (عام ١٩٣٠) على برتقال يافا ومحصولات الاثمار في السهل الساحلي ، مع العرض فتحويل مساحات شاسعة في تلك المنطقة الى بيارات قد يؤدي الى ايجاد صعوبات ومشاكل ان لم يكن كارثة اقتصادية » (٣) . وفي الواقع ان انتشار البيارات منذ ذلك التاريخ ادى الى مخاطر عظيمة ... كان اشدها بلاء الخسائر الفادحة التي لحقت بجميع مصدري البرتقال ، من تجار واصحاب بيارات ، هذا العام . ومن جراء هبوط اسعار البرتقال ، اصبحت البيارات الصغيرة لا تعود على اصحابها بفائدة فاضطر بعضهم الى قلع اشجارها ...

ورغم هذه النكبات الاقتصادية ، فان الحكومة البريطانية تدعي ان سياسة الزراعة الكثيفة ، تمكن من حشد السكان دون ايقاع ضرر بأهالي البلاد ! وما سياستها هذه ، سياسة حشد السكان على اساس « الزراعة الكثيفة »

---

(١) راجع تقرير فرنش .
(٢) راجع تقرير فرنش الاضافي ١٩٣٢ فقرة ٤٨ صفحة ٢٣
(٣) تقرير لجنة شو صفحة ١٦١

الاحجاب تتخذه حكومة جلالته لستر ضعفها امام الصهيونية ، وللتمويه على الرأي العام بانها آخذة في تطبيق صك الانتداب دون ان توقع اضراراً باهل البلاد .

والحقيقة التي لا ريب فيها ان لا نجاح للزراعة الكثيفة في فلسطين .وان استمرت الحكومة عليها ، فانها تجلب للبلاد نكبات وكوارث هائلة . لانه لابد وان تهبط اسعار المحصول الزراعي ، ولا يعود المزارعون يجنون فوائد من اعمالهم . فتصبح الخلائق العديدة التي احتشدت فى البلاد دون مرتزق . فيضطرون حينئذ الى ترك اعمالهم الزراعية، والعيش من اعمال اخرى، لايجدونها الا خارج فلسطين ...

* * *

وقصارى القول ، اننا نعتقد الاعتقاد الراسخ ان الاراضى الزراعية في فلسطين قليلة ، ولا تسد حاجة المزارعين الذين يعملون فيها . ومعنى استيلاء الصهيونية على الاراضي العربية ، اقصاء العرب عن اراضيهم ، ثم عن وطنهم ... وان لم تغير الحكومة البريطانية سياسة « ترك الامور تسير على اعنتها » فتأويل ذلك احد اثنين ، وكلاهما غير مشرف لها : الخضوع امام المطالب الصهيونية ، او مشاركتها للسياسة الصهيونية . وما نظريتا « مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب » و« الزراعة الكثيفة » الا حجة يراد بها اخفاء الحقيقة ...

فاذا كانت حكومة جلالته تريد القيام بالواجب الذى يلقيه على عاتقها صك الانتداب نحو سكان فلسطين اجمع ، واذا كانت تريد تلافي الاخطار الناجمة عن السياسة التي اتبعتها في مسألة الاراضي ، واذا كانت تريد اجراء العدالة في الارض المقدسة ، فان عليها ، في موضوع الاراضي ، ان تقوم بأمرين :

١ — تمنع انتقال الاراضي العربية الى الصهيونيين . فيطمئن المزارع على مستقبله ، ويعمل بنشاط وسلام في ارضه . « وبالطبع فان المبدأ القائل بعدم

انتقال الارض وفراغها ليس من المبادىء المستحدثة . فهو يطبق في فلسطين الآن على العقارات الوقفية ، وعلى الاراضي العائدة لجمعية رأس المال القومي اليهودي ، وكان معمولا به في انكلترا ، ولا يزال معمولا به في الهند »(١) .

٢ — تفتح بنكا زراعيا ، يقرض المزارع العربي قروضاً مالية لآجال طويلة ، فيتمكن المزارع ، الذي هو في ازمة اقتصادية ومالية شديدتين ، التخلص من تحكم المرابي ، ومن تحسين احواله ...

---

(١) تقرير فرنش الاضافي فقرة ٧٣ ، صفحة ٤٠ .

الفصل الثالث

مسألة المهاجرة

سكن العرب وحدهم فلسطين طيلة القرون الثلاثة عشر الاخيرة . وأخذ اليهودفي المهاجرة اليها ابتداء من اوائل النصف الاخير من القرن التاسع عشر، فبلغ عددهم عند انتهاء الحرب العامة نحو خمسة وخمسين الفا ، اي ٧ في المائة من مجموع السكان .

وكان عدد سكان فلسطين ، بموجب الاحصاء الذي اجرته الحكومة عام ١٩٢٢ للميلاد ، ١٨٢ ، ٧٥٧ نفساً.منهم ٨٣،٧٩٤من اليهود و٣٨٨ ، ٦٧٣ من العرب ، مسلمين ومسيحيين .

ومما لا شك فيه ان العرب في فلسطين كانوا يعدون يومئذ اكثر من هذا العدد . غير ان كثيراً منهم ، ولا سيما من الفلاحين والبدو ، تهربوا من الاشتراك في الاحصاء وتسجيل اسمائهم، خوفا من الخدمة العسكرية ، ولان اللجنة التنفيذية العربية ، كانت ، حتى قبيل موعد الاحصاء بايام قلائل ، توصي الامة بمقاطعته .

ودل احصاء عام ١٩٣٢ على ان نفوس فلسطين ١،٠٣٥،٢٢١ . منهم ٧٩٢ و ١٧٤ من اليهود و٠٠٨ و ٨٦٠ من العرب . ومن الاكيد ايضاً ان العدد الحقيقي للعرب في فلسطين كان حينئذ أكثر من ذلك.ولم يكن الاحصاء وافياً بسبب تهرب كثير من العرب من تسجيل انفسهم، لاسباب مختلفة اهمها الخوف من الخدمة العسكرية .

واخذ اليهود ، منذ ذاك الحين ، يتدفقون على فلسطين ، بجميع الطرق مشروعة كانت او غير مشروعة . ويمكن القول ان عددهم الان في فلسطين

يبلغ نحو ٤٥٠،٠٠٠ . فاصبحت نسبتهم نحو ٣٠ فى المائة من مجموع السكان .

فما هو النظام الذي دخل فلسطين بموجبه هذاالعدد من اليهود ؟ الم تتجاوز المهاجرة اليهودية العظيمة مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب ؟ وهل لم تسبب اضرارا لأهالي البلاد ؟ وما هو الهدف الذي ترمي اليه الصهيونية من اكثار عدد المهاجرين ؟.

١

نظام المهاجرة وتدفق اليهود

وقانون المهاجرة في فلسطين كبقية القوانين فيها ، عرضة للتحوير والتبديل، سيرا مع الظروف والمصالح الصهيونية ...

يقسم المهاجرون حسب القانون المعمول به الى ثلاثة انواع رئيسية :

فالنوع الاول هم المهاجرون من ذوي « الوسائل المستقلة » : ويشمل المهاجر الذي في حيازته الف جنيه « وكان المبلغ المفروض قبلا ٥٠٠ جنيه » ، وذوي المهن الحرة الذين يملكون ما لا يقل عن ٥٠٠ جنيه ، والصناع الماهرون الذين يملكون ٢٥٠ جنيها على الاقل ، والاشخاص الذين لهم ايراد لا يقل عن ٤ جنيهات في الشهر .

والنوع الثاني هم المهاجرون الذين يعتمدون في معيشتهم، بعد وصولهم فلسطين، على احد السكان المقيمين فيها . ويشمل ذلك الاشخاص الذين لهم اهل في البلاد، والأيتام القادمين الى ملاجيء في فلسطين ، والرجال والنساء الذين يتعاطون الاعمال الدينية ، واخيرا الطلاب .

والنوع الثالث هم العمال الذين يؤمون فلسطين للعمل فيها .

وابواب المهاجرة مفتوحة على مصراعيها للمهاجرين من النوع الاول دون ادنى مراقبة ولا تحديد . ويكفي للمهاجرين من النوع الثاني ابراز أوراق

تقنع الحكومه بان طالب المهاجرة الى فلسطين هو من افراد النوع الثاني ، وعدد المهاجرين من هذا النوع غير محدود ايضاً . وسنرى فيما يلي ان كثيرين من افراد هذين النوعين ، يندفعون الى سوق العمال العادين، عندما يدخلون فلسطين.

والحكومة لا تحدد الا عدد المهاجرين من النوع الثالث ، اي العمال الذين ليس لهم وسائل لكسب العيش في فلسطين غير العمل . وتحديد المهاجره لهؤلاء العمال لا يقوم في الواقع على قاعدة « مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب » كما سنرى فيما يلي . اما الاصول المتبعة في تعين العدد المسموح له بدخول فلسطين من العمال ، فهي كما يلي :

تقدم الوكالة اليهودية الى الحكومة ، مرتين في السنة ، مذكرة تعين فيها عددا من الرجال والنساء ، تدعي انها في حاجة اليهم للقيام باشغال جديدة خلال الستة الاشهر التالية . وتحول المذكرة الى مدير دائرة المهاجرة فيدرسها ، ثم يرسلها ، مع ملاحظاته ، الى المندوب السامي . والمندوب السامي يقرر عدد شهادات المهاجرة اللازم اصدارها ، او بتعبير آخر عدد المهاجرين من العمال الذين يسمح بدخولهم ، في تلك المدة . ولتقدير عدد تلك الشهادات ، او عدد المهاجرين ، تأخذ الحكومة العدد الذي طلبته الوكالة اليهودية ، وتتخذه اساساً لتقديرها ، وتقرره بعد تخفيضه قليلا. اما ان كانت البلاد، او الاشغال الصهيونية في حاجة حقيقية الى هؤلاء العمال الجدد ، فامر ثانوي ... لان من واجب الحكومة اعطاء شهادات مهاجرة مرتين في كل عام ! واتخذت الوكالة اليهودية قاعدة لها ان تزيد في عدد الشهادات التي تطلبها، فتحصل على العدد الذي ترغب فيه..

ثم يصدر مدير دائرة المهاجرة هذه الشهادات من غير ان يملأ فيها اسماء اشخاص معينين (على بياض) ويبعث بها الى الوكالة اليهودية . وتقوم الوكالة اليهودية بتوزيعها على وكلائها في مختلف البلاد . وترسل الحكومة نسخاً من هذه الشهادات الى القناصل البريطانيين في تلك البلاد ، مع التعليمات بتأشير

الاعتماد على جوازات الاشخاص الذين تسميهم الوكالة اليهودية ، وتوزع عليهم شهادات المهاجرة . ويحق للمتزوجين منهم ان يحصلوا في نفس الوقت على تأشير بالاعتماد لزوجاتهم واولادهم غير البالغين . (١)

وقد ابان الخبير السير جون هوب سمبسون في تقريره القيم ، مساويء اعطاء الوكالة اليهودية شهادات المهاجرة (على بياض) . واظهر بالامثلة كيف انه « دخل البلاد في احوال كثيرة اشخاص لو كانت جميع احوالهم معروفة لما اشر بالاعتماد على جوازاتهم » (٢) . ومن هذه الامثلة العديدة ان مهاجراً عمره (٢٣) عاما ، دخل فلسطين مصحوبا بزوجة عمرها ١٠ سنوات وابنة عمرها ٥ سنوات ! واليك صورة رسالة مؤرخه فى ١٤ ابريل (نيسان)١٩٣٠ بعث بها مهاجر دخل فلسطين وبقي فيها :

« ... وصلت زوجتي الى فلسطين فى ٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٥ مع (أ.ب) بصفتها امرأته ، اذ لم يسمح لها بدخول البلاد بصفتها زوجتي، لانني اتيت هنا كسائح ولم استحصل على اذن يخولني البقاء فى البلاد . ولما كانت امرأتي شديدة الرغبة فى المجيء الي ، وكانت امرأة (ا . ب) مريضة ، وكان (ا . ب) قد استحصل على اذن بادخال امرأته ، جاءت امرأتي وابني بالاستناد الى جواز سفر ذلك الشخص . . . .» (٣)

« ان هذه الرساله تكشف القناع عن مثالين من المخالفات لقانون المهاجرة ، فقد دخل كاتب هذه الرسالة بصفته سائح وبقي فى البلاد دون اذن ، ودخلت زوجته بالاستناد الى شهادة من شهادات المهاجرة بطريق الاحتيال » (٤)

---

(١) راجع تقرير سمبسون صفحة ١٧٥ــ١٧٧ ، وتقرير لجنة شو صفحة ١٣٥ــ١٣٧ .
(٢) تقرير سمبسون صفحة ١٧٧ .
(٣) تقرير سمبسون ١٩٣٠ صفحة ١٧٨ .
(٤) تقرير سمبسون ١٩٣٠ صفحة ١٧٩ .

وقال في هذا الصدد مدير دائرة المهاجرة في فلسطين انه « يظهر ان العادة شائعة ... ان يضاف الى الاشخاص الذين لهم حق الحصول على شهادة المهاجرة، نساء وعائلات اشخاص اخرين، رغبة في التملص من مراقبة الحكومة على جوازات السفر » (١).

ومما لا شك فيه ان وكلاء الوكالة اليهودية عالمون بهذه الحوادث وهم يغضون النظر عنها ، ان لم يشجعوا القيام بها لاكثار عدد المهاجرين . وما اعمالهم واختيارهم للمهاجرين الا تبعاً للتعليمات التي يتلقونها من الوكالة اليهودية « فمن الواضح اذن ان الوكالة اليهودية هي المسؤولة عن جميع هذه الحوادث المخالفة للقانون » (٢).

ورغم الحاح الخبراء بضرورة اشراف الحكومة على المهاجرين ، لتحول دون دخول الذين يمنعهم القانون من الدخول ، فان الاصول المتبعة بقيت على ما هي عليه (٣) ! ولا ادري أكان ذلك تقصيراً وتهاونا من الحكومة ، ام تعمداً ؟! ...

* * *

مكن قانون المهاجرة في فلسطين اليهود من القدوم الى هذه البلاد بكميات عظيمة . ومن الغريب ان نرى مهاجرة اليهود قد زادت منذ التاريخ الذي قرر فيه الخبراء وجوب تحديد المهاجرة ان لم يكن ايقافها ! وتبين الارقام التالية عدد اليهود الذين دخلوا فلسطين « بطرق مشروعة » ابتداء من ١٩١٨ .

التاريخ	العدد
١٩١٨ ـ ١٩٢١	٢٥،٠٠٠ (٤)
١٩٢٢	٧،٨٤٤

(١) تقرير سمبسون ١٩٣٠ صفحة ١٧٨ .
(٢) تقرير سمبسون ١٩٣٠ صفحة ١٧٩ .
(٣) تقرير سمبسون صفحة ١٨٠ ، وملحق « فلسطين وشرق الاردن » ٢٨ نوفمبر ١٩٣٦
(٤) الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ .

التاريخ	العدد
١٩٢٣	٧،٤٢١
١٩٢٤	١٢،٨٥٦
١٩٢٥	٣٣،٨٠١
١٩٢٦	١٣،٠٨١
١٩٢٧	٢،٧١٣
١٩٢٨	٢،١٧٨
١٩٢٩	٥،٢٤٩
١٩٣٠	٤،٩٤٤
١٩٣١	٤،٠٧٥
١٩٣٢	٩،٥٥٣
١٩٣٣	٣٠،٣٢٧
١٩٣٤	٤٢،٣٥٩
١٩٣٥	٦١،٨٥٤
١٩٣٦	٢٩،٧٢٧

ولا تدل هذه الارقام على عدد جميع المهاجرين اليهود الذين دخلوا فلسطين وانما تبين عدد المهاجرين الذين سمحت الحكومة بدخولهم فقط. وبجانب هذه المهاجره الرسمية، يوجد اربعة انواع من المهاجرة: المهاجره غير المسجلة، والمهاجرة غير الرسمية، ومهاجرة الزواج الصوري، والمهاجرة المزورة!

يدخل فلسطين كل عام عدد كبير من اليهود بصفة سياح، ثم يبقى معظمه في البلاد. ولا تنتبه الحكومة الا لعدد قليل منهم لا يكاد يذكر.(١)

والقائمة الاتية ترينا مقدار السياح اليهود الذين دخلوا فلسطين، وعدد

(١) راجع تقرير سمبسون ١٩٣٠ صفحة ١٧٢.

الذين استطاعت الحكومة معرفتهم من الذين بقوا في فلسطين منهم ، مخالفين القانون .(١) مع العلم بأن هناك عدداً اخر من هؤلاء السياح بقوا في البلاد ولم تأخذ الحكومة بهم علما :

التاريخ	السياح اليهود	عدد الذين استوطنوا فلسطين واخذت بهم الحكومة علما
١٩٢٧ــ١٩٢٩		٧،٨٠٠٠ (٢)
١٩٣٣	٢٦،٠٠٢	؟
١٩٣٤	٢٦،٤٠٠	٢،٩٠٧
١٩٣٥	٣٦،١٢٨	٤،٦١٨

ولم يكتف اليهود في مخالفة القانون عن طريق المهاجرة غير المسجلة، بل هم يدخلون فلسطين بكميات عظيمة عن طريق التهريب . ويطلق على هذا النوع من المهاجرة ، المهاجرة غير المشروعة ، ومقدارها غير معلوم بالضبط . على ان المندوب السامي قد صرح في خطاب القاه في مدينة نابلس عام ١٩٣٣ ان المهاجرة غير المشروعة، في ذلك العام، عادلت المهاجرة المشروعة، اي ٣١ الفا !.

ومما يؤسف له ان الحكومة لم تقم باجراءات صارمة لاحباط هذا النوع من المهاجرة ، رغم اشارة الخبير السير هوب سمبسون عليها باعادة ، مثل هؤلاء المهاجرين بعد اكتشافهم ، فورا الى البلاد التي اتوا منها . (٣) وموقفها هذا شجع المهاجرة غير المشروعة وجرأ الصهيونيين على مقاومة البوليس الذي يحاول القاء القبض على احد هؤلاء المهاجرين بالقوة . في صيف عام ١٩٣٢ كنت في فلسطين . وذات مساء ذهبت اسير في شوارع تل ابيب . فرأيت بوليس تحري يقترب من احد اليهود ويحادثه . فتجمهر عليهما اليهود ، واخذوا يصيحون

(١) هذه القائمة من كتاب صادر من دائرة المهاجرة في فلسطين .
(٢) تقرير سمبسون صفحة ١٨٠ والكتاب الابيض ١٩٣٠ ، فقرة ٢٦ .
(٣) تقرير سمبسون صفحة ١٨١ .

بوجه بوليس التحري ، ثم اخذوا في لكمه وضربه . واثناء ذلك اختفى اليهودي الذي كان البوليس يريد القبض عليه . وعلى اصوات الصياح اتى بوليس، وحاول تخليص بوليس التحري فكان نصيبه الضرب ...وفي النهاية جاءت سيارة دائرة الصحة ، وحملت الى المستشفى بوليس التحري ، ملطخاً بدمه... واخذ افراد البوليس الاعتيادي زميلهم في عربة الى بيته ...

وقد اهتم النبيل بيل ، رئيس اللجنة الملكية ، التي اتت عام ١٩٣٦ لدرس احوال فلسطين، بامر المهاجرة غير المشروعة . وناقش مؤنبا ممثل الوكالة اليهودية، وملقيا مسؤولية انتشار المهاجرة غير المشروعة على هذه الوكالة، لانه من واجبها مساعدة الحكومة وتسهيل مهمتها في احباط هذه المهاجرة المخالفة للقانون. فاجاب ممثل الوكالة اليهودية مدافعا ، بانه ليس في امكان الوكالة القيام باي عمل في هذا السبيل ، لان ذلك يغضب الرأي العام اليهودي ويؤلبه عليها !...

واليهود يستعملون جميع الوسائل المخالفة للقانون لدخول فلسطين . فمن طرقهم ايضا ان عددا عظيما من اليهود، من شبان وشابات متجنسين بالجنسية الفلسطينية، يمتهنون حرفة « الزواج الصوري »، بقصد تمكين عدد من اليهود من دخول فلسطين . فيتزوج الفتى والفتاة منهم فتاة او فتى يهودياً موجوداً في الخارج، وبمقتضى هذا الزواج يصبح لهذا الاجنبي البعيد حق دخول البلاد . ومتى دخلوا الارض المقدسة طلقوا ازواجهم ...

ومما يؤسف له ان تقف حكومة فلسطين مربوطة الايدي امام جميع هذه الانواع من المهاجرة اليهودية المخالفة للقانون وللاخلاق، وفي الوقت عينه تمنع كثيراً من العرب الذين ولدوا في فلسطين، وعاشوا خارجها ، من العودة الى وطنهم !...

٢

مبدأ مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب واضرار المهاجرة

تهدئة للافكار العربية ، ومحاولة لازالة خطر المهاجرة اليهودية من اذهان

اهل فلسطين ، صرحت حكومة جلالته في بيان خطتها السياسة في فلسطين الذي اصدره مستر تشرشل عام ١٩٢٢ انه « لا يمكن ان تكون هذه المهاجرة كبيرة الى حد يزيد في اي ظروف كانت على مقدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب مهاجرين جدد اذ ذاك . ومن الضروري ضمان عدم صيرورة المهاجرين عالة على اهالي فلسطين عموما ، وعدم حرمان اية فئة من السكان الحاليين أشغالها »(١) وقبلت الوكالة اليهودية بهذا المبدأ ، واخذت تدعي هي والحكومة بانهما يعملان بموجبه في ادخال المهاجرين الجدد . وجاء الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ مؤيدا هذا المبدأ . (٢)

فهل كانت المهاجرة تسير عمليا حسب مبدأ مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب؟

في العام الذي اعلن فيه هذا المبدأ كان عدد الذين دخلوا الارض المقدسة ٧،٨٤٤ مهاجرا . واخذ عدد المهاجرين بالازياد فوصل عام ١٩٢٥ الى ٣٣،٨٠١ مهاجرا وادعت حينئذ الحكومة والوكالة اليهودية ان هذا العدد من المهاجرين لا يزيد على « مقدرة البلاد الاقتصادية على الا الاستيعاب ».

واظهرت الازمة الاقتصادية التي اجتاحت فلسطين ابتداء من عام ١٩٢٦ واستمرت حتى عام ١٩٢٨ ، خطأ هذا الادعاء . واكد الخبير السير جون كامبل انه « مما لا شك فيه ان الازمة قد نجمت عن زيادة المهاجرين الذين دخلوا فلسطين على مقدرة البلاد على الاستيعاب ...»(٣). ثم عادت حكومة فلسطين

(١) الكتاب الابيض عام ١٩٢٢ ، او الذيل الخامس لتقرير لجنة شو صفحة ٢٦٧ .

(٢) راجع الكتاب الابيض عام ١٩٣٠ ، فقرة ٢٧ .

(٣) Reports of the Experts submitted to the Joint Palestine Survey Commission. صفحة ٤٦٤

والسير جون كامبل هو الثقة المشهود له في مسائل الاستعمار ، والذي قام بالنيابة عن عصبة الامم ، بمشاريع كبيرة لاسكان المهاجرين في اوروبا ، والذي عهدت اليه « لجنة الابحاث العامة المشتركة » ، التي الفتها الجمعية الصهيونية بالاشتراك مع زعماء اليهود غير الصهيونيين في اميركا عام ١٩٢٧ ، في درس الاستعمار اليهودي والاحوال الاقتصادية في فلسطين .

وصرحت في تقريرها السنوي لعام ١٩٢٨ ان « فلسطين لا تزال متألمة ... من عواقب مهاجرة عام ١٩٢٥ التي فاقت عن حاجة البلاد الاقتصادية ... » .

ورغم تلك الحالة الاقتصادية السيئة التي كانت تسود في فلسطين ، ورغم انتشار البطالة بين العمال اليهود والعرب ، فان المؤتمر الصهيوني السادس عشر الذي عقد في زوريخ في يوليو (تموز) واغسطس (آب) ١٩٢٩ ، اتخذ اثني عشر قرارا بشأن مهاجرة اليهود الى فلسطين . حاول فيها اخفاء حقيقة الحال في فلسطين ، وايهام العالم بان الارض المقدسة . في خير عميم وانها في حاجة الى عمال عديدين ! واننا نورد هنا بعض تلك القرارات التي تري اضاليل الصهيونيين الصارخة ، وتدل على ان خطتهم في المهاجرة لا تسير مع المبدأ الذى قبلوا به ، والقائل بان مهاجرة اليهود الى فلسطين يجب ان لا تزيد عن مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب .

« ١- يرحب المؤتمر الصهيوني السادس عشر باستئناف المهاجرة الذي يفسح المجال لمهاجرة متواصلة متزايدة ... ويعرب في الوقت نفسه عن اسفه الشديد لعدم تساوي نطاق المهاجرة لغاية الان مع احتياجات البلاد ... » !

« ٢- ... فلكي يؤمن المؤتمر السادس عشر بتلك الاشغال (اي اشغال الحكومة وغيرها) للعمال اليهود يكلف اللجنة التنفيذية بان تجلب الى البلاد بجميع الوسائل عددا من المهاجرين في الوقت المعين يتناسب مع هذه الاشغال » .

ومما هو جدير بالملاحظة ان الصهيونيين يريدون حصر جميع الاعمال في فلسطين بالعمال اليهود واقصاء العمال العرب عنها ! . وللوصول الى هذه الغاية هم يحضون على ادخال العمال المهاجرين « بجميع الوسائل » مشروعة كانت ام غير مشروعة ! ...

« ٥- يحتج المؤتمر على الصعوبات التي تضعها الحكومة في سبيل مهاجرة

الرأسماليين ...فى هذا الوقت الذى ترتع فيه البلاد فى بحبوحة اقتصادية »(١)!...

وفى العام الذي اصدر فيه المؤتمر الصهيونى قراراته هذه ارسلت حكومة جلالته لجنة برلمانية الى فلسطين لدرس الحالة فيها . ومما قالته ، فى شأن المهاجرة التى حدثت بين ١٩٢٢ و١٩٢٩ ، وكان معدلها ٨٠٠٠ سنويا، « ان ما اوردناه من مقررات مؤتمر زوريخ ، ومن الشهادات التى اديت امامنا ، ومن تقرير السر جون كامبل ، هو فى نظرنا بينة لا نزاع فيها بان المراجع اليهودية انحرفت فيما يتعلق بالمهاجرة ، انحرافا خطيرا ، عن المبدأ الذي قبلت به الجمعية الصهيونية سنة ١٩٢٢ القائل بوجوب تنظيم المهاجرة حسب مقدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب مهاجرين جدد »(٢) . وقد نصحت اللجنة المذكورة « بوجوب اعادة النظر فى النظم الادارية المتبعة لتنظيم المهاجرة بغية منع تكرار المهاجرة الزائدة التى حصلت سنتي ١٩٢٥و١٩٢٦ » (٣).

وجاء رأي الخبيرين السير جون هوب سمبسون ومستر فرنش ، اللذين ارسلا الى فلسطين عامي ١٩٣٠ و١٩٣١ ، لدرس مسألتي الاراضى والمهاجرة ، موافقاً لرأي اللجنة البرلمانية . واصر جميعهم على ان مقدرة البلاد الاقتصادية قد وصلت الى حدها الاعلى وانه لا يمكن اسكان مهاجرين جدد الا باحلالهم محل السكان الحاليين (٤) .

ورغم هذه الحقائق ، فان الصهيونية اخذت تضغط على الحكومة لزيادة عدد المهاجرين ، من جهة ، واخذت تعمل من جهة اخرى « بجميع الوسائل » لادخال مهاجرين جدد الى فلسطين، كما قرر مؤتمر زوريخ. واستعملت الصهيونية

(١) تقرير لجنة شو صفحة ١٣٩و١٤٠ .
(٢) تقرير لجنة شو ، صفحة ١٨٤ ، راجع ايضا صفحة ١٤٧ .
(٣) تقرير لجنة شو صفحة ٢١٧ .
(٤) تقرير لجنة شو صفحة ١٦٣ .

علاوة على المهاجرة غير المسجلة ، والمهاجرة بالتهريب ، والمهاجرة بواسطة الزواج الصوري ، طرقا غير مشروعة اخرى لدخول البلاد ، يمكن تسميتها « بالمهاجرة المزورة » :

فانه لما كانت المهاجرة المحدودة هي مهاجره العمال فحسب ، فقد اخذت الصهيونية فى ادخال العمال اليهود الى فلسطين ، متسترين بصفات النوع الاول او الثاني من المهاجرين ، اي بصفة مهاجرين من ذوي الوسائل المستقلة ، او من الذين يعتمدون فى معيشتهم على احد الذين يقيمون فى فلسطين .

تدفع المؤسسات الصهيونية الى العمال المال المطلوب من المهاجرين ذوي الوسائل المستقلة . ومتى دخل المهاجر فلسطين يعيد هذا المبلغ الى المؤسسة الصهيونية . ثم تستعمله مرة اخرى فى ادخال عمال آخرين. وهكذا يدخل البلاد عمال عديدون بصفة رأسماليين وهم فى الحقيقة لا يملكون شيئا (١)...

وقد ابانت لجنة شو ان صغار المتمولين هؤلاء ، وان كانوا يملكون المبلغ المطلوب حقيقة ، فانهم يستهلكون اموالهم الضئيلة بعد مدة وجيزة من وجودهم فى فلسطين ، فيضطرون الى دخول سوق العمال العاديين .وقد كان دخول عدد عظيم من صغار المتمولين ، الى فلسطين ، سببا رئيسياً فى ازمة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٨ . (٢) وعلى كل حال ، فالمرء لا يستطيع الا التساؤل مستغربا كيف ان حيازة المال ، تكون رخصة لدخول مهاجرين الى فسلطين ، فى حين ان تقرير مدير المالية يؤكد ان استثمار الاموال فى فلسطين يقف عند حد، وان فى البلاد مبلغ ستة عشر مليون جنيه نائمة فى البنوك وليس فى الامكان استثمارها .

ويتعهد كثيرون من المؤسسات الصهيونية والافراد اليهود المقيمين فى فلسطين

---

(١) راجع تقرير مستر ميلز (Mills) (مدير دائرة المهاجرة) عن المهاجرة صفحة ٢٠ .
(٢) راجع تقرير لجنة شو صفحة ١٣٤ و ١٤٧ .

بالقيام بنفقات كثيرين من المهاجرين، ومتى دخل هؤلاء المهاجرون فلسطين يذهبون فورا الى « سوق العمال » ...

فقد دخل فلسطين خلال السنوات الثلاث الاخيرة ١٠٢٠ مهاجرا (٧٥٠ منهم عام ١٩٣٥) ، من نساء ورجال تحت ستار « المهنة الدينية » . واكتفت الادارة بأن اكتشفت ان « عددا عظيما منهم لم يمارس المهنة الدينية » . وفي المدة عينها دخل فلسطين ٤١٤٨ مهاجراً بصفة طلاب ، ثم اخذ القسم الاعظم منهم يشتغل كعمال عاديين (١)... او لم يكن عظم هذا العدد كافياً على الاقل لادخال الشك في صدق ادعائهم ؟...

ولقد اثر ضغط الصهيونية على الحكومة . فان حكومة فلسطين ، مع علمها الجيد ، بان مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب قد جاوزت حدها الاقصى ، سمحت بادخال عدد عظيم من المهاجرين لم يسبق له مثيل . فزادعدد من دخل فلسطين منهم، بصورة شرعية ،عام ١٩٣٣ ، عن ثلاثين الفا . ولما كان عدد المهاجرين بصورة غيرشرعية بلغ نحو ذلك، حسب اعتراف المندوب السامي فقد كان اذن عدد مهاجري ذلك العام يربي عن الستين الفا . وفي عام ١٩٣٤ كان عدد المهاجرة المشروعة وحدها يزيد عن ٤٢ الف مهاجر. اما في عام ١٩٣٥ فبلغ عددها نحو ٦٢ الف مهاجر ! ما عدا الهجرة غير المشروعة ... وتظهر لنا ضخامة هذا العدد بالمقارنة اذا علمنا ان نسبته الى فلسطين كنسبة ثلاثة ملايين ونصف مليون من المهاجرين الاغراب الى انكلترا واسكتلندا وويلز معاً .

وجريا على مبدأ مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب ، سمحت الحكومة عام ١٩٣٢ بادخال نحو اربعة الاف مهاجر فحسب . اما عدد المهاجرين الذين سمحت بادخالهم عامي ١٩٣٤ و١٩٣٥ فكان اكثر من ذلك بعشرة اضعاف في

---

(١) راجع تقرير ميلز عن المهاجرة وانظر Palestine and Transjordan في ٢٢ اغسطس (آب) ١٩٣٦ . وراجع ايضاً تقرير سمبسون صفحة ١٧٢ .

عام ١٩٣٤ وخمسة عشر ضعفاً في عام ١٩٣٥ . فما هو « الكنز الاقتصادى » الذي اكتشف في هاتين السنتين فسمح بفتح الباب لهذه المهاجرة الواسعة !؟

مما لا شك فيه ان هذه المهاجرة لم تكن سائرة مع مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب . ويظهر لنا ذلك : من ميزان التجارة الذي يدل على ان الواردات اصبحت اكثر من اربعة اضعاف الصادرات ، ومن وجود الوف من العمال العاطلين بين اليهود ، فضلا الوف العمال العاطلين بين العرب ، ومن كون عدد الذين تمكنوا من العمل في الزراعة ، من المهاجرين الذين دخلوا فلسطين منذ عام ١٩٣١ ، لم يزد على خمسة في المائة .(١)

ولا يجب الاطالة في بيان ذلك. اذ قد اعترف مستر ميلز في تقريره ، ان المهاجرة الى فلسطين لا تقوم على اساس « مقدرة البلاد الاقتصادية » ، ولكن على مقدار الضغط العنصري عن طريق سياسي (٢) . ومع ذلك فان الدكتور وايزمن يجرؤ على ان يصرح امام اللجنة الملكية بتاريخ ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٦ بان الوكالة اليهودية قد اتبعت بامانة مبدأ مقدرة البلاد الاقصادية على الاستيعاب (٣) !.

* * *

وقد نجم عن هذه المهاجرة الواسعة اضرار عديدة لسكان البلاد، اقتصادية، واجتماعية وسياسية :

أعادت الصهيونية مرارا حجتها بان هذه المهاجرة جلبت للبلاد تقدما ورخاء اقتصاديا . وقال السير هربرت صموئيل في تقريره السنوي عن فلسطين عام ١٩٢٥ ان المهاجرة آتت للبلاد « فوائد لا ريب فيها» . وقد اثبتت التقارير الرسمية ،

---

(١) راجع شهادة مستر ميلز امام اللجنة الملكية . التايمس ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٦
(٢) راجع تقرير مستر ميلز عن المهاجرة ، فقرة ٦٨ و٧٣.
(٣) نشرات الوكالة اليهودية رقم (١) ١٩٣٧ .

كما رأينا اعلاه، انمهاجرةعام١٩٢٥ ،جلبت للبلاد« اضرارا لا ريب فيها» . جلبت لها ازمةاقتصاديةشديدةدامت ثلاث سنوات،واوقفت الاعمال ،وزادت كثيرا فيعدد العمال العاطلين (١) .

اما الصهيونية فتكابر حتى اليوم ، و لا تريد الاعتراف بذلك ! . ويقول زعيمها الدكتور وايزمن ، ان كانت المهاجرة تسبب الازمات في البلاد ، فلم لم ترها فلسطين في السنين الاخيرة ، حيث دخل فلسطين عدد كبير من المهاجرين لم يكن له مثيل ، وحيث الازمةالاقتصادية كانت عالمية؟ وغريب من الدكتور وايزمن ، الرجل الفطن ، ترديد هذا القول ! هو يظن ان العالم لا يعرف سبب ذلك . الامر بسيط . هذه الخلائق العديدة التي دخلت فلسطين مؤخرا تعيش من رأس مالها او من اموال الهبات الخارجية . وهي تبتاع معظم ما تحتاجه من الخارج . فليس بغريب والحالة هذه ، ان تشعر فلسطين برخاء موقت. ولكن بعد قليل ، متى نفد رأس المال ، او قلت الاحسانات ، فياويل سكان البلاد ، ويا شدة الازمة الاقتصادية التي تجتاح الارض المقدسة . وهذه بوادرها قد بانت ، من قلة الاشغال ، وهبوط الاسعار ، وكثرة العمال العاطلين ...

وليس من الغريب ان تسبب المهاجرة اليهودية الى فلسطين ، وهي قائمة على دعائم غير اقتصادية ، بطالة بين العمال ، من يهود وعرب .

ليس في فلسطين احصاء خاص دقيق عن العمال العاطلين . وكل ما نعرفهعن حقيقة هذه الناحية الاجتماعية المهمة ، مستمد اما من اعتراف يفلت من الهيئات الصهيونية ، بين آن وآخر ، عن عدد ما لديها من عمال عاطلين ، واما من تخمين الحكومة . والصهيونية لا تبوح طبعاًبالعدد الحقيقي للعاطلين ، لتنال من الحكومة اكبر عدد ممكن من شهادات المهاجرة ،ولتخفي حقيقة الحال

(١) راجع تقرير لجنة شو ، صفحة ١٣٧ و١٣٨ و١٤٦ .

في فلسطين عن الرأي العام الخارجي ، وتجعله يستمر فى الاعتقاد بان فلسطين بلاد رخاء وهناء ! .

اما عدد العاطلين بين العرب فاكثر بكثير من الرقم الذى تعطيه الحكومة.(١) « ومن يسمع اقوال العمال العرب يتأثر لاحوالهم ويرثي لهم ، فقد كان كثيرون منهم فى الايام السالفة يتمتعون بقسط وافر من البحبوحة والرخاء، فساءت احوالهم فى السنوات الاخيرة » ، « واصبحت البطالة بين العرب في الوقت الحاضر من المظاهر الخطرة فى حياة البلاد الاقتصادية » (٢)

ومما هو جدير بالذكر ان العمال العرب العاطلين ، لا يموتون جوعاً ، رغم عدم وجود مؤسسات رسمية لاسعافهم. وذلك ناجم عن طبيعة الحياة الاجتماعية في الشرق العربي : اذ من عادات العرب ان يسعف القريب قريبه المعوز ، والجار جاره المحتاج .

ومما يؤسف له ان نرى حكومة فلسطين تسمح بدخول مهاجرين جدد بكميات عظيمة ، رغم وجود عدد كبير من العمال العاطلين في البلاد . مع انه « من واجب الحكومة الصريح ، اذا كان هنا لك من بطالة ، سواء بين العرب او اليهود ، ان تمنع المهاجرة ، اذا كانت هذه المهاجرة مما تزيد في البطالة او تحول دون علاجها » (٣) .

وفي بحثنا عن اضرار المهاجرة اراني مضطراً الى ذكر كلمة موجزة عن اضرارها الاجتماعية . هذه الاضرار جد عظيمة ، لا سيما وان لا مراقبة على الحدود تحول دون دخول غير المرغوب فيهم . اذ اخطر المجرمين يدخلون فلسطين بسهولة ، دون ان يهتم احد بشأنهم. وقد ادت المهاجرة الواسعة الى انتشار

---

(١) راجع تقرير لجنة شو صفحة ١٣٨ ، والكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ فقرة ٢٧ ، وخصوصا تقرير مستر ميلز عن المهاجرة ١٩٣٣ ، صفحة ٩٧ ، وتقرير سمبسون صفحة ١٩٠ ـ ١٩٥

(٢) تقرير سمبسون صفحة ١٩٤ ، وهذا القول يصف الحالة الراهنة حق الوصف.

(٣) تقرير سمبسون صفحة ١٩٦ .

الاعمال الجنائية، والسرقات الكبيرة، والاحتيالات المنظمة، والتزوير على انواعه، وتزييف النقود ، والى دخول انواع جديدة من الجرائم لم تكن البلاد تعرفها ... ومراكز هذه الاعمال الأحياء اليهودية ، لا سيما تل ابيب ، التي اطلق عليها اسم « شيكاغو الشرق الادنى » بحق وجدارة .

يغادر اليهودي البلاد الذي هو مضطهد فيها ، ويدخل فلسطين ، معتقداً انه جاء الى بلاده ، وانه فيها الحاكم المطلق والسيد المطاع ، وله الحرية ليفعل ما يشاء ، دون قيد ولا شرط . فلا يحترم عادات ، ولا يأبه لتقاليد ، بل ينظر الى عادات البلاد وتقاليدها بعين الازدراء ، ويطيب له القيام بكل ما يخالفها . ولا عجب في ذلك ، فالدليل متى تسود طغى وتصلف ... ولهذا نرى اليهود يقومون باعمال منافية للاخلاق ، ومثيرة لكل من يفهم معنى الحياء . وان نزهة اثناء ليلة مقمرة من ليالي الصيف ، في احد شواطئهم « بلاج » ، كافية لاقناع كل من يخامره الشك في صحة ذلك...

وهذا الاستهتار بالآدب العامة والنظم الاجتماعية ، ليس مقصوراً على طبقة خاصة من طبقات اليهود . حدث مرة ان محامياً يهوديا دخل المحكمة المركزية بيافا لابساً « بنطلوناً » قصيراً ، وقميصاً مفتوح الصدر قصير الذراعين، ومحتذيا « صندلاً »، فوبخه رئيس المحكمه الانكليزي ، معلماً اياه ان لباسه هذا يعتبر انتهاكا لحرمة المحكمة ...

اما الاخطار السياسية ، وهي اشد اخطار المهاجرة فجلية — كانت المهاجرة اليهودية، ولا تزال، من اكبر اسباب الاضطرابات والثورات في الارض المقدسة...

وبما ان مقدرة البلاد الأقتصادية على الاستيعاب وصلت حدها الاقصى منذ عام ١٩٣٠ ، فلا مكان اذن للمهاجرين اليهود الا باحلالهم مكان العرب، فتنتقل الاراضي العربية الى الايدي الصهيونية ، وفي ذلك ما فيه من الخطر على كيان العرب ، فان من لا ارض له ، لا وطن له .

واذا استمرت المهاجرة على منوالها في السنين الاخيرة ، فسوف لاتمضي خمسة عشر عاما الا واليهود اكثرية في فلسطين. وحينئذ تزول الصبغة العربية من الارض المقدسة ، ويزول كيان العرب منها كاملة ، ويرغمون على الرحيل...

فهل توجد اضرار مادية ومعنوية ، يستطيع شعب ايقاعها بشعب آخر ، اعم من هذه الاضرار ؟.

٣

مقاصد الصهيونية من المهاجرة وواجب الحكومة

قال السير جون كامبل في صدد المهاجرة « قد وجدت ... الاعتقاد سائدا بين كبار الموظفين الحاليين والسابقين الذين لهم علاقة بالحركة الصهيونية ، بان الامر الجزيل الاهمية هو ادخال كل ما في الامكان ادخاله من اليهود الى فلسطين. وتعتقد بعض الدوائر ذات النفوذ ان ادخال جموع من المهاجرين الى فلسطين لا مناص منه للوصول الى النجاح : ويظهر ان الفكرة السائدة هي ان الامور ستصلح ذاتها بذاتها بعد ادخال هذا السيل من المهاجرين ، وان ذكاء ونشاط اليهودي يكفلان له كسب عيشه » (١)

وقال المحامي اليهودي هري ساكر رئيس اللجنة التنفيذية ومستشار الوكالة اليهودية بجرأة امام لجنة شو البرلمانية « ان الامر الذي يهمنا هو انشاء الوطن القومي للشعب اليهودى ... وان تكون هنا لك مهاجرة غير مقيدة باية قيود اصطناعية ... اقول صراحة اننا نأمل ، ان يسفر هذا التدريج الطبيعي عن ايجاد اكثريه يهودية في البلاد » (٢)

وصرح الدكتور وايزمن امام اللجنة الملكية بتاريخ ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني)

(١) تقرير السير جون كامبل صفحة ٦٤ « بالانكليزية »
(٢) تقرير لجنة شو ، صفحة ١٤٢ .

١٩٣٦ ، انه « لا يجوز ان يفهم ان وعد بلفور يعنى ان هجرة اليهود الى فلسطين يجب ان تتقيد بعدد العرب ولا تزيد عليه ...(ان)القصد من انشاء وطن قومي لليهود هو تمكين كل يهودي من العودة الى فلسطين »(١).

فقصد الصهيونية اذن من المهاجرة اليهودية ظاهر وجلي ، وهو الوصول الي هدف سياسي : ايجاد اكثرية ساحقة في الارض المقدسة لتتمكن من : «احياء ارض يهوذا (فلسطين) واعادتها لليهود» (٢)،اي جعل فلسطين مملكة يهودية مأهولة ببني اسرائيل وحدهم .

والصهيونية لا تتبع فى سياستها هذه المبدأ ، الذي جاء في الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢،والقائل بتحديد المهاجرة على مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب، ولا تأبه له ولا تعيره اي اهتمام . وقد رأينا ان قراراتها واعمالها كانت تخالف كل المخالفه هذا المبدأ. ومن التضليل والمغالطة المفضوحين ان يقول الدكتور وايزمن فى شهادته امام اللجنة الملكية « لقد سرنا بحسب نصوص الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢مع انه كان غير ملائم لنا ولم نأت باي عمل مخالف له » ! (٣) ربما يظن الدكتور وايزمن ان القول الذى يخالف الواقع مخالفة واضحة وجلية هو دهاء سياسي !؟

* * *

ومن الاكيد ان خطة الصهيونية في المهاجرة ، التى نفذتها الحكومة هي مخالفة كل المخالفة لصك الانتداب . اذ ان المادة السادسة منه تنص ان « على حكومة فلسطين ، مع ضمان عدم الحاق الضرر بحقوق ووضعية سائر طوائف

---

(١) نشرات الوكالة اليهودية . رقم (١) ١٩٣٧ . صفحة ٣٠.

(٢) هذه الجملة ، حسب رأي الدكتور وايزمن (وبعد تفكير زائد) تفسر المراد من تصريح بلفور . من شهادته امام اللجنة الملكية. نشرات الوكالة اليهودية رقم (١) ١٩٣٧. صفحة ٢٠

(٣) نشرات الوكالة اليهودية ،رقم (١) ١٩٣٧ . صفحة ٣٠ . راجع صفحة ١٧٢ و١٧٣ من هذا الكتاب

الاهالي ، ان تسهل الهجرة اليهودية في احوال وشروط مناسبة » .

وهذه المادة صريحة ومعناها جلي ، وهي تضع على عاتق الحكومة اموراً ثلاثة:

١ — تسهيل المهاجرة اليهودية الى فلسطين .

٢ — ان يكون ذلك في احوال وشروط مناسبة .

٣ — مع ضمان ان لا تلحق تلك المهاجرة الضرر بحقوق ووضعية سائر طوائف الاهالي

فصك الانتداب لا يوجب على الحكومة تحقيق المهاجرة اليهودية الى فلسطين، بل هو يطلب منها تسهيل تلك المهاجرة ، وتسهيلها في احوال وشروط مناسبة فقط . ومتى فقدت تلك الشروط واصبحت الاحوال غير مناسبة وجب على الحكومة ان لا تسهل تلك المهاجرة .

واهم من ذلك ، فان صك الانتداب يعلق تسهيل المهاجرة اليهودية على شرط ان لا تسبب هذه المهاجرة اضراراً بحقوق ووضعية العرب اهل البلاد.
« فمن الواضح اذن انه اذا اسفرت هذه المهاجرة عن حرمان العرب من الحصول على الاشغال اللازمة لاعالتهم ، وجب على الحكومة المنتدبة ، بمقتضى ذلك الصك ، ان تخفض او توقف عند الضرورة، تلك المهاجرة حتى لا تلحق المهاجرة بمصالح العرب ضررا في الحصول على الاشغال » (١)

وقد خالفت الحكومة والصهيونية ، فيما يتعلق بالمهاجرة ، صك الانتداب من جهتين : الاولى ، انه عند اصدار شهادات المهاجرة للعمال ، التي تعد في كل عام مرتين ، لا ينظر بعين الاعتبار الى البطالة بين العرب. وقد اهملت الحكومة شأن العمال العرب ، حتى انها لا تعرف عدد العاطلين بينهم ! ... والجهة الثانية ان الحكومة لم توقف ولم تحدد المهاجرة رغم انه قد ظهر لها من تقارير اللجان والخبراء ، انها قد اوقعت بالعرب وبوضعيتهم اضرارا فادحة .

(١) تقرير سمبسون صفحة ١٩٩، راجع الكتاب الابيض ١٩٣٠ صفحة ٢١ من الطبعة الانكليزية .

على انه لا يجب ان يفوتنا ذكر موقف وزير المستعمرات عام ١٩٣٠، ورغبته في اصلاح الخطأ ،لاعادة السلام في الارض المقدسة. فان اللورد باسفيلد، صرح في الكتاب الابيض الصادر في ذلك العام ، بالعمل بموجب صك الانتداب وأكد انه« لا يمكن ان تكون المهاجرة عظيمة ولا زائدة ،مهما يكن من امر، عن مقدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب مهاجرين جدد وقتئذ » .(١) واصر على انه من الواجب اعتبار العاطلين العرب حين تعيين قوائم مهاجري العمال الجدد ... (٢)

ومما يؤسف له ، ان اللورد باسفيلد لم يستطع تنفيذ قراره . لان الصهيونية ثارت عليه وعلى كتابه الابيض ، وهددت حكومة جلالته ... فتراجع رئيس الوزارة حينئذ ،مستر ماكدونالد، واخذ يتوددها، والغى كتاب اللورد باسفيلد (الكتاب الابيض) الذي هو نتيجة قرار مجلس الوزراء ، بكتاب ارسله الى الدكتور وايزمن يقول فيه « ان حكومة جلالته لم توص ، ولم تفكر في ايقاف اى نوع من انواع المهاجرة اليهودية » .وتلا ذلك تدفق المهاجرة على اختلاف انواعها ، مشروعة وغير مشروعة ...

* * *

قصارى القول ان حالات البلاد من زراعية وصناعية لا تسمح قط باستمرار المهاجرة اليهودية :

ليس في فلسطين اراض زائدة . بل ان الاراضي الزراعية فيها قليلة ولا تسد حاجة السكان. وفي البلاد الوف من العائلات العربية التي كانت تعيش من الاعمال الزراعية ، فاصبحت بدون ارض ولا عمل ...

وان طبيعة الاراضي في فلسطين ، وحالة الاسواق الخارجية ، لا تمكن

(١) الكتاب الابيض ١٩٣٠ . فقرة ٥ (د)، صفحة ٧.
(٢) الكتاب الابيض ١٩٣٠ فقرة ٢٧ - ٢٩ ، صفحة ٢١ و ٢٢

« الزراعة الكثيفة » من ان يكون لها فائدة اقتصادية ، بل ان هذه الزراعة وخيمة العواقب على اهل فلسطين ...

ولم تعد الزراعة في فلسطين على الصهيونية بربح ، وحياة المستعمرات الصهيونية حياة اصطناعية ، تعتمد فى معيشتها على الاعانات ... والصهيونيون يبتعدون عن هذه المهنة غير المربحة. « ونسبة اليهود المشتغلين فى الزراعة قد تناقصت فى السنوات الاخيرة ، بسبب نزوح عدد منهم الى المدن الكبيرة » (١)

وقد قرر رجال خبيرون، ومن بينهم السير جون هوب سمبسون ، بان لا مستقبل للصناعة في فلسطين ، وما امكنت الحياة للمعامل الصهيونية الا بفضل التعريفه الجمركية ، والمساعدات الخارجية ...

واليهود الذين يدخلون فلسطين افواجا افواجا ، يعيشون على رؤوس اموالهم ، او على المساعدات التى ينالونها من المؤسسات الصهيونية . غير انه سيأتي يوم ينفد فيه رأس المال ، وتقف المساعدات . فيالها من ازمة ، ويالها من مجاعة ...

ومنعاً لوقوع هذا البلاء العظيم ، نصحت اللجان الرسمية ، واقترح الخبراء ، واراد اللورد باسفيلد ، ايقاف الهجرة . غير ان ضعف حكومة جلالته امام الصهيونية وخشيتها اياها ، حال دون ايقاف الهجرة وتحديدها ...

ان ايقاف الهجرة واجب وضروري . واجب حسب صك الانتداب ، لان المهاجرة قد اوقعت اضرارا فاحشة بحقوق ووضعية العرب ... وضروري لان المهاجرة قد سببت ازمات ، واضطرابات وثورات . وسوف لا يعود الهناء والرخاء والسلام الى الارض المقدسة ، ما دامت المهاجرة مستمرة ...

فالواجب يقضي على الحكومة المنتدبة ، والعدل يسألها ، والسلام يناشدها ، ايقاف الهجرة اليهودية عن فلسطين .

فهل لدى حكومة جلالته الجرأة الكافية لتلبية هذه الاصوات ؟...

(١) من شهادة الدكتور وايز من امام اللجنه الملكية . نشرات الوكالة اليهودية رقم (١) ١٩٣٧ صفحة ٣٤

الفصل الرابع

هل افاد الصهيونيون العرب ؟.

جعل الصهيونيون يضللون الرأي العام بادعاءآت كثيرة منها انهم قدعادوا على سكان البلاد بفوائد جمة . فهل واقع الحال يتفق مع هذه الادعاءآت ؟

وليست القضية الفلسطينية قضية ارباح وخسائر مالية ، ان هي الا قضية سياسية صرفة . فالعرب يحاربون الصهيونية لأنها خطر على كيانهم ، تريد اخراجهم من بلادهم لتجعل منها مملكة خاصة ببني اسرائيل .

وامام صلابة العرب القومية ، اخذ بعض رجالات الصهيونية ، يحرضون الرأي العام الغربي على العرب ، ويتهمونهم بالهمجية وبكره المدنية !.

فهل تاريخ الشعوب والمدنيات يؤيد هذا الادعاء ؟ .

١

ادعاءات الصهيونية

لا تمل الدعاية الصهيونية من ترديد القول بأنها تستخدم عمالا من العرب عديدين. وتؤكد انها لم توقع بالمزارع العربي اي ضرر ، اذ هي تستولي على اراضي الحكومة فحسب ، وتعمر الاراضي المتروكه ، والتي تغمرها المياه . وتجزم بأنها قد افادت المزارعين ، متخذة دليلا على صدق قولها ، انتشار « البيارات» العربية . وهي تدعي ايضاً بان اعمالها « قد عادت بطريقة غير مباشرة بالبركة والخير على سكان فلسطين اجمع » (١)

(١) شهادة الدكتور وايزمن امام اللجنة الملكية . نشرات الوكالة اليهودية رقم (١) صفحة ٢٣ .

كل هذه الاقوال ما هي الا اضاليل تريـد بهـا الصهيونية الظهور بمظهر انساني لتربح عطف الرأي العام عليها ، فتتمكن من بناء « المملكة اليهودية » بسرعة وهدوء .

والرأي العام الغربي يصدق هذه الاقوال ، لعدم وقوفه على حقيقة الحال في فلسطين . ولكنه متى اطلع على الحقيقة ظهر له جليا ان ما يبديه الصهيونيون من العطف على العرب،والرغبة في العمل معهم، ليس من الصدق في شيء .

وقد رأينا كيف ان الصهيونيين حرموا على جميع اليهود تشغيل العامل العربي في جميع اشغالهم ، زراعية كانت ام صناعية . وكيف انهم وضعوا عقابات صارمة على الذين يشذون عن هذا المبدأ . وليحول الصهيونيون بين العربي والعمل اليهودى بالقوة ، اسسوا « الحاميات اليهودية » (١) ...

ويظهر لنا بجلاء عدم مبالاة الصهيونية بشأن العامل العربي ، وعدم مبالاتها بالاضرار التي تلحقها به المهاجرة اليهودية، من قول اللجنة التنفيذية لنقابة العمال في كتابها الذي بعثت به الى السير جون سمبسون :« اننا نعارض فى وضع اية قيود على المهاجرة لا تبنى على ما هو ميسور من ابواب العمل والاستخدام ، بل على اعتبارات سياسية واقتصادية خارجة عن نطاق المجهودات اليهودية »(٢) وقال بصراحة احد اعضاء تلك اللجنة للخبير الانكليزى : « اننا لن نشرع في العمل اذا كنا مرغمين على تشغيل العمال العرب » (٣) .

اما ادعاء الصهيونية بأنها لم تلحق بالمزارع العربي اضرارا ، فقائم على غير اساس . اذ قد رأينا ، في بحثنا عن « مشكلة الاراضى » ، ان لم يبق لدى الحكومة

---

(١) راجع صفحة ١١٨ــ ١٢٠ وصفحة ١١٨و١١٩ من هذا الكتاب.
(٢) تقرير سمبسون ، صفحة ١٨٤ .
(٣) تقرير سمبسون ، صفحة ١٩٦ .

اراض تستطيع تقديمها الى الصهيونية . وان ليس في البلاد اراض زائدة ، وان الاراضي الزراعية التي كانت في يد العرب حتى عام ١٩٣٠ لا تسد حاجتهم الضرورية. وقد ثبت ان استيلاء اليهود على الاراضي العربية قد اوجد في البلاد طبقة من المزارعين لا ارض لها ولا عمل . وفي ذلك ما فيه من الاضرار الفاحشة على العرب ، والاخطار العظيمة على السلام في البلاد ...

وليس لقدوم اليهود الى فلسطين ادنى فضل في انتشار « البيارات » العربية (بساتين البرتقال) . فالعرب هم الذين بدأوا زراعة البرتقال في فلسطين، وذلك قبل مجيء اليهود بسنين عديدة . واخذت هذه الزراعة تنتشر انتشارا عظيما قبل الحرب ، واستمر العرب في توسيعها بعد الحرب . فانتشار البيارات العربية امر طبيعي ، وليس له علاقة بالصهيونية .

ومما يؤسف له ان الظواهر المادية ، التي تبهر ابصار الذين لا ينظرون الى بعيد ، اثرت على قسم من شباب العرب ، وجعلتهم يعتقدون بما تقوله الصهيونية ! جعلتهم يقولون معها بان اليهود قد « مدنوا » البلاد وجلبوا اليها الرخاء !:

وقد وصلت الحضارة الاوروبية الى الشرق الادنى قبل الحرب بسنين، واخذت امم هذا الشرق في اقتباس الحياة الاوروبية ، والنهل من علوم الغرب .فتقدمت مصر في هذا السبيل تقدما كبيراً ، وسارت سوريا في هذا المضمار شوطا بعيداً. وها هي القاهرة والاسكندرية في مصر ، وبيروت في سوريا لا تقل عن المدن الغربية في رونقها ، وجمالها ، وحسن تخطيطها . وفي استطاعة الغربي ان يجد فيها كل مظاهر المدن الراقية التي الفها . وقد وصلت هذه المدن الى ما وصلت اليه دون ان يكون لليهود في ذلك يد او فضل .

وفلسطين كغيرها من مدن هذا الشرق . عرفت المدنية الغربية قبل مجيء

اليهود اليها ، وكانت سائرة في اقتباسها . ولو لم يجيء اليهود لتقدم العمران فيها بدونهم ، كما تقدم في غيرها من البلاد العربية . وكل ما قام به اليهود هو تعجيل هذا التقدم العمراني فحسب . لان الضرورة قضت عليهم بذلك. اما حياة الشعب الاجتماعية والعلمية ، فما زالت تسير بالسرعة التي كانت تسير عليها لو لم يأت اليهود الى فلسطين . على ان للهجرة اليهودية ،في هذا المضمار نتيجة واحدة: كثرة السيارات الخصوصية ، وتخنث قسم من الشباب ...

اما الرخاء ، فقد رأينا انه اصطناعي وموقت، وستحل مكانه ازمة اقتصادية شديدة ، تكون كارثة لجميع السكان .

ثم ما هي الفوائد التي عاد بها الرخاء الصهيوني على العرب ؟ . اهي تلك الاموال التي دفعتها الصهيونية للمزارعين واصحاب الاراضي ثمنا لاراضيهم التي استولت عليها ؟.

المال ، بحد ذاته ، ليس بثروة ولا فائدة دائمة منه ان لم يعد على صاحبه بدخل . الاموال في فلسطين كثيرة ، ولكن حقل استثمارها ضيق ومحدود. وليس في امكان العربي في فلسطين الا ان يكون مزارعا او تاجرا . وطبيعي ان لا يستطيع المزارع ، الذي باع ارضه ،النجاح في التجارة لعدم خبرته واهليته، ولمضاربة التجارة اليهودية ، بطرقها المعروفة، للتجارة العربية في البلاد . وهو على العموم ،لم يبع ارضه ليشتري ارضاً اخرى. وان ابتاع ارضا اخرى فمن مزارع عربي آخر ، لان اراضي الصهيونيين وقف على الامة اليهودية. فينتقل حينئذ الضرر الذي كان سيحل به الى الذي باعه ارضه . وفي نهاية الامر فان المزارع يأخذ في العيش من رأس ماله ، الذي يعود قسم كبير منه ، بطرق متنوعة، الى اليهود . ويرفع مستوى معيشته ، ويعتاد الراحة « وتوابعها » فتنحط اخلاقه . ويأتي اليوم الذي يرى فيه ان ماله قد نفد ، وان لا ملك له، وتصبح حالته اشد بؤسا من الحالة التي كان عليها من قبل . فيسعى وراء العمل ، وعبثا

يحاول طرق الابواب اذ لا احد يشغله ... ولا احد يأبه بسوءحاله وشقائه، ولا احد يساعده على الخروج من الهوة التى وقع فيها ... فيدب اليأس فى نفسه ويثور ، فيصبح شديد الخطر على السلام في البلاد ...

وفى الواقع لم تفد الصهيو نية غير فريق خاص من العرب ، وافراده قلائل، وهم : بضع عائلات ، اكثرها من خارج فلسطين، كانت تملك اراضي واسعة فباعتها لليهود . « والسماسرة » الذين اثروا على حساب الشعب ، وبايقاع الضرر به وبالقضية العربية الفلسطينية . فالفائدة اذن محدودة ومحصورة ، وهي لا تتناسب مع الاضرار العظيمة التي لحقت من جرائها بالامة ...

ومن الاكيد ان العرب كمجموع لم يستفيدوا قط من الاعمال والمشاريع الصهيو نية، كما انها لم تكن سببا لاتساع نطاق الاعمال عندهم. ولا يكون في البلاد رخاء اقتصادي اذا لم يستفد منه جميع السكان . ولذا فانه ليس من الصواب وليس من علم الاقتصاد فى شيء ، القول بان فلسطين فى رخاء عظيم، ما دامت طائفة واحدة من السكان ، وهى الاقلية ، فى بحبوحة من العيش ، لا سيما وان ذلك ليس بناجم عن موارد البلاد الاقتصادية ، بل عن اعانات ومساعدات تأتيهم من الخارج .

ليس هناك من يهودي ولا صهيوني لا يقول بان مجيء اليهود الى الارض المقدسة قد افاد اقتصاديا فلسطين كثيراً . وهم بقولهم هذا يفرقون بين البلاد وسكانها . فعندما يتكلم اقتصادي عن بلاد ما وما اصابها من فائدة ورخاء، يعني بذلك الفائدة والرخاء اللتين عادتا على مجموع سكان تلك البلاد . فالفائدة

والرخاء لا يكونان فائدة ورخاء للبلاد اذا لم يعودا على اصحاب تلك البلاد .

واذن لم يجلب اليهود الى فلسطين الرخاء ، وكل ما هنالك انهم استفادوا من فلسطين. اتوا البلاد واستولوا على موارد الثروة فيها، واستثمروها لحسابهم ولفائدتهم فحسب.

ومن الجلي انه لولا المهاجرة اليهودية لما حرم العرب من موارد الثروة في

بلادهم . ومن هذه الناحية ايضاً فان الصهيونية اضرت بهم كثيراً ...

ويدعي اليهود بانهم قد رفعوا مستوى المعيشة في فلسطين الى المستوى الاوروبي . ويعدون ذلك فضلا لهم على العرب. واليهود في الواقع يمزجون بين مستوى المعيشة وغلاء المعيشة . هم لم يرفعوا مستوى معيشة السكان العرب وانما رفعوا « ثمن المعيشة » ، اي جعلوا المعيشة غالية ، الى ماهي عليه في اغلاء البلاد الاوروبية . في حين ان دخل العرب ، وخصيصا طبقة العمال والفلاحين وصغار الملاكين والموظفين ، وهم يكادون يؤلفون مجموع السكان العرب ، لم يرتفع الا قليلا ، وبقدر لا يتناسب مع ارتفاع غلاء المعيشة . فنجم من ذلك ، اي من غلاء المعيشة وعدم ارتفاع الدخل ، انحطاط في مستوى معيشة اكثرية العرب الساحقة . فمجيء اليهود اذن الى فلسطين لم يرفع مستوى معيشة العرب وانما ادى الى انحطاطها ...

وكل هذا لم يمنع الدكتور وايزمن من التصريح امام اللجنة الملكية في ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٦ ، بان اعمال الصهيونية قد عادت بالبركة والخير على جميع سكان فلسطين ! ...

وعلى كل حال فلا يجب ان يغيب عن الفكر بان القضية الفلسطينية ، قضية سياسية اولا واخيرا ، لا اهمية للمسائل الاقتصادية بجانبها .

٢

قضية فلسطين قضية سياسية

ان النضال بين العرب واليهود نضال سياسي صرف . ليس هو بالنضال الاقتصادي ، وليس هو بالنضال الجنسي ، وليس هو بالنضال الديني ، كما تريد ان تصوره الصهيونية ، وبعض الصحف البريطانية .

تهاجم الصهيونية فلسطين واهلها ، بكل ما لديها من قوة ، وتريد استخلاصها

منهم واخراجهم منها ، وانشاء مملكة يهودية فيها،خاصة ببني اسرائيل .والعرب يحبون وطنهم ، ويقدسون فلسطين ، ويريدون ان يناضلوا في سبيل بقائها عربية لهم ، مهما كان ثمن ذلك . هذه هي القضية الفلسطينية ، وما النضال الاقتصادي الا وسيلة يتخذه كل من الطرفين للوصول الى غايته السياسية .

ماذا يفعل الفرنسيون اذا رأوا ان المانيا تريد شراء اراضي « الالزاس واللورين » من الملاكين بأثمان مرتفعة جدا لتحل مكانهم ملاكين ومزارعين من الالمان ، حتى تصطبغ البلاد بالصبغة الالمانية وتنسلخ عن فرنسا ؟ كل يعرف ما يكون موقف الفرنسيين امام ذلك ...

وما قول الشعب البريطاني اذا قيل له ان شعباً غنياً يريد شراء اراضي «ويلس» بأثمان مرتفعة ، فيقطنها ويحسن زراعتها واقتصادياتها تحسيناً جيدا ، على شرط ان يحق له الاستيلاء على جميع مواردها الاقتصادية ،وتغيير عاداتها واخلاقها القومية ، ويصبح فيها وحده الحاكم المطلق ؟...

مما لا ريب فيه ان ليس فى الدنيا شعب يبيع وطنه ، مهما كان مبلغ الثمن الذي يدفع له .

* * *

وللتغلب على قوة العرب وصلابتهم الوطنية ،اخذت الدعاية الصهيونية تحط من مركزهم التاريخي ، وتشبههم بهنود اميركا الحمر ،وسكان استراليا الاصليين، فهم لا يفقهون المدنية ، ويحولون دون اعمال العمران ،وتقدم الانسانية ... والصهيونيون الذين ينشرون هذا، يطلبون من العالم مساعدتهم والعمل معهم ضد العرب بجميع الوسائل، لتقدم المدنية والانسانية . حتى ولو كان ثمن اعمالهم الانسانية ابادة العرب فى فلسطين ...

يطلب السير روبرت ويلي كوهين R. Waley Cohen فى كتاباته اعتبار مشكلة المهاجرة اليهودية الى فلسطين، لا كالمهاجرة الى « الدومنيوم » (مستعمرات التاج) بالنظر الى سكانها الاوروبيين الحاليين ، بل بالنظر الى السكان الاصليين،

اي بروح الاستعمار في اوائل القرن الثامن عشر (١).

هذا النوع من الدعاية ضد العرب ، يظهر جليا كبرياء اليهود وغطرستهم، وما تكن صدورهم للعرب من بغض وحقد . فكيف يمكن التوفيق بينها وبين ما يدعون من صداقة للعرب؟ هذا التضارب برهان آخر على ان جميع الوسائل، التي توصل الصهيونيين الى هدفهم السياسي، مستطابة ومحمودة .

«وتشبيه العرب بسكان استراليا الاصليين ، او بأهل افريقيا الجنوبية ، او بهنود اميركا، امر لا يقره التاريخ ، وليس من الحكمة السياسية في شيء . ومهما تكن حالة العرب في هذه الايام ، فهم وارثو مدنية من اعظم مدنيات الماضي. والعرب يعلمون ذلك ، وهم فخورون بالدور العظيم الذي لعبوه في تاريخ المدنيات والرقي الانساني . انهم ... هم الذين حملوا شعلة النور في ظلام العصور الوسطى. واوروبا مدينة لهم بديون لا تحصى في الفلسفة ، وفي العلوم ، وفي الفنون وحتى في الادارة » (٢) : ومما لا شك فيه انه عندما سادهم العنصر التركي، واصبحت بلادهم جزءاً من الامبراطورية العثمانية ، رجعوا القهقرى ، ووقعوا في ظلمات الجهل ، وحل بهم الفقر .

غير انهم تيقظوا في اواخر القرن التاسع عشر، فاخذوا يعملون بكل ما اوتوا من قوة لرفع مستواهم الثقافي والاجتماعي ، ولاحياء مجدهم السابق . فتقدموا في هذا السبيل شوطا بعيدا ... ولا يجهل كل من لهم علاقة بفلسطين ، ان العرب في هذه البلاد هم « محبون للسلام طبيعة ، كرماء مع الغير، ولطفاء» .(١)

---

(١) راجع التايمس ١٥ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٦

(٢) التايمس ١٩ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٦ صفحة ١٠ — من كتاب انتقد فيه الزعيم الصهيوني كاستر M. Gaster ، وهو احد الذين اشتغلوا في الحركة الصهيونية مع الدكتور هرتسل وبعده ، غطرسة اليهود على العرب ، وآراء السير روبرت ويلي كوهين في القضية الفلسطينية .

(٣) البروفسور جورج كارستانك ، Observer، ٢٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٦

وكانوا قبل الحرب بزمن طويل » يؤلفون جمعية منظمة ، باطبائهم ومحاميهم وقضاتهم،وموظفيهم، وكبارملاكهم ،وصغارالملاكين من مزارعين وفلاحين »(١).

واليهود الذين يدخلون فلسطين يعتبرون انفسهم فوق الجميع ، وينظرون الى اهل البلاد بعين الازدراء والكبرياء ... وهم يعتبرون العرب اغرابا ويطلبون بجد اخراجهم من فلسطين واعادتهم الى الصحراء ! واخذت صحافتهم تعرض على بساط البحث وتناقش مسألة « تبادل السكان ». وتعني بذلك اخراج عرب فلسطين الى بقية، الاقطار العربية واسكان يهود تلك الاقطار مكانهم !.

« يغلط اليهود غلطة حيوية في كبريائهم . وعلى عكس ذلك ، يجب عليهم الاعتراف بعظمة العرب الماضية ، وبنفس الروح يشتركون واياهم في العمل كما اشتركوا في القرون السابقة، فيربحون ،بهذه الصورة ، ودهم ورغبتهم الاكيدة في الاشتراك واياهم في العمل » (٢) .

« واني اعتقد ان معالجة القضية الفلسطينية بروح الاستعمار في القرن الثامن عشر ، يكون فاجعة للحكومة المنتدبة وللعرب ، ولليهود انفسهم »(٣).

(١) البرفسور جورج كارستانك ، Observer ، ٢٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٦ .
(٢) كاستر ، التايمس ١٩ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٦
(٣) من كتاب ارسله البروفسور هانكوك W. K. Hancock الى التايمس ١٩ (اكتوبر ١٩٣٦) ، انتقد فيه تشبيه السير روبرت كوهين العرب بهنود اميركا وسكان استراليا الاصليين .

الفصل الخامس

الثورة

ان وضعية فلسطين فيما بعد الحرب، وضعية شاذة، وتكاد تكون الاضطرابات فيها حالة دائمة، تتخللها فترات من الهدوء الموقت ... وآخر هذه الاضطرابات تلك التي وقعت خلال عام ١٩٣٦ :

ابتدأت الاضطرابات الاخيرة في تل ابيب في ١٧ و١٨ ابريل (نيسان) وامتدت الى يافا في ١٩ منه، ثم انتشرت الى جميع انحاء البلاد، ودامت حتى ١٢ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٦، اي مدة ١٧٦ يوما .

وتطورت هذه الاضطرابات، وعظم شأنها، فاصبحت ثوره ... وكانت مظاهرها مختلفة : من اضراب عام طويل الامد، ومظاهرات، وحرائق، وقطع اسلاك التلفون والتلغراف، وقلع اشجار، واقتلاع خطوط السكك الحديدية وتدهور قطارات، ونسف جسور، واتلاف انابيب البترول، وانابيب مياه القدس، ومقاطعه تامة بين العرب واليهود، واغتيالات، وقتال دموي بين العرب من جهة وقوات الحكومة واليهود من جهة ثانية؟...

ومما يؤسف له ان الحكومة الانكليزية لم تتبع سياستها الحكيمة القائلة بحل المشاكل عن طريق سلمي، لايقاف الاضطرابات في فلسطين . بل اتبعت سياسة الحديد والنار، بحجة انها لا تخضع لاعمال العنف والتهديد. وهل رجوع الحكومة البريطانية الى الحق، مع شعب فلسطين اليائس، يعد خضوعا لاعمال العنف ؟!. ان التهديد لا يكون الا من ند لند . فاين عرب فلسطين الضعفاء من الامبراطورية البريطانية ؟...

لقد كان جديراً بالحكومة البريطانية ان تحول دون هذه الثورة ودون

ازهاق مئات ... من الارواح البريئةمن عرب وانكليزويهود . وكان يتم ذلك بايقاف الهجرة اليهودية ، وارسال اللجنة الملكية فوراً الى فلسطين لاجراء التحقيق . غير ان ضغط الصهيونيةعليها ، منعها من اتباع سياستها الحكيمة، وحملها على سلوك خطة اخرى ، ادت الى خسران نفوس شابة،واموال طائلةوالى اضعاف صداقات كانت تنفعها في الايام العصيبة ...

واضراب فلسطين فريد في نوعه . وقد كان تفانى جميع افراد الشعب ،على اختلاف طبقاتهم ، واشتراك العرب ، من جميع الاقطار العربية ، في ثورة فلسطين الاخيرة ، وتدخل ملوكهم وامرائهم فيها ، حادثاً مهماً له عواقبه الخطيرة في تطور الحوادث السياسية في الشرق العربي .

ومن الصعب جدا عرض حوادث هذه الثورة العجيبة في فصل موجز كهذا الفصل الذي اخصصه لها . ان ثورة كهذه خليق ان يفرد لها مجلد خاص لمالها من الاهمية ، ولمالها من التأثير في علاقات البلاد العربية المقبلة،ومصير فلسطين. وعلى كل حال فانى احاول ، في اجزاء هذا الفصل ، رسم صورة صادقة عنها ، توقف القارىء على اسبابها،وتطوراتها،وحوادثها،وجنودها، وموقف الحكومة والبلاد العربية منها .

١

اسباب الثورة

لم تكن اضطرابات عام ١٩٣٦ ، التي تطورت الى ثورة ، الاولى في تاريخ فلسطين فيما بعد الحرب . « فالاضطرابات هنا تكاد تكون حالة دائمة تتخللها فترات من الهدوء الموقت ، وفي هذه الفترات يكون الاضطراب موجودا بصورة كامنة في قرارات النفوس » (١)

(١) كامل الدجاني : « الاضطرابات في فلسطين » ، صفحة ١ — اطلعني صديقي الاستاذ السيد كامل الدجاني على مخطوط نشرة وضعها بدأ الثورة الفلسطينية عن « الاضطرابات في

وقع اول هذه الاضطرابات في القدس في ابريل (نيسان) عام ١٩٢٠، وكانت البلاد لا تزال غاصة بالقوى العسكرية .

وفي مايو (ايار) عام ١٩٢١ ، وقع اضطراب في منطقتي يافا وطولكرم .

وفي ربيع عام ١٩٢٢ تجدد الاضطراب في القدس مرة اخرى .

وفي اغسطس عام ١٩٢٩ ، وقع اضطراب عـام في جميع انحـاء فلسطين . ارسلت الحكومة البريطانية على اثره لجنة برلمانية لدرس اسبابه وحالة البلاد السياسية ، وللاشارة بالتدابير الواجب اتخاذها لمنع تكرار هذه الاضطرابات . وكانت هذه اللجنة اهم اللجان التي درست حالة البلاد واسباب الاضطرابات حتى ذلك التاريخ . وقررت ان اسباب الاضطرابات الرئيسية تخوف العرب من السياسة الصهيونية ، وان الاسباب المباشرة اعتداء من اليهود على العرب (١) .

كانت جميع هذه الاضطرابات محصورة بين العرب واليهود ، ولم يحدث فيها اعتداء على قوى الحكومة .

وفي اكتوبر (تشرين الاول) عام ١٩٣٣ وقع صدام في يافا والقدس لاول مرة ، بين الشعب وقوى الحكومة ، على اثر مظاهرات قام بهـا العرب محتجين على سياسة الحكومة الصهيونية .

وفي عام ١٩٣٥ اشتد التذمر والاستياء من سياسة الحكومة ، فتألفت فى حيفا عصبة سرية برئاسة الشيخ القسام، وهو فقيه له مكانته بين السكان. وخرجت الى الجبال لقتال قوى الحكومة ... فتوفي الشيخ القسام وبعض رفاقه شهداء فى ساحة القتال ، والقي القبض على آخرين من افراد العصبة ... وكان عمل

فلسطين » ، افادني في وضع « اسباب الثورة » .واطلعني ايضاً على مخطوط نشرة عنوانها « الصهيونية في فلسطين » ، جاءت وصفاً دقيقاً عن السياسة الصهيونية واخطارها على البلاد العربية.

(١) راجع تقرير لجنة شو صفحة ٧٦ ، ٧٧ ، ٧١ ــ ٧٣ .

الشيخ القسام ورفاقه دليلا قويا على تفاقم الامر ، ويأس العرب من انصاف الحكومة ، ومن العدل البريطاني .

اما ثورة عام ١٩٣٦ ، موضوع بحثنا في هذا الفصل ، فكانت اعظم الجميع واشدها خطورة .

هذه الاضطرابات الدائمة في الارض المقدسة منذ عام ١٩٢٠ ، ترجع كلها الى سبب اساسي واحد : السياسة الصهيونية ، التي ترمي الى تحويل فلسطين العربية الى مملكة يهودية ...

ويتفرع من هذا السبب الرئيسي ثلاثة اسباب اخرى : رفض الحكومة المنتدبة انشاء حكومة وطنية مسؤولة امام مجلس نيابي دمقراطي ، يمثل جميع الطوائف في فلسطين . وتركها الصهيونية تستولي على ما تشاء من اراضي العرب. وفتحها ابواب المهاجرة اليهودية على اختلاف انواعها ، كما رأينا ذلك في الفصول السابقة . ومن الطبيعي ان يخاف العرب على مصيرهم ، وان يستاءوا من تلك السياسة ، وان يبلغ الاستياء اعماق نفوسهم ، وان يتحول كلما تراكم وتكاثف وتجمعت فيه بواعث الاستفزاز الى غضب وغليان ، واضطراب وثوران .

« ويظهر لنا انه من الواضح ان موقف العرب ، الناجم عن اقتران السخط بالخوف اقترانا خطرا ، قد يكون سببا لاضطرابات مستقبلة » (١) . ولن يستقر السلام في الارض المقدسة الا بتأمين الحكومة المنتدبة العرب على حقوقهم ومستقبلهم في بلادهم ...

وكان السبب المباشر لثورة فلسطين الاخيرة ، قتل اليهود عربيين، واعتداءهم على العرب في تل ابيب في ١٧ و١٨ ابريل (نيسان) ، ومحاولتهم الهجوم على يافا. ولنأت على ذكر تلك الحوادث بايجاز :

(١) تقرير لجنة شو ، صفحة ١٢٧ .

اضطر عدد من الذين فقدوا ماكان لديهم من اراض ، وسدت امامهم ابواب الاعمال ، بسبب استيلاء اليهود على موارد البلاد الاقتصادية ، الى ايقاف السيارات واخذ ما يحمل الركاب من دراهم .

وفي ١٥ ابريل (نيسان) ١٩٣٦ اوقفت عصابة السيارات على طريق نابلس طولكرم . بقصد التشليح... فقتل اثناء ذلك احد الركاب اليهود وجرح اثنان.

ان هذه الحادثة اعتيادية ولا علاقة لها بالسياسة ، ومثيلاتها عديدة في جميع البلدان . وليس العرب براضين عن مثل هذه العصابات . واضرارها تلحق جميع سكان فلسطين دون تفريق بين عربي ويهودي . وحادث ١٥ ابريل (نيسان) لم يكن الاول من نوعه . فلو وقفت حوادث ذلك اليوم عند هذا الحد ، لما انفجرت قنبلة الاضطرابات حينئذ ، ولما اجتاحت الثورة فلسطين . غير ان اليهود مزجوا بين الاعتداءآت الاعتيادية والسياسية ، فانتقموا لقتيلهم بقتل رجلين من العرب الابرياء !:

وذلك ان عربياً يدعى « حسن ابو راس » كان حارساً في بستان ليهودي واقع في مستعمرة « راما تايم » اليهودية. وله كوخ داخل البستان يؤوي اليه. وحدث ان ضافه رفيقه « سليم المصري » مساء ١٦ ابريل (نيسان) ، وقضى الليل عنده .وفي فجر ١٧ ابريل قدم نحو الكوخ شخصان ، وطرق احدهما الباب بيده . فقام حسن ليفتح الباب . وتبعه رفيقه . ولما فتح الباب ،اطلق القادمان النار على الرجلين . فصرعا « حسن ابو راس » وجرحا رفيقه جراحاً مميته توفى معها في اليوم الثاني ، بعد ان وصف الجناة بأنهم يهود. واثبت التحقيق ان القاتلين جاءآ بسيارة اوقفاها على حافة الطريق ، وبعد ارتكاب الجناية ، ذهبا بها الى جهة غير معلومة ...

وفي صباح يوم الجمعة ١٧ ابريل (نيسان) ، اتخذ اليهود في تل ابيب من جنازة الرجل الذى قتلته العصابة في ١٥ منه مظاهرة سياسية ،هتف فيها المتظاهرون

بهتافات عدائية ضد الحكومة والعرب، واعتدوا على من وجد بتل ابيب من المارة وبائعي الخضار والحوذيين العرب، وأوسعوهم ضربا. ثم حاولت الجموع اليهودية الهجوم على يافا للبطش باهلها ، فردهم البوليس بينما كانت حجارتهم تتساقط عليه.

وفي اليوم التالي، اي ١٨ ابريل ، اخذ اليهود في تل ابيب يعتدون على من يرونه من العرب ، ولولا تدخل البوليس لقتل فى ذلك اليوم عدد كبير منهم في المدينة اليهودية. ثم حاولوا الهجوم على يافا مرة ثانية، فحال البوليس بينهم وبينها (١). وكان لهذه الحوادث ضجة عظيمة في جميع انحاء فلسطين .

وبينما كان اهل يافا يفكرون فيما يجب عمله ، سرت صباح ١٩ ابريل (نيسان) اشاعة مآلها ان اليهود قتلوا رجلين وامرأة من العرب ، فهاج الرأى العام واشتد غيظه . وذهبت جموع من الشعب الى دار الحكومة طالبة ايضاح ذلك . فنفت الحكومة الخبر . واتفق ان وصل حينئذ افراد من العرب مصابين بجروح من تعديات اليهود عليهم ، فثار المتجمهرون من جديد ، وزاد سخطهم وعظم قلقهم ووصل الحقد اشده ، فساروا يضربون ويقتلون من قابلوا من اليهود . ودب الرعب فى يافا، واختل الامن، فاغلقت المخازن ، وانتشر الجند فى الشوارع... واعلن نظام منع التجول ، القاضى على السكان بالانزواء فى بيوتهم من الساعة السابعة مساء حتى الساعة الخامسة صباحا .

وتتابعت الاضطرابات فى الأيام التالية ...

٢

اهتياج العرب

الاضراب العام والمظاهرات

كان لقتل اليهود العربيين فجر ١٧ ابريل (نيسان)، ولاعتداءاتهم المتكررة على العرب، ومحاولتهم الهجوم على يافا خلال ١٧ و١٨ منه، وقع سيء جداً فى جميع انحاء البلاد

---

(١) راجع بيان وزير المستعمرات حينئذ « مستر توماس » الذي اذاعه في ٢٩ ابريل (نيسان) ١٩٣٦

رأى العرب في تلك الاعمال طلائع المستقبل ، وبوادر المصير الذي ينتظرهم. ولما كانوا قد يئسوا من عدل السياسية البريطانية ، ونزعوا الثقة من الحكومة المنتدبة ، رأوا ان واجبا عليهم ايقاف « الرأي العام » على ظلامتهم ، ووضع حد لتعسف الصهيونية وعدوانها . فقرر اهل يافا ، في اجتماع عقده فريق منهم في ٢٠ ابريل (نيسان) ، الاضراب العام « برا وبحرا »، واصدروا بيانا بذلك الى الامة فوافقت عليه جميع المدن والقرى في فلسطين .

وشمل الاضراب جميع مرافق الحياة الاقتصادية والاجتماعية : فاغلقت جميع المخازن والمصانع والمقاهي والملاهي فوقفت الحركة التجارية وقفاً تاما . فلم يرق ذلك للحكومة ، وحاولت ارغام التجار على فتح ابواب مخازنهم. فنقلوا بضائعهم الى بيوتهم ، وكتب عدد منهم على مخازنهم « برسم الايجار والمخابرة مع الحكومة »، وعزم آخرون على تسليم مفاتيح المخازن الى الحكومة ان اصرت على فتحها ...

وقررت لجنة السيارات العامة في القدس في ٢٤ ابريل (نيسان) الاضراب العام، لجميع السيارات العامة والخاصة ، وجميع وسائل النقل في جميع انحاء فلسطين ابتداء من ٢٥ منه. وخصصت عددا من السيارات للاسعافات الضرورية . وبالطبع فان العمال والحوذية كفوا عن العمل طيلة مدة الاضراب ، فوقفت حركة المواصلات ، وكانت شوارع المدن خالية الامن السائرين والجنود والسيارات المصفحة ...

اضرب بحارة يافا منذ مبدأ الاضراب ، واعلنوا اضرابهم الباهر رسمياً في ٢٧ ابريل (نيسان) ، رغم تهديد الحكومة لهم . فشلت حركة الميناء ووقفت فيها جميع الاعمال . واضطرت البواخر الى تفريغ حمولتها في ميناء حيفا . ولم يقف العمل في ميناء حيفا لكثرة وجود البحارة والعمال اليهود فيها. وسمحت الحكومة لليهود بانشاء ميناء في تل ابيب .

وقرر المحامون العرب في اجتماع عقدوه في مدينة يافا الاضراب، وعدم

حضور المحاكمات الا للمرافعة في القضايا الناشئة عن الاضراب والحركة الوطنية.

وعزم تلاميذ المدارس فى جميع انحاء البلاد على المساهمة فى الاعمال الوطنية، فاضربوا عن الذهاب الى المدارس ، واعلنوا ذلك رسميا فى اجتماع عقدوه فى يافا فى ١٠ مايو (ايار) ١٩٣٦ .

وقامت البلديات بما عليها من واجب وطني . فقد دعا سعادة عاصم بك السعيد رئيس بلدية يافا ، رؤساء المجالس البلدية فى فلسطين واعضاءها، الى عقد مؤتمر فى رام الله ، للبحث فى اضراب البلديات وشؤون البلاد . فحالت الحكومة دون ذلك الاجتماع . فعقد رؤساء البلديات اجتماعا سريا فى بيت رئيس بلدية رام الله، فى ٣١ مايو (ايار) ، فقرروا فيه ايقاف اعمال البلديات ، واستثنوا من ذلك اعمال التنظيف حفظاً للصحة العامة . الا ان عمال الكنس ابوا ان يكونوا اقل حماساً من سائر العمال ! فتكاثرت الاقذار ، وساءت حالة المدن . فخابرت حكومة فلسطين احد مشايخ شرق الاردن ليرسل رجاله للقيام باعمال كنس مدينة القدس. فاجاب ذلك الشيخ قائلا : ليس رجالي اقل وطنية من كناسي مدينة القدس. هذا مع أن تلك القبيلة كانت في فقر مدقع وحاله يرثى لها، وكان المبلغ الذي عرضته عليها حكومة فلسطين كبيراً بالنسبة اليها ، فهي لا تستطيع ، كسب مثله فى سنين عديدة . وخشيت الهيئات الوطنية من انتشار الامراض من جراء تراكم الاقذار ، فاقنعت الكناسين بان الواجب يطالبهم بالعودة الى اعمالهم. فعادوا الى تنظيف المدن ليلا حتى لا يشوهوا الاضراب العام .

واضربت دوائر المجلس الاسلامي الاعلى في ١١ يونيو (حزيران) ، عن العمل . واستثنى من ذلك تأمين استمرار القيام بالواجبات الدينية .

واشتركت الصحافة فى الاضراب ، فاضربت ثلاثة ايام فقط ، لان الحالة السياسية كانت تقضى باستمرار صدورها .

وشمل الاضراب قضاء بئر السبع ، فاضرب فيه قضاة محاكم العشائر ، وتألف

وفد من المشايخ والقضاة فقابل المندوب السامي وقدم اليه عريضة بالمطالب الوطنية.

واراد مسجونو « عين شمس » مشاركة الامة في اضرابها ، فامتنعوا عن العمل ، فاطلق الجند الانكليزي عليهم النار ، فقتل احدهم بتاريخ ١٧ مايو (ايار) ١٩٣٦ ...

وكان موقف الفلاح في هذا الاضراب موقفاً سامياً . فانه مع فقره المدقع وسوء حالته التي اتينا على وصفها في فصل سابق، ابى قطف ثمار خضاره ، فتساقطت الثمار على ارضها ، فلم يمد يده اليها ، مشاركة للامة ، وتنفيذاً للاضراب العام الذي اقرته ...

وكان الحزن مخيماً في البلاد طول مدة الاضراب العام ، وكان الشعب في حداد عام ، فلم يسمع ، اياً كان ، غناء ولا موسيقى ، ولم يدر احد « زر » الراديو الا لسماع اخبار الثورة المحزنة ...

* * *

وتبع الاضراب التنظيم في الاعمال . فتألفت في جميع المدن الفلسطينية لجان دعيت باسم « اللجان القومية »، للاشراف على حركة الاضراب، وتنظيم شؤون المدينة الوطنية ، وجمع الاعانات .

وكان يسند هذه اللجان ، لجان اخرى عرفت باسم « لجان الاسعاف » ، ومهمتها توزيع المؤن لاعانة المعوزين من الاهالي الذين افقدهم الاضراب مورد رزقهم ، وهم عديدون . وكانت جمعية الاسعاف ، اليافية مثلا تعول اربعين الفا من السكان اليافيين ...

ولم يرد شباب يافا ان تكون اعمالهم فردية ، فعقدوا اجتماعا وانتخبوا هيأة لهم دعيت باسم « الحرس الوطني » ، للسهر على الاضراب وتغذيته .

وقد انتخب لهذه الهيئات اعضاء احتياطيون ، ليحلوا محل الاعضاء الذين تعتقلهم الحكومة ...

وتركت الاحزاب السياسية تخاصمها، واجتمع رؤساؤها وقرروا تأسيس « لجنة عربية عليا » لتوحيد القيادة ، وللاشراف على الحركة الوطنية « بجبهة لا وهن فيها ولا تصدع » . وتألفت « اللجنة العربية العليا » من رؤساء الاحزاب الخمسة وخمسة آخرين من رجالات البلاد ، وكان اعضاؤها السادة :

الحاج امين الحسيني،راغب النشاشيبي،احمد حلمي عبد الباقي ، الدكتور حسين الخالدي . يعقوب فراج . عوني عبد الهادي ، عبداللطيف صلاح ،الفرد روك ، جمال الحسيني ، ويعقوب الغصين .

وانتخب السيد امين الحسيني رئيساً ، والسيد احمد حلمي عبد الباقي اميناً للصندوق ، والسيد عوني عبد الهادي سكرتيراً (١) .

وعقدت هذه اللجنة جلستها الاولى يوم السبت الموافق ٢٥ ابريل (نيسان) ١٩٣٦ ، واذاعت على اثرها بيانا على الشعب طالبت فيه مواصلة النضال السلمي والأستمرار على الاضراب العام ، حتى تغير الحكومة سياستها المتبعة في فلسطين، تغييراً اساسياً ،تكون بوادره في ايقاف الهجرة اليهودية.

سر الشعب بتأسيس هذه اللجنة ، وتقبل نداءها بارتياح وأمل .وكان شعوره الوطني شديداً ، حتى انه كان يود من اللجنة العليا اعلان العصيان المدني ، اي عدم دفع الضرائب ومقاطعة الحكومة مقاطعة تامة ، والسير به الى الامام بكل جرأة وشجاعة، حتى تنال البلاد حريتها واستقلالها .

على ان اللجنة العربية العليا ارادت التوصل الى غايات البلاد بالطرق الديبلوماسية » ، فرفعت الى المندوب السامي مذكرة انتقدت فيها سياسة الحكومة وعرضت فيها مطالب الامة التي تنحصر في امور ثلاثة :

١ — منع الهجرة اليهودية منعاً باتاً .

(١) اعتقلته الحكومة فانتخب مكانه السيد دروزه ، واعتقل هذا ايضا فانتخب السيد فؤاد سابا خلفاً له .

٢ — منع انتقال الاراضي العربية الى اليهود .

٣ — انشاء حكومة وطنية مسؤولة امام مجلس نيابي ، ينتخب اعضاءه العرب واليهود على اساس دمقراطي .

وقررت اللجنة العربية العليا طواف البلاد وتفقد احوالها، واخذت تدرس، في احدى جلساتها ،الطلبات التي تحض على اعلان العصيان المدني .

ولما علم فخامة المندوب السامى بالامر ، دعا اعضاء اللجنة العليا لمقابلته فى ٥ مايو (ايار).وابلغهم ان الطلبات التي جاءت فى مذكرتهم تتعلق بالسياسة العليا ،ولذا فقد ارسلها الى وزير المستعمرات . واخبرهم بانه لن يسمح لهم بطواف البلاد، وانه سيتخذ الاجراءات القانونية ضد الذين يحضون على عدم دفع الضرائب، وعلى اضراب موظفي الحكومة.وقال لهم اخيراً انه يأمل من اللجنة العليا استعمال نفوذها لايقاف الاضراب واعادة السلام في البلاد ...

واجابت اللجنة المندوب السامي بمذكرة ثانية،عرضت فيها مساوىء السياسة البريطانية فى فلسطين ، وتحيزها لليهود ، وعدم اعتبارها تقارير لجانها وخبرائها حتى ولا القرار الذي اتخذه مجلس الوزراء عام ١٩٣٠ . وذكروا فيها مخاوف العرب الناجمة عن السياسة الصهيونية، التي ترمي الى تأسيس مملكة يهودية فى فلسطين العربية، واخراج العرب منها . وابانوا كيف ان هذه الحالة استفزت العرب للدفاع عن كيانهم ، وعرض ظلامتهم على الرأي العام العالمي، متوسلين بالاضراب العام السلمي ، وآملين من الحكومة اجراء العدل ، فتعدل عن سياستها الصهيونية،وتوقف الهجرة اليهودية الضارة بالبلادوبالعرب . وذكرت اللجنة العربية العليا فى تلك المذكرة ، ان الامة ستبدي رأيها فى مسألة الامتناع عن دفع الضرائب فى اجتماع تعقده لجانها القومية عما قريب . واصرت على ان حل المشكلة الفلسطينية واعادة السلام يتوقفان على ارادة الحكومة المنتدبة.فان هي غيرت سياستها فى فلسطين وانصفت سكانها العرب ، وقف الاضراب وساد السلام الاراضي المقدسة .

اجتمع مندوبو اللجان القومية في القدس، وعقدوا مع اعضاء اللجنة العربية العليا مؤتمراً في ٧ مايو (ايار) ١٩٣٦ ، قرروا فيه استمرار النضال والاضراب العام حتى تجاب مطالب الامة . وقرر المؤتمر ايضا بالاجماع « اعلان الامتناع عن دفع الضرائب اعتباراً من ١٥ مايو (ايار) الحالي ، اذا لم تغير الحكومة البريطانية سياستها تغييراً اساسيا ، تظهر بوادره في وقف الهجرة اليهودية » .

ولما تبلغ فخامة المندوب السامى قرار المؤتمر ، دعا اللجنة العربية العليا وطلب منها ، مهدداً ، العدول عن القرار ، غير ان اللجنة لم تحد عن موقفها واصرت على طلباتها .

* * *

وجاء يوم ١٥ مايو (ايار) ١٩٣٦ ، وكان يوم جمعه ، ولم تجب الحكومة مطالب الشعب . فقام العرب في جميع المدن الفلسطينية بمظاهرات محتجين على امعان الحكومة فى متابعة سياستها الصهيونية :

استعدت الحكومة لهذا اليوم استعداداً كبيراً ، فارسلت الى المدن الجند والسيارات المصفحة ، وجعلت الطائرات تحوم فوقها .

وكان استعداد الحكومة فى يافا ، بوجه خاص ، على اتمه ، فقد احتل الجند فيها دار الحكومه ، ووضعت الاسلاك الشائكة فى مفترق الطرق الرئيسية ، ووقف الجند فى بعض المواقع مجهزين بالاسلحة الكاملة .

خرج المصلون من الجامع ، وانضم اليهم من في الخارج ، وسار الجميع فى مظاهرة كبرى ، متجهين جهة العجمي . وكان الجند مرابطين على جسر «شارع فيصل » ، فى منتصف طريق العجمي ، فتجنب المتظاهرون الاصطدام بالجند ، واكتفوا بالسير فى الشوارع الخالية منه ، ثم تفرقوا . وسار فريق منهم ، عائدين الى بيوتهم ، فى طريق سوق الغلال الى شارع « جمال باشا » ، فقابلتهم قوة من البوليس الانكليزي واخذت تفرقهم باطلاق النار ، والطعن بالحراب ، والضرب باعقاب البنادق وبالعصي ، فوقع قتلى وجرحى عديدون ... وغريب ان تريد

الحكومة تفريق المتظاهرين وتسد امامهم الطرق !

وكان عدد المتظاهرين في مدينة نابلس نحو عشرة الآف ، ساروا تتقدمهم الاعلام ، من المسجد الى الساحة التي امام النادي الرياضي . وهناك خطب في المتظاهرين الخطباء ... وكان الحماس بالغاً اشده .

واتخذت مظاهرة عكا شكل جنازة صامتة ، جمعت اهالي المدينة ووفود قراها . وسار الجميع وراء نعش يرمز للعدل البريطاني ، موضوعا على سيارة وملفوفا بالعلم العربي . وكان يتقدم النعش مشايخ ورهبان، ورايات عربية واعلام الكنيسة ، وحملة الاكاليل . سار الجميع حتى مقبرة الشهداء ،حيث واروا النعش فيها ...

وحدث في الرملة واللد وطولكرم وغزة وغيرها مظاهرات ، انتهى بعضها بسلام ، ووقع في البعض الاخر قتلى وجرحى ...

واخذت حال البلاد تسير من سيء الى اسوأ . وتعددت مقابلات المندوب السامي مع اللجنة العربية العليا ، ولكن دون جدوى . اذ كان المندوب السامي يريد من اللجنة العدول عن الاضراب ، واعادة الحياة الى الحالة السابقة، حتى تأتي اللجنة الملكية وتدرس الحالة ، وتفحص ظلامة العرب اي انه كان يريد من العرب ان يكفوا عن جهادهم دون ان ينالوا شيئا غير الوعود !. وقد عرف العرب قيمة الوعود البريطانية ، فابوا الكف عن النضال دون ان ينالوا شيئا محسوسا . واكد اعضاء اللجنة للمندوب انه اذا اوقف الهجرة اليهودية يعود السلام الى الاراضي المقدسة . وكان المندوب السامي يرغب في ايقاف الهجرة، فخابر وزارة المستعمرات في الامر ، فابى الوزير ذلك . فاستمر الاضطراب وتفاقت الحال ، وتعددت المظاهرات التي ترمي الى المناداة بحقوق العرب .وكانت ان تعرض البوليس لها واصطدم بها تسفر عن اصابات من الفريقين ، وان لم يتعرض لها تنتهي بسلام ...

ومما هو جدير بالذكر ان الحماس الوطني قد اذكى حتى قلوب الصبيان فقاموا بمظاهرات عدة . ومنها مظاهرة قلدوا فيها الجند والبوليس بحركاتهم والبستهم : فوضعوا الصحون على رؤوسهم بمثابة الخوذالفولاذية وحملوا العصي على اكتافهم بدل البنادق . واخذوا يتجولون في الشوارع ، ويقرعون على التنك منادين بحياة الوطن ، وبسقوط وعد بلفور ، ومنشدين الاناشيد الوطنية ...

٣

مراحل الثورة

اخذ الاضراب السلمي يتسع ويقوى رغم مقاومة الحكومة له ، وتعسف الجند وقساوتهم على الشعب ، واخذت الاضطرابات تزداد ، والاغتيالات بين العرب واليهود تكثر ...

صبر العرب باديء الامر على قساوة البوليس الانكليزي واليهودي ، وتحملوا اعتداءاتهم عليهم ، واهاناتهم لهم ، دون ان يردوها عنهم بالقوة . واكتفوا باحتجاج الهيئات الوطنية ، على هذه الاعمال ، الى الحكومة ، مبينين مساوئها ووخائم عواقبها ، اذ لكل صبر حد . فلم تعر الحكومة تلك الاحتجاجات ادنى اعتبار .

واخذت قساوة البوليس واعتداءاتهم على افراد الشعب فى الازدياد . وامعنت الحكومة فى سياسة الاعتقال والحبس ... فبلغ اهل قرى طولكرم صباح السبت ٢٣ مايو (ايار) ١٩٣٦ ، ان الحكومة اعتقلت اعضاء اللجنة القومية ، فثاروا وتقلدوا سلاحهم سائرين نحو المدينة ، فتقابلوا مع قوة عسكرية ذاهبة الى نابلس ، فاشتبكوا معها بالقرب من بلعا ، وتبادلوا واياها النيران من الساعة التاسعة صباحا حتى المساء ... فتحولت الاضطرابات الى ثورة حقيقية ، كانت هذه الموقعة اول معاركها .

بعد ظهر اليوم نفسه اطلق الجند النار على الاهالي في نابلس ، فقتلوا اربعة، وجرحوا سبعة ... فكان لهذه المأساة اسوأ وقع فى نفوس العرب جميعاً ،ادت الى نفاد صبرهم واشتداد غيظهم ،وقيامهم بتوزيع مناشير مطبوعة بالجلاتين تدعو الى الثورة ، وتحض على الثبات فى الكفاح حتى النهاية . وكتب فى ابتداء كل منها عبارة « الثورة العربية الثانية ».

حمل معظم القرويين وكثير من اهل المدن السلاح، واخذوا يقاومون القوة بالقوة . وكان القتال فى كل مكان ، في الليل والنهار :

كانت المدن ملأى بالجند والدبابات والذخائر الحربية ، كأن البلاد ساحة حرب ... وكنت تسمع ازيز الرصاص وطلقات المدفع الرشاش ودوي القنابل اثناء النهار ، على ان ذلك كان يعظم ويشتد خلال الليل ...

وكانت المواقع الشديدة في الجبال . لاتخاذ الثوار من اهل القرى والمدن الجبال حصونا وقلاعاً ، يغيرون منها على المستعمرات اليهودية ، ويتبادلون مع حاميتها النيران ... ويصطدمون بالقوى البريطانية فتشتبك بين الطرفين معارك حامية دامية .

وقد اتلف الثوار انابيب البترول مراراً ، والحقوا بمخازن البترول فى حيفا اضراراً، وقلبوا قاطرات عديدة، ونسفوا جسوراً ،وقطعوا اسلاك التلفون والتلغراف ، وسدوا الطرق بصخور ضخمة ،فحالوا دون المواصلات على اختلاف انواعها ... فطلبت حكومة فلسطين نجدات عسكرية من القاهرة ، ومن لندن للقضاء على الثورة بالقوة ، بعد ان رفضت انهاءها عن طريق سلمي بايقاف الهجرة اليهودية . فاجتمع لديها ٢٥ الف محارب ، مع عددهم الحربية من بنادق ومدافع على اختلاف انواعها ، ومصفحات وطيارات حتى وبوارج حربيه ...

واتبع الثوار فى قتالهم مع الانكليز حرب العصابات (الكريلا)، فمكنهم ذلك من الوقوف امام الجند البريطاني ، رغم تفوقه عليهم بالعدد والعدة . واليك وصفاً موجزاً للخطة العامة التي كانوا يتبعونها في بعض مواقعهم لاسيما في جبال الخليل :

كان الثوار يقطعون الطريق العام باحجار وصخور كبيرة ، تمنع السيارات من مواصلة السير . ثم ينقسم الثوار الى ثلاثة او اربعة اقسام مثلاً، يتحصن كل قسم في ناحية من الجبال او الهضاب المشرفة على الطريق العام . وكان القسم الاول مجابها الحجارة التي تسد الطريق ، والاقسام الاخرى مبتعدة كل واحد عن الآخر مسافة كانت في كثير من المواقع نحو كيلومتر .

وكانت السيارات اليهودية تسير فى قوافل محروسة بسيارات ملأى بالجند البريطاني . فعندما تصل الى موضع مسدود بالحجارة تضطر الى الوقوف ، فينزل الجنود لرفع الحجارة . وكانوا لا يكادون يبدأون فى عملهم الاورصاص القسم الاول من الثوار ، الكامن بالقرب منهم ، يمطرهم نارا حامية . فيترك الجند الحجارة، ويأخذون باطلاق النيران عليهم ، من بنادقهم ومن المدافع الرشاشة، ويطلبون النجدة باللاسلكي ، او بارسال سواريخ نارية حمراء اللون في الهواء . اما اليهود فكانوا ينزلون من سياراتهم عندما يسمعون الطلق الاول ، ويرمون بانفسهم في الخنادق المحاذية للطريق ، منتظرين نهاية المعركة .

ومتى اتت النجدة ، كانت تمر عن القسم الرابع والثالث من الثوار دون ان يتحرشوا بهم، ومن غير ان تعلم بوجودهم . ومتى وصلت القسم الثاني من الثوار اطلق عليها النيران ، فتقف وتشتبك معه ، وتطلب بدورها النجدة.

ومتى وصلت النجدة الثانية، القسم الثالث من الثوار ، اطلق عليها هؤلاء النيران فتشتبك واياهم فى معركة ، وتطلب بدورها نجدة جديدة . وهكذا كانت تأتي النجدات فيستلمها كل فريق من الثوار بدوره . ليحولوا بينها وبين نجدة الذين اتت لنجدتهم ، ولتضطر القوى الانكليزية الى القتال متفرقة .

وكان بين افراد كل جماعة من الثوار من يحسن رمي الطائرات بالرصاص. فكان هؤلاء، عندما تظهر الطائرات، يتحولون برصاصهم اليها. وكانوا يسقطون بعضها، أو يضطرون بعضها الى ترك القتال والذهاب الى اقرب مركز لاصلاح العطل الذي اصابها ...

وكانت المعارك تبدأ، في غالب الاحيان، حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا، وتستمر حتى المساء، فينسحب الثوار تحت ظلامه من مراكزهم، ويعودون الى مكامنهم او قراهم، حاملين معهم جرحاهم وقتلاهم. ويعود حينئذ الجند الى سياراتهم يحملون من اصيب منهم ... عندئذ يخرج اليهود من الخنادق، ويصعدون الى سياراتهم، ويتابعون سيرهم، او يعودون من حيث أتوا، محروسين بالقوى البريطانية ...

ولنأت الان على ذكر بعض معارك الدور الاول من الثورة، دور حرب العصابات، الذي سبق مجيء القائد فوزي بك القاوقجي واصحابه من مجاهدي البلاد العربية. واني لا اذكر هنا مقدار الخسائر التي كانت تلحق بكلا الطرفين في هذا الدور، لان حقيقتها غير معلومة، وكل ما قيل عنها غير صحيح. ولا يصح الاعتماد على ما كانت تنشره الصحف وغيرها من المراجع.

وكان من اهم تلك المعارك معركة « نور شمس » التي وقعت في ٢٢ يونيو (حزيران) ١٩٣٦. وموجز الحادثة ان الثوار رابطوا في الجبال بين عنبتا ونور شمس، لقافلة السيارات اليهودية القادمة من تل ابيب الى حيفا، محروسة بقوة من الجند، ومزودة بمدفعين خفيفين وطائرة. ولما وصلت القافلة نور شمس وجدت الطريق مسدودا بالحجارة فوقفت، وامطرها الثوار رصاص بنادقهم. فقابلهم الجند بنار البنادق والمدافع الرشاشة. وطلب قائد الفرقة نجدة من نابلس باللاسلكي، فقدمت واشتدت المعركة. وحدث ان قدمت قافلة اخرى آتية من حيفا الى تل أبيب. ولما وصلت « دير شرف »، مكان قريب من « نور

شمس » ،اشتبك الثوار مع حاميتها بتبادل النيران . واشتدت المعركة ، ودامت من الساعة ١١ صباحاً حتى الساعة السادسة مساء ، كانت الطائرات خلالها ترمي الثوار برصاص مدافعها الرشاشة ، والثوار يقابلونها برصاص بنادقهم . وقد تمكنوا من اصابة ثلاث طائرات ، اضطرت الى الذهاب الى طولكرم لاصلاح ما اصابها من خلل . ولما خيم الظلام انسحب الثوار والجند ، حاملين جرحاهم وقتلاهم ...

ووقعت معركة « عين حارود »في مرج بن عامر في ٩ يونيو (حزيران)، بين الثوار ، وبين البوليس اليهودي والجند البريطاني . ولم تذكر الحكومة هذه الموقعة في بلاغاتها ...

اما معركة « وادي عزون » التي وقعت في ٢٦ يونيو (حزيران) فكانت شديدة ، اشترك فيها ثلاثمائة من الجند ، تصحبهم ثلاث مصفحات وثلاث طائرات ...

وفي يوم ٢٦ يوليو(تموز) بعد الظهر ،اطلق الثوار النار،على قافلة يهودية ذاهبة من يافا الى القدس ، بالقرب من « باب الواد » . فاشتبك الجند معهم بالرصاص . وجاءت نجدة كبيرة من الجند مجهزة بالمدافع والطائرات . فاخذوا يقذفون القنابل على الثوار ،وكان عددهم ١٦ ، من الارض ومن الجو،فحرق الحرش الذي في ذاك المكان ، ودام القتال ساعة ... وعرفت هذه المعركة بمعركة « باب الواد » .

وحفرت الحكومة في الجبلين المتقابلين بين بلعا ونابلس استحكامات ليتقي فيها الجند نار الثوار . وفي ١٠ اغسطس (آب) بكر قسم كبير من الثوار واحتل هذه الاستحكامات . وبعد ذلك وصل الجند المكان وتوجهوا جهة الاستحكامات للمرابطة فيها،فاصلاهم الثوار نارا حامية . فانبطح الجند على بطونهم، واخذوا يتبادلون الرصاص مع الثوار، وطلبوا النجدة كبيرة باللاسلكي . فهرعت

لنجدتهم ١٨ سيارة ملأى بالجند ، تصحبهم ٥ مصفحات ومدفعان جبليان وخمس طائرات .

اجتمعت هذه القوة ،وحاولت تطويق الثوار ، ولكن عبثاً . واخذت الطائرات تقذف الثوار بقنابلها ، والمدافع ترميهم بنيرانها ،فتدك الجبال دكا ... واستمرت المعركة على هذا الحال ثماني ساعات .

وفي الظلام انسحب الثوار، وتأهبت القوة للعودة الى نابلس .وفي طريقها انفجرت تحت عجلات احدى السيارات قنبلة اعدت لذلك ، فنسفتها ...وعرفت هذه المعركة بمعركة « بلعا الاولى »

ومن معارك هذه المرحلة من الثورة ، معركة « عصيرة الشمالية » التي حدثت في ١٧ اغسطس (آب) . ومعركة « وادي عرعرة »التي جرت في ٢٠ اغسطس (آب) ، في الجبال الجنوبية واستمرت ١٢ ساعة . ومعركة « عين دور » التي وقعت في ساعة متأخرة من ليلة ٢٩ اغسطس (آب) ...

* * *

وفي الثلث الأخير من شهر اغسطس (آب)١٩٣٦ ،دخلت الثورة في دورها الثاني ، دور التنظيم والقتال على الاساليب الحربية الحديثة. وذلك بقدوم فوزي بك القاوقجي من العراق على رأس نحو مائة مجاهد ، وجماعة من المجاهدين السوريين بقيادة الاستاذ الشيخ محمد الاشمر ، ومعظمهم من الذين اشتركوا في الثورة السورية ، واخرين من شرق الاردن ، وانضمامهم الى المجاهدين في فلسطين، وتنظيمهم صفوفهم، واقامتهم قيادة حربية على رأسها فوزي بك القاوقجي .

ولد فوزي بك في طرابلس الشام ، وتلقى علومه في مدرسة استانبول الحربية ، وتخرج منها برتبة يوزباشي من صف الفرسان . واقام ، بعد الحرب الكبرى ،في بلدته يشتغل في المسائل الوطنية. ولعب دوراهامافي الثورة السورية،

حيث كان قائد المنطقة الشمالية فيها ، فظهرت مقدرته الفائقة في الفنون الحربية، وكانت شجاعته موضع اعجاب من عرفه ... وكان اخيراً مدرساً في مدرسة العراق الحربية .

وقبل ان يبدأ فوزي بك العمل في فلسطين ، مكث اياما يدرس الحالة ويتفقد مواقع القتال ، وينظم صفوف المجاهدين ، ويعين لكل فرقة جهة خاصة.

واصدر قائد الثورة بلاغه الاول في ٢٨ اغسطس (آب) ١٩٣٦ ، وابتدأه بعبارة :

قيادة الثورة العربية العامة
في سورية الجنوبية (فلسطين)
رقم ١

وحيا به فلسطين وضمنه عاطفته الشريفة نحوها ، معلنا ان البلاد العربية جمعاء موجهة قلبها نحو فلسطين ، وما الذين قدموا ليجاهدوا فيها الا طليعة السبعين مليون عربي ... ووقعه بما يلي :

قائد الثورة العربية العام
في سوريا الجنوبية
فوزي الدين القاوقجي

وفي بلاغه الثاني الصادر في ٢ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٦ اعلن خبر تأليف محكمة « مهمتها تأمين الامن ونشر العدل والنظام في البلاد ، وقطع دابر الخيانة والتجسس والفساد » .وقد تابعت قيادة الثورة اصدار البلاغات، تصف فيها الحركات الحربية والمواقع الدامية، التي حصلت بين قوة الثورة والجيش البريطاني، وما اصاب كلا منها من خسائر .

وكان لقيادة الثورة دائرة استخبارات منظمة ، تنقل اليها حركات الجيش السرية، فتمكنت بذلك من عرقلة اعمال الحكومة للعثور على مكامن الثوار. كما

ان الثوار تمكنوا من تعطيل حاسة شم الكلاب ، التي كان الجيش البريطاني يستعملها ، اثر كل معركة ، للعثور على الثوار ، وذلك بالقاء مواد حريفة في الطريق.

واتخذ القتال في هذا الدور من الثورة شكلا حربيا منظما . فكان هناك خطط هجوم واستدراج وانسحاب ، تنفذ حسب تعليمات القيادة ، وتسير حسب خرائط حربية خاصة. وزادت في هذا الدور مؤن الثوار الحربية، فاصبح لديهم مدافع رشاشة ، وبنادق من قاذفات القنابل، وغيرها لاسقاط الطائرات...

امام هذا النشاط الجديد، وتعاظم قوة الثورة اضطرت حكومة فلسطين الى طلب قوات جديدة من لندن . فارسلت الحكومة البريطانية الى فلسطين قوة كبيرة مؤلفة من عشرة الاف جندي . واضطرها ذلك الى الغاء مناورات في « الدرشوت » بلندن ا التي لم تلغ ، منذ الحرب الكبرى، الا مرة واحدة. واستلم الجنرال « ديل » القيادة العليا للقوى البريطانية في فلسطين وشرق الاردن ، وجعل مركزها القدس .

وقبل البدء بالاعمال الحربية ، نشرت الحكومة في ٣٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٦ مرسوما بالاحكام العرفية صادرا عن مجلس الملك الخاص ، وفوض امر تنفيذه بالمندوب السامي ، على انه لم ينفذ . وهذا المرسوم لا يختلف كثيراً عن قانون الطوارىء ، الذي وضعته الحكومة بدء الاضطرابات ، اذ كان الاخير غاية في القسوة والشدة ...

امام هذا التطور في الثورة، دعت اللجنة العربية العليا اللجان القومية الى اجتماع للتداول في الموقف الجديد ، فحالت الحكومة دون ذلك الاجتماع، واخذت تهدد الشعب ، طالبة من لجانه القومية وغيرها من الهيئات الرسمية انهاء الاضراب . فكان الجواب : لا ، ما دامت الحكومة لم تعر مطالب العرب ادنى اهتمام . فظهر للحكومة جليا ان الكلمة في البلاد موحدة ، وان ما كانت تقوله اللجنة العربية العليا يعبر حقيقة عن رأي الشعب .

وفى تلك الاثناء كان الجنرال ديل يرسم الخطط الحربية للقضاء على قوى الثوار ، وحل الازمة الفلسطينية بالقوة . غير ان قيادة الثورة كانت من الحذاقة بمكان ، فتمكنت ، فى كل مرة ، من رسم خطة حربية تبطل مفعول خطة الجنرال ديل ، وتشل حركة الجيش ...

وحصل في هذا الدور من الثورة معارك عديدة ، كانت حامية الوطيس ومنظمة ، منها المعركة التي وقعت بين « نور شمس وعنبتا » . وخلاصتها ان قوه عسكرية خرجت من طول كرم صباح ٣ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٦ ، مؤلفة من عشرين سيارة مملوءة بالجند مع دبابات ، للمحافظة على الأمن في طريق طولكرم - نابلس . وما كادت تصل شرقي سجن نور شمس حتى انفجرت الغام تحت السيارات ، فحطمت عددا منها . فنزل الجند ، وكان الثوار يكمنون له ، فاشتبك معهم في قتال شديد ، وكان ذلك في الساعة التاسعة صباحا . وفى تلك الاثناء وصلت قوة عسكرية من نابلس ، فبلغ عدد الجند البريطاني خمسة الآف ، مجهزين بالدبابات والمصفحات ، تصحبهم ١٥ طائرة . واشتد القتال على خط طوله خمسة كيلومترات ، يمتد الى قرية بلعا ، واستمر حتى غروب الشمس .

واسفرت هذه المعركة عن خسائر فادحة ... منها اتلاف ثلاث طائرات احترقت احداها ، وقتل ثلاثة من الانكليز ، بينهم ضابط طيران ، وجرح اربعة جراحا خطيرة ، وقتل عشرة من الثوار وجرح ستة ، حسب بلاغ الحكومة. وذكر بلاغ قيادة الثورة رقم ٣ الصادر في ٤ سبتمبر (ايلول) ، ان خسائر الثوار « تسعة شهداء بينهم البطل الدرزي المعروف محمود ابو يحيى الذي خاض معارك الثورة الدرزية من اولها الى آخرها ، وابلى فيها البلاء الحسن . وبينهم شهيدان عراقيان ، وشهيد درزي آخر ، وشهيدان دمشقيان ، وثلاثة من شرق الاردن ، وستة جرحى بجراح خفيفة » . وبعد ان ذكر عدد خسائر الجيش البريطاني ... قال « ومن المؤسف ان تخسر بريطانيا مثل هذا العدد من الضحايا في جزء مقدس

من بلاد العرب حلفائها بالأمس واليوم ، في خدمة الصهيونية ، واقامة وطن قومي لها في فلسطين العربية » .

ووقعت معركة « ترشيحا » صباح ٩ سبتمبر (ايلول) ، على جانبي طريق ترشيحا ، من قضاء عكا .

وتعد معركة جبع ، من مواقع الثورة المهمة . خرجت قوة عسكرية ، على اثر اخبارية ، في اصيل يوم ٢٤ سبتمبر (ايلول) ، لقتال فريق من الثوار كان مرابط في سهل قرية جبع ، من قضاء جنين . فاشتبك الفريقان ، وطلب الجند النجدة ، فخرجت قوات من جنين ونابلس تصحبها الدبابات وسبع طائرات.

واشتدت المعركة ، وطوق الجند الثوار ، حتى اضطروهم الى استعمال السلاح الابيض . وعلى اثر ذلك اتت نجدة من الثوار المرابطين في الجبال وطوقوا الجند ، واخلوا نظامهم ، فانقذوا اخوانهم المحصورين . ودام القتال حتى الساعة السابعة مساء ...

وبعد انتهاء معركة جبع بنصف ساعة هاجم الثوار مراكز القوى العسكرية في مدينة نابلس ... وفي الساعة ١١ والدقيقة ٥٠ ارسل قائد قوات نابلس وراء سعادة رئيس البلدية ، سليمان بك عبد الرزاق طوقان . ولما اتى اليه طلب منه ان ينام على سطح كان الجند يتبادلون النيران منه مع الثوار ! بقي سعادة رئيس البلدية بجانب مدفع رشاش حتى الساعة الخامسة صباحا ...

واجاب رئيس البلدية على هذا العمل الغريب ، باعادة الوسام الذي كانت منحته اياه الحكومة البريطانية ، الى المندوب السامي ، وتقديم استقالته من رئاسة المجلس البلدي . وايده اعضاء المجلس فاستقالوا تضامناً معه .

وفي بعد ظهر ٢٤ سبتمبر (ايلول) ، حدثت بالقرب من حلحول ، وهي تبعد اربع كيلومترات عن الخليل ، معركة شديدة دامت طول الليل ، وعلى خط طوله ١٥ كيلومترا . اشترك فيها ١٥٠٠ من الجند ، و ٤٠٠ من الثوار .

شهدت فلسطين فى ٢٩ سبتمبر (ايلول) معركة برقا — بيت امرين (من قرى نابلس) ، التي تعد اهم معارك هذه الثورة واشدها . اشتركت فيها قوى الجيش البريطاني فى نابلس وجنين وطولكرم .

اراد الجنرال ديل ، فى ذلك اليوم، تنفيذ خطة حربية ترمي الى حصر الثوار والقضاء عليهم . وذلك بارسال رتلين من الجند لاحتلال القرى الواقعة على محيط منطقة الثوار، وهي برقة، فندقومية ، جبع ، طلوزه ،عصيره، سبسطية ، و بيت امرين ، ثم الزحف الى مركز قوة الثورة فى « ياصيد ».ويأتي بعد هذا الخط، خط خارجي على محيط الخط الاول من الشرق والشمال ، فيحتل قرى طوباس، سيريس ، جديدة ،ميثلون ، صانور ، عنزا ، عجة. ومهمة هذا النطاق الخارجي منع وصول النجدات الى الثوار ، وعدم تمكن اشتاتهم من الخروج الى خارج المنطقة .

وبعد ان تم الجيش الانكليزي الدور الاول من مهمته، وهو احتلال القرى، بدأ بالزحف حوالي الساعة الثانية عشرة، فاصطدم بخط مخافر الثوار الاماميين، فتراجعت الى خطوط الثوار الدفاعية الامامية .

ابتدأت المعركة ،فتمكن الجيش ، بمساعدة مدفعيته وطائراته، من التقدم وخرق خط دفاع الثوار . فقذفت قيادة الثورة بالاحتياط على جناح الرتل الشمالي الايمن ، وبعد معركة شديدة توقف زحف هذا الرتل ... ووجهت القيادة بعض المفارز الفلسطينية على الرتل الجنوبي فاشتبك واياه وحال دون تقدمه، وبعد استقرار الموقف ووجهت قيادة الثورة مفرزة مختلفة من كافة الثوار ، على منتهى الجناح المتقدم فى اتجاه بيت امرين ...

كانت مواقع شديدة، عنيفة ، دامت حتى الساعة السابعة مساء وانتهت بانسحاب الثوار ورجوع الجيش دون ان يقضي على الثورة ...

وسقط فى هذه المعركة طائرتان ...

وفي اوائل شهر اكتوبر (تشرين الاول)١٩٣٦ ، قدم سعيد بك العاص فلسطين آتيا من شرق الاردن . وتوجه الى جبال الخليل لينظم الجهاد فيها . وفى ٦ منه اتى اليه جاسوس واعلمه ان جماعة غير محافظين على الاضراب . فأستأمن اليه، لظنه اياه من الثوار ، وذهب وبعض رفاقه معه . فقادهم الجاسوس الى قوى الجيش . وبالقرب من بيت لحم اشتبك الفريقان، فقتل سعيد بك العاص ، واصيب عبد القادر الحسيني ، نجل المرحوم موسى كاظم باشا الحسيني ، بجراح واخذ اسيرا . وعرفت الموقعة بموقعة الخضر .

ولد المرحوم سعيد بك العاص في حماة ، وتلقى علومه في دمشق والآستانة واشترك فى حرب البلقان ، وكان من خيرة كبار قواد الثورة السورية، لا يهاب الموت ابدا . وعرف عنه انه ما التقى فى قوة فرنسية الا واشتبك معها، غير ناظر الى البون الشاسع الذي بينها وبين قوته...

وفي ٨ اكتوبر (تشرين الاول)، نشبت معركة كفرصور، التابعة لطولكرم بين دوريات الجند ودوريات الثوار ، اشتركت فيها عشر دبابات، استولى الثوار على واحدة منها وعطلوا اثنتين . ودام القتال حتى الساعة التاسعة ليلا ...

وفى فجر ٩ اكتوبر (تشرين الاول)، قام الجيش بحركة تطويق مراكز الثوار بقوة قيل ان عددها بلغ عشرة الاف . فارسلت قيادة الثورة مفرزة من الثوار ، الى خارج النطاق الذي يريد الجند احتلاله ، فاشتبكت معهم ، ودام الاشتباك مدة ثلاث ساعات . ثم خرجت مفارز من الثوار لتخريب الطريق التي كان يأتي منها الجند من قلقيلية ونابلس . فانشطر الجيش ولم يقترب من مراكز الثوار ، التي كانت ممتدة من كفرصور الى كفر عبوش . وعاد الجيش الى مراكزه مع مغيب الشمس ...

وفى ١٩ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٦ طلب ملوك العرب وامراؤهم من اهل فلسطين الخلود الى السكينة ، والاعتماد على حسن نوايا الحكومة البريطانية ...

وعلى اثر ذلك اصدرت قيادة الثورة فى ١٢ منه ، بلاغا تطلب فيه من المجاهدين الكف عن القتال، تلبية لنداءآت ملوك العرب وامرائهم، ونزولا على طلب اللجنة العربية العليا .

وغادر على اثر ذلك فوزي بك القاوقجي ، فلسطين الى العراق . فنزل ضيفا مكرما على حكومتها ، وشرفه جلالة الملك غازي بمقابلته له ...

دامت الاضطرابات والثورة فى فلسطين مدة ستة اشهر، لم تتمكن الحكومة خلالها من القضاء على الثورة واعادة الامن بالقوة ، لان الشعب العربي كان وراء الثوار ، ولان المجاهدين ابدوا بسالة ومهارة فى قتالهم ، ولان الجند البريطاني لم يحارب عن طيب خاطر . بل كان مرغما على خوض المعارك ، لعلمه انه لا يحارب فى سبيل المصالح البريطانية . اذ العرب لا يحاربون بريطانيا . ولا يريدون ايقاع الضرر بمصالحها. انما هم يحاربون الاستعمار اليهودي ، والسياسة الصهيونية . ولولاها لعاش العرب مع الانكليز فى ود وسلام ...

٤

جنود الثورة

لم تكن الثورة الفلسطينية قاصرة على طبقة خاصة من السكان ، بل اشترك فيها كل عربي وعربية، من اهالى فلسطين على اختلاف طبقاتهم : من مسلمين ومسيحيين .

لا خلاف بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين في فسلطين ، وكلاهما يتبعان خطة قوميةواحدة . وكل دعاية ترمي الى الايهام بان بينهما تنافسا وعداء ، هي دعاية كاذبة ، غايتها تحويل قضية فلسطين السياسية الى مسألة دينية ، ودفع مسيحيي اوروبا للعمل ضد الاكثرية المسلمة من العرب.

وخير دليل على ان لا انقسام بين عرب فلسطين المسلمين والمسيحيين ، هو

عملهم المشترك في جميع حقول القضية الفلسطينية.وجميع هيئاتهم السياسيةمؤلفة من مسلمين ومسيحيين . وقد قام مسيحيو فلسطين من العرب، بارسال النداءات الى رؤساء الدين المسيحيين في الغرب ، وخصيصا الى البابا والى « رئيس اساقفة كنتربيرى »،طالبين العطف على القضيةالفلسطينيةالعربية. وقد كتب «مارتان روفين » Martin Roffen «اسقف روشيستر » ، في جريدة التايمس ، وغيرها من الصحف والمجلات الانكليزية ، مدافعا عن قضية العرب فى فلسطين ...

لعب الفلاح العربى فى فلسطين،الذي ادعت الصهيونية انه لا يهتم بالسياسة، في هذه الثورة دورا هاما وعجيباً . وكان المعروف عنه انه يهاب « الدولة ». ويخشى سلطانها ، ولا يجرؤ على القيام بما يغضبها ويسخطها عليه . غير اننا رأينا هذا الفلاح ، اثناء الثورة،ينهض بكل جرأةوشجاعة،ويحمل البندقية...مضحياً بنفسه دفاعا عن وطنه وحقوقه ..

وهو لم يقم بذلك مدفوعا ، او لقاء مكافأة او مال . بل قام به من تلقاء نفسه ، وتكلف جميع نفقاته ، رغم فقره المدقع ، ورغم خسرانه قسما من مزروعاته . وتروي في هذا الصدد قصص وحكايات واقعية كثيرة . منها ان اخوين من الفلاحين الفقراء ارادا الانضمام الى الثوار ،غير انهما لا يملكان سلاحا . فباعا كل ما يملكان بسبعة جنيهات ، وذهبا فرحين ليشتريا بندقية .وما كان اشد خيبتهما عندما علما ان ثمن البندقية، مع عدد من الرصاص يعادل ١١ جنيها .غير ان البائع، امام وطنيتهما العظيمة،وحماسهما الشديد ،اخذ منهما السبعة الجنيهات واعطاهما البندقية وما يتبعها من ذخيرة . فذهبا شاكرين ،واتفقا على ان يذهب كل منهما الى الجبال يومياًبالتناوب ... وجاء ذات يوم مخبر يعلم احد الشبان الفلاحين ان والده قد استشهد في ساحات القتال . فكان جواب الشاب رحمة الله عليه ، ولكن اين بندقيته!...

واشترك الشباب ، على اختلاف طبقاته ، في هذا النضال القومي .فكثيرون

من حملة الشهادات وابناء العائلات التحقوا بالجبال...اواشتغلوا بتنظيم الاضراب والسهر عليه ، وتغذية الروح الوطنية بما يكتبون ويخطبون ...

وحفزت الروح الوطنية بالطلاب الى ميدان العمل،داخل فلسطين وخارجها. فاشتركوا في الاضراب والمظاهرات ، وكان منهم من التحق بالثوار واستشهد في الجبال ... ذهب الجند لتفتيش قرية طرعان قرب الناصرة . وعند مدخلها لحظوا بين اشجار الزيتون من كمن لهم وسدد بندقيته اليهم ، فاطلقوا عليه النار فاصابوه . ثم اقتربوا منه فوجدوه طفلا ، لا يتجاوز عمره التاسعة،مزقت الرصاصة ساقه اليسرى وفحص الجند البندقية فوجدها خالية من الرصاص. فقبل قائد القوة الطفل وعيناه تدمعان ، وحمله في سيارته وعاد به الى المستشفى الانكليزي لتضميض جراحه ...

وقام الطلاب الفلسطينيون في الجامعات الغربية بقسط مما عليهم من واجب نحو وطنهم ... ومن ذلك ان « الجمعية العربية في بريطانيا العظمى » التي كنت رئيسها ، والمؤلفة من الطلاب العرب الفلسطينيين في بلادالانكليز ، قامت بنشر الدعاية في بلاد الانكليز ، وعلى صفحات الصحف الفرنسية ، للقضية العربية الفلسطينيه ، لايقاف الرأي العام الغربي على حقيقة الحال في الاراضي المقدسة. وارسلت النشرات والاحتجاجات الى رئيس الوزارة،ووزير المستعمرات في لندن، والمندوب السامي في فلسطين ، والى بعض المؤسسات السياسية . وجمعت،من بين اعضائها ، مبلغا من المال ارسلته الى القدس ليصرف على المحتاجين ...

ولم يتوان اهل المدن عن واجبهم . فمنهم من حمل السلاح ، ومنهم من تطوع للعمل بجهوده السلمية ، او بمساعداته المالية ...

وقام الموظفون ببعض واجبهم . فقدموا اعانات مالية لصناديق الاعانات، ورفعوا الى الحكومة مذكرتين ، واحدة من كبار الموظفين (١) ، كان لها وقع عظيم في الدوائر السياسية البريطانية ، واخرى من صغار الموظفين . ابانوا

(١) راجع الملحق الثالث .

فيهما مساوىء الحكم القائم في فلسطين ، والاضرار التي لحقت بالعرب منه .

وكانت النساء من جنود الثورة . فالقرويات منهن كن يمددن الرجال في الجبال بالمؤن ، ويشجعنهم ... وكن على جلد وصبر فائقين حد الوصف . ففي بعض الاحيان كان الجند يأتون بجثث بعض الشهداء ، ويعرضونها على اهل القرى المجاورة للموقعة ، ليتعرف عليها اهلها . فكانت الامهات والزوجات والشقيقات يرين جثة ابنائهن وازواجهن واشقائهن ، فتتقطع قلوبهن حزنا والماً ثم لا يظهرن انهن يعرفن القتلى ! لقد ملكن عواطفهن مع شدة آلامهن ، وامام رؤية اعز مخلوق عليهن ، مشوها ومسجى امامهن . وصبرن على رؤية الجند يعاملون الجثث بخشونة ومن غير احترام ، خوفا من ان تتعرف الحكومة على اهل الشهيد وقريته ، فتوقع بها اعظم الشدائد . وكن يسرن في الجنازة « مزغردين » بدل العويل والبكاء !...

وقامت السيدات في المدن بالمظاهرات ، وارسال الاحتجاجات والبرقيات الى الوزارة البريطانية وبرلمانها ، وملكها ، والى ملوك العرب وامرائهم . وقمن بجمع الاعانات من نقود وثياب ، وتفريقها على المعوزين من الشعب . وكثيرات من السيدات تبرعن بحليهن ...

فالثورة الفلسطينية كانت ثورة شعب برمته ، متوحد الصفوف ، يرمي الى غاية واحدة : المحافظة على فلسطين عربية ، وانقاذها من مطامع الصهيونية .

٥

موقف الحكومة واعمال اليهود

اقل ما يقال في موقف الحكومة الفلسطينية ازاء الثورة ، انه لم يكن مشرفا ، وان الحكومة لم تكن منصفة . فقد لجأت الى سياسة البطش والازهاق لاسكات الشعب العربي ، الذي لا يطلب غير العيش بحرية وسلام في بلاده العزيزة

عليه ، بدلا من ازالة الاسباب الدائمة للاضطرابات في فلسطين. ولتنفيذ هذه السياسة سنت القوانين الجائرة التي تجعل من المندوب السامي دكتاتورا اوسع سلطة من موسوليني وهتلر ا .

وخولت الحكومة حكام الاقضية والبوليس السلطة في فرض الغرامات ومصادرة الاموال والاملاك،والتفتيش،والقاء القبض ،والاعتقال لمجرد الشبهة. وقد اساء بعض ضباط البوليس استعمال هذه الصلاحية الواسعة ،واتخذوها وسيلة للانتقام الشخصي ، او التقرب من الحكومة والحصول على الاوسمة والترقية... وامتلأت السجون بألوف المساجين الذين القي القبض عليهم لاشتباه البوليس في حركاتهم (١) . وجعلت الحكومة من عوجا الحفير ، على الحدود المصرية، معتقلا للسياسيين . ثم عدلت عنه ، نظراً لبعده ، واقامت معتقلات في صرفند بالقرب من الرملة ، (براكات من الخشب) ملأتها بالمعتقلين الذين بلغ عددهم ٤٠٠ (٢)

وانتشرت في البلاد عمليات التفتيش وساء استعمالها . فكان الجنود والبوليس يدخلون البيوت ويكسرون ويتلفون كل شيء فيها... ورأى جندي ذات يوم ، رجلا يضع شيئا في حفرة احتفرها بجانب بيته ، فاطلق عليه الرصاص فوقع صريعاً . وبعد البحث تبين ان هذا المسكين سمع بان الجند سيفتشون الحي الذي هو فيه . فاراد المحافظة على زيته القليل من ان يريقه الجند ، فوضعه في حفرة...

ومن توابع « عمليات التفتيش » ان داهم بوليس انكليزي وبوليس عربي

---

(١) كان مجموع من اوقفوا حتى ٢٠ (ايلول) ٢٦٤٣ عربيا ، حكم على ١٦٤٦ باحكام مختلفة ، وبرىء ٧١٠ منهم . وكان عدد من اوقف من اليهود ٣٤٦ شخصا ، حكم على ٢١٨ باحكام مختلفة ، وبرىء ٧١ شخصا .

(٢) اخلي معتقل صرفند نهائيـا في ١٠ (تشرين الثاني) ١٩٣٦ . واستعيض عنه بسجن عكا.

بيتا في قرية قاقون . فوجدا رب البيت يصلي ، فتراجع البوليس العربي، محمود خليل عامر ، منتظراً انتهاء الصلاة ليقوم بالتفتيش . فما كان من البوليس الانكليزي الا ان اطلق عليه النار فقتله !... وكان من نتيجة هذه الحادثة ان اضرب معظم البوليس العربي فى فلسطين، محتجين على معاملة البوليس الانكليزي لهم .وقدموا الى الحكومة مطالب اجابتهم اليها ، خلا طلبهم في الانفصال الكلي ، اثناء القيام بوظيفتهم ، عن البوليس الانكليزي .

وأخذ حكام الاقضية يرهقون المدن والقرى بالغرامات الكبيرة ...فرفعت مدينة غزة دعوى على الحكومة امام محكمة العدل العليا ، فرفع قاضي القضاة البريطانى النزيه ، السير ميخائيل ما كدونل ، الغرامة عنها ، في حكم جريء اظهر فيه ان الغرامة غير قانونية (١) .

ولما لم تقف اعمال العنف ، اخذت الحكومة تنسف كل بيت خرج منه او بقربه عيار نارى ، او اشتبه به. فنسفت بيوتاً كثيرة جداً ، بما فيها من اثاث ومتاع ! ولم يكفها ذلك ، فأعلنت ان للحاكم السلطة في نسف اي بيت شاء في المدينة او القريه كلما خرج عيار ناري ! . ولكن الثورة لم تهدأ ، وقد نسف في كثير من القرى خير البيوت واحسنها ...

ثم اخذت الحكومة تقذف القرى التي يشتبه بان لرجالها يدا في اعمال العنف بالرصاص والمدافع الرشاشة ، ونسف خير بيوتها بالديناميت . والامثال عديدة منها فاجعة قرية « قولة » : موجزها ان النار اطلقت على مفرزة من الجند البريطانى، كانت تتجول في القرى المجاورة للرملة واللد .فاشتبه الجند بقرية «قولة»، فهاجموها من جميع انحائها ، حوالي الساعة العاشرة والنصف من مساء يوم السبت الواقع في ١١ يوليو (تموز) ١٩٣٦ ، واطلقوا عليها الرصاص من بنادقهم

---

(١) صدر هذا الحكم في ٣١ يوليو (تموز) ١٩٣٦ .

ودباباتهم مدة خمس ساعات متوالية . فقتلوا طفلا عمره خمس سنوات وامرأة، واصابوا آخرين من نساء ورجال بجراح خطرة . كما انهم قتلوا عددا كبيرا من حيوانات الزراعة .

وفي منتصف الساعة الخامسة صباحا عادت القوة الانكليزية نفسها . اي بعد مغادرتها القرية بساعة ، وقامت بعملية التفتيش ...

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم الاثنين جاء الى القرية حاكم اللواء الجنوبي مع قوة عسكرية كبيرة ، واحضر مخاتير القرى العربية المجاورة ، ليروا ما يحل بقرية قولة . وامر بهدم اربعة بيوت، شهد الجند بان رصاصا اطلق عليهم منها ، فنسفت بالديناميت فورا ، دون ان تسمع اقوال اصحابها ، ومن غير ان يسمح لهم باخراج مؤنتهم وثيابهم ...

وما نسف قسم كبير من مدينة يافا القديمة الا اثرا ظاهرا لاعمال الحكومة القاسية ، التي لن ينساها التاريخ . والذي زاد في بشاعة هذا العمل الطريقة التي عمدت الحكومة اليها : انذار السكان ، بواسطة مناشير القتها الطائرات صباح ١٦ يونيو (حزيران) ١٩٣٦ ، بوجوب اخلاء بيوتهم ، لتنفيذ « مشروع يرمي الى توسيع وتحسين المدينة القديمة في يافا . » (١) . ومن غريب الامر ان هذا المنشور الذي ينص على القيام بهذا العمل الخطير ، لم يكن موقعا . وقد اصدر القضاء العادل النزيه الممثل في شخص قاضي القضاة ، السير مخائيل ماكدونل،

---

(١) اليك نص المنشور الذي القته الطائرات على سكان المدينه القديمة « ان الحكومة على وشك البدء في مشروع يرمي الى توسيع وتحسين المدينة القديمة في يافا . وذلك ببناء طريقين يفيدان كلا من الحي والمدينة . وستكون الخطوات الاولى الضرورية هدم وازالة بعض الابنية الموجودة المزدحمة وغير الصحية . ويستفاد الان من وجود فرقة المهندسين الملكية في فلسطين للبدء في هذه الاعمال . وستدفع الحكومة تعويضات لاصحاب الاملاك . وستنظر كل حالة بمفردها وحسب استحقاقها . وستقوم القوات العسكرية باعمال الهدم . ان سكان المدينة القديمة المحافظين على القانون سوف لا يصيبهم ضرر ، ولكن اذا حصلت مقاومة فان العسكرية تستعمل القوة للقيام بالعمل » .

حكمه القاضي على هذا العمل المخالف للقانون ، منددا بالطريقة التي اتبعتها الحكومة وكذبها على الشعب ، بان الغاية من الهدم « توسيع وتحسين المدينة القديمة » (١) . وقد اثبت بيان وزير المستعمرات انه لم يكن المراد من نسف المدينة التحسين والتجميل ، وانما هو الارهاب والانتقام والتشفي ! ومما جاء في بيان السير اورمبسي غور في مجلس العموم يوم ١٩ يونيو (حزيران) « ان الحالة في يافا كانت منذ بدء الاضطرابات خطرة جداً . وقد اغتنمت حكومة فلسطين فرصة وجود فرقة المهندسين الملكية ، لفتح شارعين يؤديان الى الميناء داخل مدينة يافا القديمة القذرة ... واخليت هذه المنطقة المزدحمة بالابنية القذرة ونسفت ، بعد ان كانت مركزا للمترصدين ، وملجأ الخارجين على القانون ، لا يستطيع رجال البوليس الدخول اليها » . (٢)

ولما لم تفلح الحكومة الفلسطينية في تهدئة الحال واعادة السلام رغم جميع اعمالها الارهابية القاسية ، عمدت الى التفرقة بين الشعب . فاخذت طائراتها تلقي المناشير على الفلاحين ، حاضة اياهم على السكينة ، وقائلة لهم بان اعمال العنف لا تعود عليهم الا بالضرر والخسران (٣) ... واخذ حكام الالوية يتجولون في

---

(١) راجع قراري قاضي القضاة والقاضي البريطاني الاول . الملحق الثاني .

(٢) كان نسف المدينة للمرة الاولى يوم ١٨ يونيو (حزيران) ، واعيد النسف للمرة الثانية في ٢٩ و٣٠ منه . وتناول النسف ٢١٣ قسيمة . في كل قسيمة عمارة او اثنتان . وتتألف كل عمارة من طبقتين على الاقل . وبلغ عدد الذين اصبحوا دون مأوى ستة الاف . وتقدر الحكومة مبلغ التعويض عن الدور المهدومة والتي تضررت ب ٢٩٢٠٩ جنيها . وعن الاموال المنقولة ب ٢٥٨٧ جنيها . ولا تزال الحكومة تخمن مبالغ التعويض عن اوض العمارات التي هدمت . وبلغ عدد الطلبات بالتعويض ١٢٩٨ طلبا .

(٣) اليك نص المنشور الاول : « من الذي يخسر بسبب الاعمال الخارجة على القانون القائمة الآن ؟ . ان الرجل الغني يعيش مرتاحا في المدينة . هو لا يعرض اسباب معيشته للخطر ولكنه يطلب الى الرجل الفقير ان يفعل ذلك . ان الذي يخسر هو ذلك التاجر الصغير الذي اجبر على اغلاق دكانه . ان الذي يخسر هو ذلك البائع الصغير الذي تتلف بضائعه فيما لو حاول بيعها . ان الذي يخسر هو الفلاح الذي لا يستطيع ان يبيع محصولاته في السوق . اليس بصحيح ؟ ان الرجل الفقير هو الذي يخسر دائما . ومع ذلك فان كل هذه الاعمال لا طائل تحتها . فحالما يستتب النظام تقوم لجنة ملكية بالتحقيق الوافي في ظلامات العرب بدون تحيز او محاباة . لكن هذه

القرى طالبين من الفلاحين الاخلاد الى السكينة ، لافساح المجال لمجيء اللجنة الملكية ... فلم يصلوا الى الغاية التي كانوا يتوخونها .

وفرضت حكومة فلسطين رقابة شديدة على جميع المخابرات مع الخارج ، فكانت الاخبار التي تصدر عن فلسطين غير موافقة لحقيقة الحال فيها ...

* * *

لقد ردد المندوب السامي في فلسطين ووزير المستعمرات البريطاني، الثناء على اليهود لما ابدوه ، حسب رأيهما ، من ضبط النفس والامتناع عن اعمال العنف والتخريب ! .

لم يكن اليهود بحاجة الى القيام باعمال العنف والتخريب، فقد اغنتهم الحكومة عن ذلك ، ونفوذهم عليها معروف ، وقامت باعمال لا يستطيع اليهود القيام بها.

ومع ذلك فان اليهود قاموا بأنفسهم باعمال جنائية عديدة ، زيادة على انهم هم الذين ابتدأوا بالعدوان ، واشعلوا نيران الثورة ، كما ايد ذلك بلاغ وزير المستعمرات السابق مستر توماس . فقد ابتدعوا اعمال تخريب جديدة لم تعهدها فلسطين في اضطراباتها السابقة ، وهي احراق البيوت والممتلكات . وكان اول ضحية هذه الاعمال ، بيت لعربي مؤلف من طبقتين ومجاور لتل ابيب اليهودية. احرقه اليهود صباح يوم الاثنين ٢٠ مايو (ابريل) ١٩٣٦.وحاولوا قبيل ذلك الهجوم على صاحب البيت وعائلته والفتك بهم، فجاء البوليس على استغاثتهم وانقذهم.

ويزيد في فظاعة هذا العمل ان صاحب هذا البيت ، واسمه « سالم ابو النيل » كان يحمي ، في الاضطرابات السابقة، عددا من العائلات اليهودية ، ويبقيهم في بيته حتى تهدأ الحال ، ثم يرسلهم الى حيث يأمنون . ولقد تلقى كتب شكر على ذلك من هذه العائلات ، ومن رئيس بلدية تل ابيب.

احرق اليهود بيوتاً عديدة للعرب معظمها في منطقة تحد تل ابيب ، كانت

اللجنة لن تأتي الى البلاد الا بعد ان يستتب النظام . انكم لن تجنوا شيئا من مواصلة الاضراب فهو انما يسبب التعب لكم ولقريتكم . الزموا الهدوء والسكينة ، ودعوا التحقيق يبدأ .

الحكومة قد اخلتها من السكان،ومنعت الدخول اليها ، وجعلتها منطقة حياد، منعاً للاتصال بين العرب واليهود . غير ان اليهودقدتمكنوامن دخولهاواحراق بيوت عديدة رغم حراسة البوليس اليهودي لها ! ... وقدزاد في النيران رجال الاطفاء والكشافة اليهود . اذ كان يسمح لهم بدخول منطقة الحياد للاسعاف واطفاء الحرائق ، وبعد وصولهم كانت تظهر حرائق جديدة في دور العرب ! .

ومن غريب الامر ان بيوتاً للعرب فيهذه المنطقةقدهدمت بالمعاول ! والهدم بالمعاول يقتضي وقتاً ويحدث اصواتا ، فاين كان البوليس اليهودي الذي كان يقوم على حراسة هذه المنطقة ؟!

وبلغ عدد البيوت التي احرقت ، في هذه المنطقة حتى ١٥ اكتوبر ، ٩٩ بيتاً ، حسب احصاء بلدية يافا .

واتخذ اليهود من نظام منع التجول ، الذي حرم على العرب الخروج من بيوتهم بين الساعة السابعة مساء والخامسة صباحا ، والذي لم ينفذ على حي تل ابيب المحاذي لمدينة يافا ، فرصة للتسلل ليلا الى الاحياء العربية الخالية من المارة ، والقاء القنابل في الدور العربية . ثم زادت جرأتهم فاخذوا يلقون بتلك القنابل نهارا . فذهب عدد من رجال ونساء واولاد ضحية اعمالهم الاجرامية.

وكانوا يغتالون كل عربي ، رجلا او امرأة ، انفرد بينهم او مر بطريقهم . وقد دون البوليس حوادث عديدة من هذا القبيل .

ولم يكتف اليهود بالاغتيالات الفردية ، بل اخذوا يهاجمون ، على حين غرة، جماعات من العرب ويرمونهم بالقنابل والرصاص . ومن ذلك انه كان يسكن، قرب مستعمرة ملبس ، فريق من اهل العريش والبدو ، في نحو خمسين بيتاً من الشعر . وفي الساعة الخامسة والربع من صباح يوم الثلاثاء ١٨ اغسطس (آب) ١٩٣٦ ،وبينما كان سكان هذه الخيام في حالةاطمئنان ، وقفت سيارة على رأس رابية تعلوا الخيام ، ونزل منها ثمانيةاشخاص من اليهود ، واحاطوا الخيام والقوا

عليها عشرة قنابل ، ثم اخذوا يطلقون على الخيام الرصاص من مسدساتهم، فقتلوا طفلا ، واصابو بجراح خطرة شابا وامرأة وفتاة . ثم استقلوا سياراتهم وعادوا من حيث اتوا ...

ومن الغريب ان البوليس لم يحضر قصاص الاثر او كلابه لتعقيب آثار المجرمين ، والاستدلال عليهم ، بل اكتفى بجمع شظايا القنابل وكمية وافرة من خراطيش مسدسات فارغة !.

ومما تجدر ملاحظته ان بقرب الحادثة بيارة ليهودي مقطوعة الشجر، وكان سطح بيتها مملوءاً بالبوليس اليهودي الاضافي ، وقد سمع دوي القنابل، وازيز الرصاص ، فلم يحرك ساكنا ؟! مع العلم بان السيارة التي نقلت المجرمين الى مكان الجناية مرت من اواسط هذه البيارة ؟!...

واعمال الاغتيال والتخريب التي قام بها اليهود اثناء ثورة فلسطين الاخيرة عديدة ، يضيق المقام عن سرد حوادثها . فغريب والحالة هذه ان نرى وزير المستعمرات ،السير اورمسبي غور،والمندوب السامي ، يشكران اليهود على موقفهم المسالم ، وعلى ضبطهم لعواطفهم !. واغرب من هذا كله موقف حكومة فلسطين امام هذه الاعمال الاجرامية . اذ هي لم تطبق قوانينها الصارمة على اليهود . فلم تفتش المارة من اليهود ، ولم تبحث عن الجناة منهم . ولم تهدم البيوت اليهودية التي اطلق منها الرصاص ، بل لم تجرؤ حتى على تفتيشها . وقد اكد خبراء ان القنابل التي كان يلقيها اليهود على العرب ، لم تصنع في الخارج ، بل صنعت في فلسطين . فلم تقم الحكومة باي عمل لاكتشاف المصانع اليهودية التي كانت تصنع تلك القنابل . وذهبت في محاباتها لليهود الى درجة انها لم تذكر في بلاغاتها الرسمية ان اليهود قاموا بتلك الاعتداءات او الجنايات ضد العرب ، واكتفت بذكر الحوادث ومواقعها بصفية المجهول !.

ولاظهار محاباتها الجلية لليهود ، وشدة قساوتها على العرب ، يكفي ان نذكر

حادثة قطار يافا ـ تل ابيب ، وحادثة الممرضتين :

في ١٦ اغسطس (آب) ١٩٣٦ طلبت الوكالة اليهودية من الحكومة ايقاف القطار السائر بين يافا وتل ابيب ، فتصبح مدينتهم نهاية خط سكة حديد القدس بدلا من يافا ، مهددة اياها بانها ان لم توقفه ساءت العاقبة !...فلم تلب الحكومة طلب الوكالة اليهودية فورا . وخرج قطار يافا كعادته صباح الاثنين ١٧ اغسطس (آب) ، خالياً من المسافرين اليهود ، وما كاد يدخل الحي اليهودي، حتى اخذ اليهود يرمونه برصاص المسدسات الاتوماتيكية الكبيرة بكثرة، من وراء حائط الخط الحديدي، فقتلوا رجلا ارمنيا، واصابوا آخرين من العرب وجنديا بريطانيا بجراح خطرة. وتوفى احد الجرحى العرب في الايام التالية .

ومن الغريب ان الجند البريطاني، الذي كان يركب عربات القطار للمحافظة، لم يجب على طلقات النيران بالمثل ، كما هي عادته عندما يطلق العرب النار على قطارات البضائع ! وفهم ان سبب ذلك اوامر تمنع الجند من اطلاق الرصاص على اليهود مهما كان الداعي لذلك ؟! . ولم تقم الحكومة باحاطة المكان الذي القي منه الرصاص على القطار ، ولم تفتش ذلك الحي ، ولم تهدم البيت الذي اطلقت النيران بقربه ، كما كانت تفعل في الاحياء العربية . لم تقم باي عمل من هذا، حتى ان البوليس لم يفتش المارين في ذلك المكان ؟! .

وبعد يوم من حادثة القطار قتل في يافا يهوديتان كانتا تشتغلان ممرضتين في المستشفى البلدي . فاستفظع العرب هذا العمل ، واعلنت دوائرهم السياسية استياءها رسميا . . .

وما كادت الحكومة تسمع الخبر حتى اخذ البوليس يوقف المارين في ذلك المكان ، ويفتشون جميع بيوت ذلك الحي . وقد اصدر حاكم اللواء ، صباح اليوم التالي ، امرا بمنع جميع سكان المدينة من مغادرة بيوتهم بين الساعة التاسعة صباحا حتى الساعة الخامسة صباحا من اليوم التالي . اي انه حبس جميع سكان المدينة،

ودام ذلك يومين متتابعين ، تضرر فيهما السكان اضراراً متنوعة ...

امام هذا الفرق الشاسع بين معاملة الحكومة للعرب واليهود في فلسطين، يتساءل المرء اين هي العدالة البريطانية ؟ الا يرسخ تحيز الحكومة هذا ، في ذهن العرب بان الحكومة البريطانية اداة في يد الصهيونية ، تعمل على قهر عرب فلسطين وارغامهم على الجلاء عن ديارهم ؟... ما هي الفائدة ، امام هذا التحيز الصارخ ، من اقوال وزير المستعمرات البريطاني، ومن تصاريح المندوب السامي، القائلة بان الحكومة البريطانية لا تفضل فريقا على آخر ، وتريد اجراء العدالة وانصاف كل من المتخاصمين ؟!...

مما لا شك فيه انه كان في الامكان تلافي ثورة فلسطين وتهدئة الاعصاب الهائجة ، وطمأنينة النفوس القلقة ، والحيلولة دون ازهاق ارواح بريئة ... وذلك باتباع الحكومة البريطانية سياستها الحكيمة القائمة على حل المشاكل عن طريق سلمي . كان في امكان حكومة بريطانيا ان تحول دون ثورة فلسطين وذلك بايقاف الهجرة اليهودية . وكان فخامة المندوب السامي ، السير ارثر واكهوب ، وكثير من المفكرين الانكليز ، يميلون الى هذا الحل . وكتب بذلك مرارا مراسلو الصحف الانكليزية لا سيما مراسل التايمس . غير ان الحكومة البريطانية ، وعلى الاخص وزير المستعمرات ، فضلت اتباع سياسة الحديد والنار لاعادة السلام الى فلسطين ، بدعوى انها لا تخضع لاعمال العنف والتهديد . ولكن هل يعد رجوع الحكومة البريطانية الى الحق ، وانصافها عرب فلسطين ، خضوعاً لتهديد ؟! التهديد لا يكون الا من ند لند . فاين عرب فلسطين الضعفاء من الامبراطورية البريطانية .

الحقيقة ان حكومة لندن آثرت سياسة النار والحديد ، على حل المشاكل عن طريق سلمي لسببين :

اولهما ان للصهيونية نفوذاً كبيراً على الحكومة البريطانية، وهي لا تستطيع القيام بعمل في فلسطين لا يكون رجال الصهيونية راضين عنه . والصهيونيون

يريدون قهر العرب واذلالهم ، ليزيلوا كل ثقة لهم بانفسهم ، وكل امل لهم في المحافظة على حقوقهم فى بلادهم ، وعلى عروبة فلسطين ...

وثانيهما ان الحكومة البريطانية كانت حينئذ خارجة من ازمة سياسية دولية ، إضعفت نفوذها ، وخففت من الهيبة الدولية الرهيبة التي كانت لها ... فعز عليها اتباع سياسة حل المشاكل عن طريق سلمي مع عرب فلسطين الضعفاء ...

٦

موقف البلاد العربية ونهاية الثورة

مجيء اللجنة الملكية

لم ترض البلاد العربية قط عن السياسة الصهيونية. والعرب يرون فيها خطراء ليس على فلسطين فحسب، بل على مستقبل جميع البلاد العربية الاقتصادي والسياسي ...

ولما شبت نيران الثورة فى الاراضي المقدسة ، وجه العرب والمسلمون انظارهم وقلوبهم نحو فلسطين . وعقدوا الاجتماعات ، وصاحوا بحياة فلسطين عربية ، وارسلوا الاحتجاجات الى الدوائر البريطانية الرسمية . ثم اخذوا يمدون فلسطين بالمال والرجال . فودع مئات من الشبان والرجال عائلاتهم ، وغادروا بلادهم قادمين الى نجدة اخوانهم في فلسطين . ويمكن القول ان الثورة العربية الاخيرة في فلسطين ، لم تكن ثورة اقليمية ، بل كانت ثورة جميع البلاد العربية ضد الاستعمار الصهيوني ، وضد السياسة الانكليزية فى فلسطين . واذا استمرت حكومة جلالته على تنفيذ السياسة الصهيونية ، فستقابل مصاعب ليس فى فلسطين وحدها بل فى جميع البلاد العربية والاسلامية . وسترغم صديقها العربي على نزع ثقته منها ، ومصافحة يد اخرى ...

ولم يقتصر عطف البلاد العربية على فلسطين ، على الافراد والجماعات ، بل تعدتها الى الهيئات السياسية الرسمية والى الملوك والامراء . فقد اخذ اعضاء

البرلمانات في مصر وسوريا والعراق ، يلقون اسئلة عديدة على حكوماتهم ، فيما يتعلق بحالة فلسطين ، والاعمال التي تنوي الحكومة اجراءها ، لتخفيف الشدائد التي يقاسيها اخوانهم العرب فيها .

وقدم صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا الى الحكومة البريطانية ، بصفته رئيس الوفد المصري ، مذكرة قال فيها : « ان مصر التي لا تستطيع ان تقف مكتوفة الايدي تجاه ما يجري في فلسطين، تعتبر ان الحكومة البريطانية ، التي تتخذ من وعد بلفور وسيلة تبرر بها سياستها ، قد نفذت هذا الوعد الجائر وبرت به ، وذلك بادخالها هذا العدد الضخم من المهاجرين اليهود الى فلسطين، وتمليكهم هذه المساحات الواسعة من اجود اراضيها ... » . ودافع مسلمو الهند عن عرب فلسطين واظهروا عطفهم الشديد على قضيتها . فعقدوا مؤتمرا في دلهي ايام ١٦ و١٧ و١٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٦ ، برئاسة السيد سليمان الندوى اسموه « مؤتمر فلسطين » . وحضر هذا المؤتمر ما ينيف عن ٣٥ الف . واتخذ فيه المؤتمرون مقررات عنيفة ضد الانكليز ، كان لها صدى في الدوائر الانكليزية، كما انهم انذروا اليهود من ان يكونوا صنائع الانكليز ضد العرب .

وتوسط سمو الامير عبد الله بين اللجنة العربية العليا ، والمندوب السامي ، وعمل على ايجاد حل للازمة الفلسطينية ، فتقابل مع اعضاء اللجنة العليا اكثر من مرة ، وحادث المندوب السامي مرارا ...

وتداخل ملوك العرب، اصحاب الجلالة الملك عبد العزيز بن السعود، والملك غازي والامام يحيى ، بالقضية الفلسطينية مباشرة ، فوضعوا مذكرة مشتركة ارسلوها الى جلالة ملك بريطانيا ، مبدين فيها رأيهم في القضية الفلسطينية .

وعقد صباح ١٨ اغسطس (آب) ١٩٣٦ اجتماع خطير في بغداد، برئاسة جلالة الملك غازي ، حضره وزراء العراق وسفير بريطانيا ، وبحثوا فيه قضية فلسطين. وعلى اثر هذا الاجتماع قدم القدس في ٢٠ منه السيد نوري السعيد،

وزير خارجية العراق حينئذ ، ليتوسط بين الشعب العربي في فلسطين وبين الحكومة البريطانية ، لايجاد حل مشرف ، وانهاء الثورة .

حادث فخامة الوزير العربي المندوب السامى مليا ، وتقابل مع اعضاء اللجنة العربية العليا ورجالات البلاد . فعرض عليهم رأيه ، الذي هو نتيجة لمحادثاته مع الانكليز ، وخلاصته ان توقف اللجنة العربية العليا الاضراب والاضطرابات فتوقف الحكومة الهجرة اليهودية موقتا ، وتقوم حكومة العراق بالسعي لدى الحكومة البريطانية لتحقيق مطالب فلسطين المشروعة .

وكان اعتراض اللجنة العربية العليا ان ذلك ليس بالحل النهائي للقضية الفلسطينية ، وهو يقضي بالكف عن النضال مقابل وعود ، والشعب العربي في فلسطين بات لا يثق بالوعود الانكليزية ولا يركن اليها. فوضعوا تحفظاتهم، وارتأوا ان يكون التوسط باسم ملوك العرب الثلاثة وامير شرق الاردن ، لا سيما وان جلالة الملك عبد العزيز كان ، قبل شهر ، عرض توسطه على الاساس الذى عرضه فخامة نوري باشا السعيد . فاعلم فخامة الوزير اللجنة بان اختباراته تمكنه من القول بأن لا امل فى تحقيق تحفظاتها ، وانه بكل سرور ، يقبل فى ان تكون الوساطة باسم ملوك العرب وامرائهم ، وانه سيتخذ الخطوات اللازمة لذلك .

وفى صباح الاثنين ٢٤ اغسطس (آب) تحدث الوزير مع المندوب ، ثم طار الى عمان لمقابلة سمو الامير عبد الله ، ومنها ذهب طائرا الى الاسكندرية لزيارة نجله ، تاركا للجنة العربية العليا وقتاً للتفكير، ومنتظر اقرارها فى شأن وساطته، فان هى قبلت الوساطة ابرقت اليه فيعود الى القدس فى طريقه الى تركيا .

عقدت اللجنة العربية العليا ، اجتماعا يوم الاربعاء ٢٦ اغسطس (آب) ١٩٣٦، حضره رجالات فلسطين ، ووافقوا بالاجماع على قبول وساطة فخامة نوري باشا السعيد (١) .

---

(١) اصدرت اللجنة العربية ، العليا في ٣١ اغسطس بيا نا هذا نصه :
« استمرت المفاوضات بين اللجنة العربية العليـا ، وبين فخامة نوري باشا السعيد ، وزير

عاد نوري باشا السعيد من الاسكندرية الى القدس ، وشرع في المفاوضة على اساس كان الجميع متفقين عليه وهو :

اولا : تصدر اللجنة العربية العليا بيانا للشعب بوقف الاضراب واعمال العنف.

ثانياً : توقف الحكومة الهجرة اليهودية موقتاً حتى تأتي اللجنة الملكية وتضع تقريرها .

ثالثاً : تقوم الحكومات العربية الثلاث وامارة شرق الاردن بالسعي لدى بريطانيا لانجاز مطالب فلسطين المشروعة ، سواء ما كان منها يتعلق بأساس القضية ، وما كان منها ناشئاً عن الاضطرابات .

رابعاً : تصفية الثورة على اساس : الغاء الغرامات ، وقف عمليات التفتيش، اطلاق سراح المعتقلين ، والعفو العام عن المتهمين بحوادث الثورة .

ويرى من ذلك ان الحكومة الفلسطينيه لم تتقدم كثيراً عن موقفها السابق . والخطوة الاساسية التى خطتها هي قبولها ايقاف الهجرة موقتا حتى تأتي اللجنة الملكية وتضع تقريرها . وعلى كل حال فلو تم هذا الاتفاق لما دخلت الثورة الفلسطينية في دورها الثاني الحاد ، الذي كلف الحكومة البريطانية خسائر عظيمة فى المال وفي الانفس . ولحلت الازمة الفلسطينية حلا يحفظ الكرامة البريطانية ، ويحافظ على صداقة العرب لها . وكان المندوب السامي يميل الى هذا الحل ، ويرغب فيه .

خارجية العراق بضعة ايام ، وبحثت جميع النقاط التي تتعلق بالقضية العربية الفلسطينية في جو تسوده الثقة والصراحة ، فنتج عن ذلك التفاهم التام والموافقة على وساطة الحكومة العراقية، واصحاب الجلالة والسمو ملوك العرب وامرائهم ، بكل ارتياح واطمئنان . وبناء على ذلك فان فخامة الوزير سيقوم بالمخابرات الرسمية اللازمة في هذا الشأن ، كما ان اللجنة العربية العليا ستعرض الامر على الامة بواسطة لجانها القومية في مؤتمر عام لاخذ رأيها والحصول على موافقتها. وستستمر الامة على اضرابها الشامل بنفس الثبات واليقين اللذين عرفت بهما رافعة الرأس، راسخة الايمان ، متريثة رزينة ، الى ان تصل هذه المفاوضات الى النتيجة المرغوبة ، التي تحفظ لهذه الامة الباسلة كيانها ، وتنيلها حقوقها ، وتوصلها الى امانيها ان شاء الله » .

اغاظ الصهيونية تدخل ملوك العرب فى القضية الفلسطينية ، وعزمت على احباط المفاوضات ، وذلك باستعمال ما لها من نفوذ لدى الحكومة البريطانية ، لانها رأت انها لا تستطيع ارجاع المندوب السامي عن رأيه من غير تدخل وزير المستعمرات . فقابل زعماؤها ، حسب عادتهم، ذوي النفوذ السياسي في لندن... وكتب الدكتور وايزمن الى صديق الصهيونية السير اورمسبي غور ، وزير المستعمرات ، فاجابه الوزير بكتاب هذا نصه :

« عزيزي الدكتور وايزمن ،

« اخذت كتابك المؤرخ في ١ سبتمبر (ايلول) ، الذي يحتوي على قصاصة من جريدة « بالستاين بوست » ، التي نشرت خبراً عن شروط معينة، وافق عليها المندوب السامي كاسس لتوقيف اعمال العنف وحل الاضراب .

ان المندوب السامي لم يوافق على اية شروط مثل هذه ، كما ان الحكومة لا تعرف عنها شيئاً . وفوق ذلك انه لا توجد اية معلومات كالتي وصلت الى الوكالة اليهودية بان المندوب السامي فوض نوري باشا السعيد لان يعد بالخطوات التي ستلي وقف الاضطرابات ، وعلى الاخص فيما يتعلق بتوقيف الهجرة . كما انه ليس هنالك تفويض لدى نوري باشا السعيد لاعطاء مثل هذه الوعود، وكذلك نوري باشا نفسه لم يطلب مثل هذا التفويض ، كما يقول المندوب السامي. والذي يعرفه المندوب السامي ايضاً ان نوري باشا ابلغ الزعماء العرب فى وضوح بانه لا يمكنه اعطاء مثل هذه الوعود . ان الحكومة والمندوب السامي لم يفوضا نوري باشا السعيد لان يتوسط فى حل مشكلة فلسطين ...»

اورمسبي غور

عقد هذا الكتاب المشكلة في البلاد بعد ان كانت سهلة الحل ، وبرهن من جديد على ان النفوذ الصهيوني لا يزال مسيطراً على حكومة جلالته ، فساءت

الحالة ، ودخلت الثورة فى دورهـا الجديد ، دور التنظيم ... الذي تحدثنا عنه فيما سبق .

* * *

وكان ملوك العرب ، فى هذا الوقت العصيب ، على اتصال مستمر، فيما بينهم ، ومع اللجنة العربية العليا فى القدس ، للوصول الى حل للازمة الفلسطينية. وانتهى بهم الامر الى اصدار نداءات ، بنص واحد ، كان الاول في ٨ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٦ وبتوقيع جلالة الملك عبد العزيز ، والثاني في ٩ منه بتوقيع جلالة الملك غازي ، والثالث فى ٩ منه ايضاً بتوقيع سمو الامير عبدالله. اما نص النداء فهو :

« القدس — بواسطة رئيس اللجنة العربية العليا .

« الى ابنائنا عرب فلسطين ،

« لقد تألمنا كثيراً للحالة السائدة في فلسطين ، فنحن، بالاتفاق مع اخواننا ملوك العرب والامير عبد الله ، ندعوكم للاخلاد الى السكينة حقنا للدماء ، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ، ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل . وثقوا باننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم . ».

عقدت اللجنة العربية العليا ، على اثر هذا النداء، جلسة فى ١٠ اكتوبر (تشرين الاول) ، قررت فيها انهاء الاضراب والاضطرابات التي دامت ستة اشهر ، ابتداء من يوم الاثنين الموافق ١٢ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٦.

وفى ١٢ اكتوبر اصدر فوزي بك القاوقجي بلاغا قال فيه : « تلبية لنداءات ملوكنا وامرائنا العرب ، ونزولا على طلب اللجنة العربية العليا في القدس ، نطلب توقيف اعمال العنف تماما ، وعدم التحرش باي شيء يفسد جو المفاوضات التي تأمل منها الامة العربية الخير ونيل حقوق البلاد كاملة ... »

ثم غادر ، قائد الثورة البلاد الى العراق حيث نزل ضيفاً على حكومتها...

وكان الاعتقاد سائداً بان وزارة المستعمرات ستوقف الهجرة موقتاً وترسل اللجنة الملكية لمباشرة التحقيق .

* * *

غادرت اللجنة الملكية ، التي صدرت براءة بتعيينها من لدن جلالة ملك انكلترا في ٧ اغسطس (آب) ، لندن في ٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٦ ، متوجهة الى فلسطين (١) . وكانت صلاحيتها :

« ان تتثبت من الاسباب الاساسية للاضطرابات التي نشبت في فلسطين أواسط شهر ابريل (نيسان) ، وان تحقق في كيفية تنفيذ صك الانتداب على فلسطين بالنسبة لالتزامات الدولة المنتدبة نحو العرب ونحو اليهود. وان تتثبت، بعد تفسير نصوص صك الانتداب تفسيراً صحيحا ، مما اذا كان لدى العرب او لدى اليهود اية ظلامات مشروعة ناجمة عن الطريقة التي اتبعت فيما مضى ، او المتبعة الآن في تنفيذ صك الانتداب . وان تقوم ، اذا اقتنعت بازاية ظلامات كهذه تستند الى اساس صحيح ، برفع التواصي لازالة تلك الظلامات ومنع تكرارها »

وفي اليوم الذي غادرت فيه اللجنة الملكية لندن ، القى وزير المستعمرات بيانا في مجلس العموم جاء فيه : « وقد نظرت حكومة جلالته بامعان فيما اذا كان من المقتضى توقيف الهجرة موقتا او عدم توقيفها اثناء قيام اللجنة الملكية بالتحقيق ، فقررت انه ليس هنالك ثمة اسباب اقتصادية او اسباب اخرى تبرر هذا التوقيف الموقت . وفي الوقت ذاته رأت حكومة جلالتها انه من الصواب، في الظروف السائدة الآن في فاسطين ، ان تطلب الى المندوب السامي ان ينظر بتحفظ في مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب (٢) . وبناء عليه اوصى

(١) تألفت اللجنة الملكية من النبيل ايرل بيل رئيساً ، وهو راس رامبولد نائب الرئيس ولورى هامو نير، وموريس كارتر ، وهارولد موريس وريجالد كوبلاند اعضاء ، وتولى اعمال السكرتارية ج . م مارتن من موظفي وزارة المستعمرات

(٢) عاد الوزير الى مبدأ مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب ، وقد رأينا سابقا انها قد نفذت منذ عام ١٩٣٠ . راجع صفحة ١٧٠ ــ ١٧٦ و ١٥٠ ــ ١٥١ من هذا الكتاب

نخامته ان يحدد جدول الهجرة للعمال ، الذي يمنح كل ستة اشهر ، والذي آن اوان اصداره في الشهر الماضي ، ب١٨٠٠ شهادة ، وقد وافقت حكومة جلالته على هذه التوصية » . اي ان ابواب الهجرة ظلت مفتوحة كما كانت سابقا.

كان هذا البيان تحديا لشعور العرب ، ودليلا على فقدان حسن النية في حل القضية الفلسطينية ، حلا يضمن حقوق العرب ويحافظ على مصالحهم. فقررت اللجنة العربية العليا مقاطعة اللجنة الملكية ، واصدرت في ٦ نوفمبر (تشرين الثاني) بيانا تطلب فيه من الامة ان لا تتعاون مع اللجنة الملكية .

وصلت اللجنة الملكية فلسطين في ١١ نوفمبر (تشرين الثاني) ، فلم يحفل بها العرب ، ولم يحضروا حفلة افتتاح اعمالها، التي اقامها المندوب السامي في داره. وارسلت اللجنة العربية العليا كتابا الى رئيس اللجنة الملكية النبيل ايرل بيل، رحبت فيه بقدومه واعضاء لجنته ، واكدت ثقتها وثقة الشعب العربي بهم وبنزاهتهم ، واسفت لبيان وزير المستعمرات الذي حال دون تعاون العرب مع اللجنة الملكية .

فهل اصابت اللجنة العربية العليا في عدم التعاون مع لجنة التحقيق الملكية ؟... او لم يكن من الافضل ، لصالح حقوق العرب ، التعاون بكل قوانا مع اللجنة وايقافها « عمليا » على ما تقاسيه البلاد من بلاء من جراء السياسة الصهيونية؟... فيذهب بها الى القرى ومضارب العرب ، لتلمس وترى البؤس الشديد . وتحشد في طريقها الجماهير على اختلاف انواعها ، صائحة بسقوط وعد بلفور ، طالبة بالحياة الحرة في بلادها ...

رأى ملوك العرب وامراءها خلاف ما رأت، اللجنة العربية العليا ، رأوا انه من صالح العرب ، بل من الضروري ، التعاون مع اللجنة الملكية . فذهب وفد من القدس الى الحجاز والعراق وقابل الملكيين العربيين ، واطلعهما على وجهة نظر اللجنة العربية العليا ، والاسباب التي دعتها الى مقاطعة اللجنة الملكية . وعاد

الوفد يحمل من كل من صاحبي الجلالة الكتاب التالي :

« المملكة العربية السعودية — ديوان جلالة الملك

في ١٨ شوال سنة ١٣٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى حضرة صاحب السماحة الحاج امين الحسيني رئيس اللجنة العربية العليا حفظه الله تعالى .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد، فلقد وصل الينا وفد اللجنة العربية العليا وعرض علينا الموقف الحاضر في فلسطين ، والاسباب التى حملت لجنتكم على مقاطعة اللجنة الملكية ، وبعد استماعنا لكل ما ابداه الوفد الكريم من مبررات لموقف لجنتكم، وبالنظر لما لنا من الثقة بحسن نية الحكومة البريطانية في انصاف العرب ، فقد رأينا ان المصلحة تقضي بالاتصال باللجنة الملكية، والادلاء اليها بمطالبكم العادلة ، لان ذلك اضمن لحقوقكم وادعى لمساعدة اصدقائكم في حسن الدفاع عنكم .

وقد أبدينا للوفد الكريم جميع ما لدينا من الآراء في ذلك ، ونحب ان تكونوا على ثقة باننا لا نألو جهدا في سبيل مساعدتكم لاصلاح الحال بقدر امكاننا . وانا لنرجو من الله ان يوفقنا جميعا لما فيه الخير للاسلام والعرب .

واقبلوا احتراماتنا الفائقة »

عبد العزيز

وكان كتاب صاحب الجلالة الملك غازي مطابقاً لكتاب جلالة الملك عبد العزيز . الا ان تاريخه كان في ٢٠ شوال ١٣٥٥ الموافق ٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٣٧ .

وفي ٦ يناير (كانون الثاني) عقدت اللجنة العربية العليا اجتماعا قررت فيه التعاون مع اللجنة الملكية ، وفي ١٢ منه بدأت في تقديم الشهادات امامها ...

الخاتمة

الصهيونية وحل القضية الفلسطينية

١

حلول بريطانيا واخطار الصهيونية

قررت اللجنة التي ارسلتها حكومة لندن ، على اثر اضطرابات عام ١٩٢٩، لدرس الحالة في فلسطين ، ان سبب الاضطرابات الرئيسي هو العداء الشديد بين العرب واليهود ، الناجم عن انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين . وحكمت بان هذا العداء لا يزول ، والسلام لا يعود الى الاراضي المقدسة ما دام العرب غير مطمئنين الى مصيرهم في فلسطين .

على ان احد اعضاء اللجنة ، مستر سنل ، اللورد سنل الآن ، الصديق الحميم للصهيونية ، لم يوافق على هذا الرأي . ودون في تحفظاته ، التي جاءت في تقرير لجنة شو « ان العلاقات (بين العرب واليهود) متوترة دون شك ، الا ان فلسطين من البلاد التي يتغير فيها الجو السياسي بسرعة ، فاذا عولجت الحالة باعتناء يمكن الحصول على تعاون الشعبين على انشاء امة فلسطينية زاهرة »(١)!

ومن الغريب ان نرى الحكومة البريطانية قد رمت عرض الحائط بتقرير لجنة شو ، وتقارير خبراء قديرين ، وتمسكت برأي اللورد سنل ! وشاع رأيه بين اعضاء البرلمان وفي الدوائر السياسية البريطانية ، واخذ قادة الرأي السياسي يدينون به ، ويعتقدون أن فيه حل القضية الفلسطينية ! .

اخذت العلاقات بين العرب واليهود تتوتر منذ الاحتلال البريطاني لفلسطين، واخذ هذا التوتر يزداد مع مرور الايام ، فاصبح عداء . وولدت هذه الحالة

(١) تقرير لجنة شو صفحة ٢٣٨

اضطرابات عديدة، منها اضطرابات عام ١٩٢٩ . ومنذ ذلك التاريخ ، الذي ابان فيه اللورد سنل رأيه ، لم يتغير الجو السياسي الفلسطيني ، بل ازداد سوءاً واصبح اسود قاتما ينذر بالعواصف الشديدة . وبدل التعاون ، بين العرب واليهود، اشتد العداء ، وادى الى حوادث عام ١٩٣٦ الدامية ...

ومن نواقض السياسة البريطانية ، بوجه عام ، عدم اعتبارها احكام التاريخ في حل الصعاب السياسية . فالشيء الذي تعلق عليه بريطانيا الامال لحل القضية الفلسطينية ، وهو صهر العرب واليهود ، وتكوين شعب فلسطيني منهما ، هو حلم خيالي غير قابل التحقيق ابدا . لان اليهودي لن يتغير، ولان العربي لن يقبل بجنسيته بديلا .

لقد تحمل اليهود العذاب والاضطهاد طيلة ٢٥ قرنا ، في سبيل المحافظة على عاداتهم واخلاقهم التي تميزهم ، تمييزاً تاما ، عن بقية الشعوب ، وتجعل منهم طائفة خاصة (١) . وهل تجهل بريطانيا ان اليهود يأتون فلسطين ، لا ليضيعوا فيها صفاتهم وعاداتهم واخلاقهم ، بل ليحققوا فيها آمالهم القومية ؟ .

والعرب شعب فخور بعروبته ، ناضل في سبيل المحافظة عليها قرونا ، وضحى في سبيلها كثيرا . ولا قيمة للجنسية الفلسطينية في نظر العرب. فهم لا يعترفون بها . ولم يكف قط عرب فلسطين عن اعتبار انفسهم جزءاً من الشعب العربي المحيط بهم . وليس من المعقول ، بل من المحال ، ان يتركوا مدنيتهم الغنية، وعاداتهم الموروثة منذ قرون عديدة ، ليمتزجوا مع شعب هو غريب عنهم في كل شيء ...

ها قد مضى على الاحتلال البريطاني لفلسطين نحو عشرين عاما ، كانت عاملا على ايجاذ العداء بين العرب واليهود وتأصيله ، بدلا من التوفيق بينهما . وسبب

---

(١) ربما يكون يهود فرنسا وحدهم قد تخلوا عن عاداتهم الموروثة ، وامتزجوا بالشعب الفرنسي فاصبحوا جزءا منه .

ذلك السياسة الصهيونية التي تتبع هدفا لا يمكن مصالح العرب من مقابلة المصالح اليهودية

ومما يؤسف له ان تكون اللجنة الملكية ، التي اتت فلسطين ودرست الحالة فيها عقب ثورة عام ١٩٣٦ ، قد فكرت في ايجاد حل للقضية الفلسطينية عن طريق تقسيم فلسطين الى ثلاثة اقسام : يشتمل القسم الاول ، وهو القسم المهم ، على السهل الساحلي ، ويمتد من عكا حتى غزة ، وعلى سهل ابن عامر وسهل الحولة . ويكون خاصا باليهود ، تشادهم فيه مملكة مستقلة ، يكون لها حق التسلح والدفاع ، وتدخل عصبة الامم ، وترسل السفراء الى الدول ... ويشتمل القسم الثاني على القدس وبيت لحم وحيفا ، ويظل تحت الانتداب البريطاني . واما القسم الثالث فيتألف مما بقي من فلسطين ، وهو جبال جرداء ، ويكون خاصا بالعرب . ويكون العرب فيه مستقلين اوملحقين بشرق الاردن .

غريب ان تفكر الحكومة البريطانية في مثل هذا الحل ، الذي هو بمثابة تعقيد للقضية الفلسطينية . وان عملت حكومة جلالته على تنفيذ هذه الفكرة ، فانها ترمي لا الى حل القضية الفلسطينية ، حلا عادلا ، يعيد السلام الى البلاد ، وانما الى تعقيدها وابقاء اسباب النزاع والاضطرابات فيها . لان هذا الحل يمنح اليهود الشطر الطيب من فلسطين ، ويبقى للعرب جبالها التي لا تستطيع العيش اقتصاديا اذا فصلت عنها السهول . ولن يرضى العرب بهذا الحل الذي هو اعتداء صارخ على حقوقهم ، والذي يرمي الى القضاء عليهم ، تحت ستار الاستقلال .

هذا الحل لا يزيل اسباب العداء بين العرب واليهود ، بل يزيدها شدة وتأصلا . ولا سبيل الى ايجاد التوفيق بينهم ، في فلسطين وخارجها ، الا بتغيير السياسة الصهيونية ذات الاخطار العديدة .

* * *

ان الصهيونية خطر على العرب وعلى الانكليز وعلى سلام العالم ، وعلى اليهود انفسهم .

إن هدف الصهيونية الاساسي الاستيلاء على فلسطين وجعلها مملكة يهودية. ولتحقيق ذلك ، سيعمل اليهود على اخراج العرب منها ، وازالة جميع آثار مدنيتهم فيها . وفلسطين بحكم سكانها وتاريخها مقاطعة عربية . فاستيلاء اليهود عليها او على قسم منها ، خسارة مادية ومعنوية للشعب العربي . ولا ضرورة لتوضيح الخسارة المادية . ولتقرير الخسارة المعنوية ، يكفي ان يتذكر المرء الدور الذي لعبته فلسطين في تاريخ العرب ، وما لها من مكان مقدس في نفوس المسلمين والمسيحيين منهم .

ومن جهة ثانية فان وجود مملكة يهودية في قلب الممالك العربية ، يكون سبب اضطرابات على اختلاف انواعها ، لعدة اسباب : يعتبر العرب اليهود غرباء عنهم ، في أخلاقهم ، وفي عاداتهم وفي ثقافتهم ومدنيتهم . وسيعتبرونهم اعداء . لأن العرب لن يرضوا ابدا بضياع فلسطين او قسم منها . ومهما تكن قوتهم ، سيقاتلون اليهود ، دون انقطاع ، لاسترجاع فلسطين . والعرب لا يجهلون ان اليهود ، بعد استيلائهم على فلسطين ، يعملون لتأسيس « مملكة اسرائيل » على ان تمتد من حدود مصر حتى الفرات ، واقوالهم اكبر دليل على ذلك (١) . وطبيعي ان يكون العرب اعداء لمطامع الصهيونية الاستعمارية في الشرق العربي .

تغضب بريطانيا جميع الاقطار العربية الاسلامية بمساعدتها الصهيونية ، وبعدم محافظتها حتى على بعض حقوق العرب في فلسطين التي من واجبها المحافظة عليها. ان وضعيتها هذه لشديدة الخطر عليها ، لأنها تخسر صداقة هذه البلاد ، في حين ان في امكانها الاعتماد على قوى هذه البلاد الهائلة ، لان مصالح البلاد العربية والاسلامية لا تتضارب مع مصالحها . اما اذا كانت بريطانيا لا تعتبر

(١) راجع صفحة ٩٣ و ٩٤ من هذا الكتاب

مطالبهم ، وبدلاً من حمايتهم تساعد الصهيونيين الذين يريدون ايقاع الضرر بهم ، فيضطر العرب والمسلمون الى التحول ضدها .

الاختلافات الدولية شديدة ، وستؤدى الى حرب لم يرو التاريخ لها مثيلا . وجميع الدول آخذة فى الاستعداد لها استعداداً حربيا بالتسلح ، واستعداداً سياسياً بعقد الاتفاقات والمحالفات مع الدول الاخرى . والخلاف على اشده بين بريطانيا وايطاليا . واهم المعارك في الحرب المقبلة ستكون بينهما . وكل من الدولتين جادة فى الاستعداد لهذه الحرب بكل ما لديها من قوة. ويستعمل الان السنيور موسوليني مهارته السياسية فى تسوية الخلافات مع دول البحر الابيض المتوسط ، ونيل صداقة العالم العربي والاسلامي ، على اساس تبادل المصالح . لعلمه ان الدولة التي تنال مساعدتها ، لا سيما مساعدة الشرق العربي في الحرب المقبلة ، يكون النصر حليفها . وقد نجح فى هذا المضمار الى حد .

والعالم العربي والاسلامى ، صديق لبريطانيا . على انه لا تزال بينهما خلافات اهمها المشكلة الفلسطينية وليدة السياسة الصهيونية . وقد اظهرت الثورة الفلسطينية الاخيرة تعلق العرب الشديد بفلسطين وعدم تخليهم عنها، واهتمام المسلمين بقضيتها. فاذا سوت بريطانيا الخلاف مع البلاد العربية ، وحلت القضية الفلسطينية على اساس يبقى جميع الاراضي المقدسة عربية ، ويحفظ حقوق العرب فيها ، تأصلت صداقة العرب معها ، واصبح في امكانها الاعتماد على قوى البلاد العربية ، لان مصالحها حينئذ لا تكون متضاربة . اما ان هي حلت القضية الفاسطينية حلا لا يلائم العرب ، فستضطرهم الى تحقيق آمالهم الوطنية باتحادهم مع دولة اخرى.

وقد زادت اليوم اهمية صداقة العرب لبريطانيا عما كانت عليه قبل الحرب، لاسباب عدة ، منها ما يتعلق بانابيب البترول : ان فوز الاسطولين البريطانيين البحري والجوي ، في حرب مقبلة تقع فى البحر الابيض المتوسط ، يتوقف على حسن تموينهما بالبترول ... ومستودع هذا البترول حيفا. وهو يأتي من العراق البلد العربي ، ويمر من بلاد جميعها عربية . ولأجل ان يصل هذا البترول الى حيفا

وجب ان تكون جميع هذه البلاد العربية صديقة بريطانيا ، والا فمحال على حكومة لندن تأمين تموين اساطيلها ، مهما خصصت للمحافظة على انابيب البترول من قوة . ذلك التموين الذي يتوقف على استمراره بانتظام الامل في الفوز في الحرب المقبلة (١) ...

لم تولد الصهيونية المشكلة الفلسطينية فحسب ، وانما ستجعل منها خطرا على السلام العالمي .

إن تعلق العرب بفلسطين يفوق حد الوصف . ودليل ذلك اشتراك الشرق العربي بالرجال والمال ، في ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، وتدخل ملوكهم وامرائهم في قضيتها . ولو تمكنت الصهيونية من الاستيلاء على فلسطين ، او على قسم منها ، بمساعدة الحراب البريطانية ، فان العرب لن يخضعوا لذلك ، ولن يقبلوا به . وسيواصلون النضال حتى يسترجعوا ما اغتصب من بلادهم .

ستكون فلسطين في الشرق ، مثل ما كانت « الالزاس واللورين » في الغرب . ستكون سبب اضطرابات متواصلة ، تؤدي في كل وقت الى اختلاف او قتال عالمي ، وكما قال بريان رجل السلم الكبير : « السلم لا يتجزأ ، لهذا يكون عالميا والا لا يكون »

وان في السياسة الصهيونيه اضرارا لليهود انفسهم . ولكي نقف عليها ، يجب معرفة المسألة اليهودية ، وهل تحلها فلسطين ؟

٢

فلسطين لا تحل المسألة اليهودية

العاملان الرئيسيان في المسألة اليهودية هما : العدد الكبير لليهود المضطهدين في العالم ، والامال القومية التي يعمل لتحقيقها الجنس اليهودي :

(١) راجع صفحة ٦١ ــ ٦٤ من هذا الكتاب .

بين الملايين الخمسة عشر من يهود العالم ، يوجدعشرة ملايين ، مضطهدين او غير مرغوب فيهم ، خطأ او صوابا ، في البلاد التي يعيشون فيها . صرح الدكتور وايزمن ، امام اللجنةالملكية ، في ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني)١٩٣٦ ، ان في اوروبا الشرقية وحدها نحو ستة ملايين من اليهود غير المرغوب فيهم ، « حكم عليهم ان يعيشوا بصورة غير مستقرة لا يدرون ماذا يأتيهم به الغد » ، وان موجة الاضطهاد اليهودي انتقلت حتى الى اوروبا الغربية (١) .

قيل ان سبب ذلك بربرية الشعوب وعدم تساهلها مع الجنس اليهودي... ونسبت الأضطهادات التي تقع على اليهود اينما حلوا ، الى لعنة الله التي جاءت في التوراة ... ان السبب ابسط بكثير من ذلك : هو بذل اليهود قواهم دائما في المحافظة على صفاتهم الخاصة والعيش مبتعدين ، في الاخلاق والعادات والثقافة ، عن الامة التي يعيشون بينها ، وها هم اليوم يرمون الى تشكيل امة من الذين يدينون بدين موسى . انهم هم سبب الكره الذي يحيط بهم والاضطهادات التي تلحق بهم اينما حلوا ، لاعتبارهم انفسهم دائما غرباء عن المجتمع الذي يعيشون فيه . ولولا ذلك لعاش اليهود بامان ، ولما كان من داع لتفريقهم عن بقية افراد الامة التي هم منها . اما قول الدكتور وايزمن « انما نسعى في كل بلد نعيش فيه ان نصبح جزءاً لا يتجزأ من سكانه . نتمنى ذلك ونسعى ونجد للحصول عليه ، ولكننا لم نصل في الواقع الى هذا الهدف »(٢) فقول يخالف الحقيقة ، ويظهر خطأه التاريخ والوقائع .

هل تحقق فلسطين آمال اليهود ، وهل في امكانها حماية العشرة الملايين من اليهود غير المرغوب فيهم في العالم ؟..

هذا ما لا نعتقده . فالامر الواقع ، قبل كل شيء ، يجعل ذلك محالا . فمن

(١) راجع شهادة الدكتور وايزمن امام اللجنة الملكية . نشرات الوكالة اليهودية برقم (١) ١٩٣٧ ، صفحة ٣ ، ٥ ، ١٠

(٢) نشرات الوكالة اليهودية . رقم (١) ١٩٣٧ ، صفحة ١١

الوجهة العملية يستحيل ادخال هذه الملايين العشرة فلسطين وتأمين معيشتهم فيها. في فلسطين الآن نحو ١،٣٥٠،٠٠٠ ساكنا ، ومعدل السكان في الكيلومتر المربع من مجموع مساحة البلاد ، يزيد عن ٩٠ شخصا ، مع العلم بان ثلاثة ارباع الاراضي غير قابلة للزراعة . واثبت الخبراء عام ١٩٣٠ ان ليس فى فلسطين مكانا لمهاجرين جدد ، دون ان يحلوا مكان اهالي البلاد ، وان مواردها تكاد لا تسد حاجة السكان .

وليست فلسطين حقل عمل يستطيع فيه اليهود استثمار مواهبهم الخاصة في التجارة والصناعة . ولا يمكن ان تكون مركزا صناعيا ولا مركزا تجاريا ، وانما هي بلاد زراعية . ولم يكن اليهود يوما مزارعين قديرين . لقد فشلت التجربة التي اجريت في الروسيا ، خلال القرن التاسع عشر ، لتشكيل طبقة من المزارعين اليهود ، ولم تنجح ايضا المحاولة التي قام اليهود بها ، في اواخر ذلك القرن ، لانشاء مستعمرات زراعية في الارجنتين . وقد فضل اليهود الهجرة الى المدن الاميركية ، حيث يستطيعون استغلال مواهبهم . وفي فلسطين اليوم يفضل اليهود سكنى المدن . و« نسبة اليهود المشتغلين في الزراعة قد تناقصت في السنوات الاخيرة بسبب نزوح عدد منهم الى المدن الكبيرة » (١) . ولو فرضنا جدلا ان اليهود مزارعون قديرون ، ففلسطين لا تتسع لهم لضيق مساحتها وقلة الاراضي الزراعية فيها .

لو تمكن اليهود من جعل فلسطين دولة لبني اسرائيل ، فانهم لا يحلون المسألة اليهودية ، بل يعقدونها ويزيدون في صعوبتها .

عندما يصبح لليهود بلاد خاصة بهم ، تعتبرهم الامم غرباء في بلادها وتعمل على اخراجهم منها . وبالفعل فانه منذ ان اعطي تصريح بلفور ، اشتدت اضطهادات اليهود في اوروبا الشرقية ، وانتقلت منها الى غيرها من البلدان بحجة ان اليهود غرباء يجب ترحيلهم الى « بلادهم فلسطين » ! . والحادثات التي جرت في لندن ، اواخر

(١) نشرات الوكالة اليهوديه رقم (١) ، صفحة ٣٤

عام ١٩٣٦ ، بين الكولونيل بيك وزير خارجية بولونيا، ومستر ايدن وزير خارجية بريطانيا العظمى، بشأن تسهيل هجرة يهود بولونيا الى فلسطين هي مثال واضح ...

كانت البلاد العربية حتى عام ١٩١٨ ملجأ لليهود المضطهدين في اوروبا. وجميع المؤرخين يؤكدون انهم كانوا فيها عائشين بسلام، لهم ما لبقية السكان من حقوق ـ والدكتور وايزمن لا ينكر ذلك . وقد قال انه «عندما طرد اليهود من اسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر، قصد مائتا الف شخص منهم الى البلدان الشرقية ، وان نسى لا ننس تلك الحفاوة البالغة التي قابلنا بها العالم الاسلامي »(١) ان البغض بين العرب واليهود الصهيونيين يبدأ من تاريخ « الوطن القومي اليهودي » . ومنذ ذلك التاريخ تأصل البغض وانتشر الى جميع البلاد العربية .

ان فلسطين ، نظرا لمساحتها ، وموقعها في قلب البلاد العربية ، ومواردها الاقتصادية ، لا تحل المسألة اليهودية . بل وجود دولة يهودية في فلسطين ، او في قسم منها ، يجعل الاضطهاد الذي يلاقيه اليهود في العالم شديدا ويوسع رقعته. وستكون فلسطين هاوية تتلاشى فيها رؤوس اموال اليهود ومجهوداتهم. واخيراً ان جعل فلسطين دولة يهودية برغم العرب الذين عاش اجدادهم فيها زيادة عن ثلاثة عشر قرنا ، على الرحيل من وطنهم . وارغام هذا الشعب على مغادرة بلاده، في سبيل تخفيف شقاء جماعة ليس العرب مسؤولين عن شقائهم ، لا يعد غلطة سياسية كبرى فحسب ، بل هو عمل جائر مناف لكل عدالة وانسانية.

٣

الحل العملي العادل

قال تصريح بلفور وصك الانتداب بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين...

وقد فسرت حكومة جلالته هذا القول عام ١٩٢٢ «بان عبارات التصريح المنوه

(١) نشرات الوكالة اليهودية رقم (١) ، صفحة ١٤

عنه لا تشير الى تحويل فلسطين بجملتها وطنا قوميا لليهود ، وانما تعني أن وطنا كهذا يؤسس في فلسطين »(١). فاذا تركنا الآن جانبا وجهة النظر العربية التي لا تعترف بوطن قومي لليهود بالمرة ، نجد ان « الوطن القومي اليهودي » محدود حسب نص التصريح وصك الانتداب وروحهما . ومن الطبيعي انه متى وصل الوطن القومي الى الحد المعين يكون قد تم انشاؤه ، ويجب عندئذ ايقاف اعمال البناء ، لانه اذا تجاوز الوطن القومي ذلك الحد تصبح فلسطين وطنا قوميا لليهود ، بدلا من ان يكون الوطن القومي اليهودي في فلسطين .

وطبيعة الحال توجب ان يكون للوطن القومي اليهودي في فلسطين حد . لان اقتصاديات البلاد محدودة . وطبيعي ان تكون مقدرة البلاد الاقتصادية على استيعاب مهاجرين جدد محدودة ايضا . فاذا وصلت هذه المقدرة حدها الاقصى ، اصبح من المحال عمليا توسيع الوطن القومي دون التعدي على حقوق الغير الحيوية . ومتى اعتدى على حقوق الغير وجب اعتبار انشائه قد تم وانتهى . وعلى هذا المبدأ القائل بأن للوطن القومي اليهودي في فلسطين حدا ، يمكن الوصول الى حل القضية الفلسطينية ، حلا لصالح اليهود والانكليز والعرب ، ويجعل السلام مستتبا في الاراضي المقدسة .

وقبل التكلم عن الحل ، يجب معرفة ما اذا كان الوطن القومي اليهودي في فلسطين قد تم انشاؤه ، بالنسبة الى صك الانتداب ، ام لا . لقد اثبتت اللجان الرسمية ، والخبراء الرسميون منذ عام ١٩٣٠ ، ان مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب قد انتهت ، وتعدى الوطن القومي اليهودي على حقوق العرب والحق بهم اضرارا . وهذا ما يعني ان الوطن القومي قد اجتاز الحدود التي خطها له تصريح بلفور وصك الانتداب :

اصبح عدد اليهود اليوم في فلسطين لا يقل عن ٤٥٠٠٠٠ ، بعد ان كان

(١) الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ .

عددهم ١٩١٨ لا يزيد عن ٥٥٠٠٠ . اي ان عددهم اصبح يقرب من نصف عدد سكان العرب في البلاد . وقد استولى اليهود على اخصب الاراضي ، وعلى مرافق الحياة الاقتصادية . واصبحت لهم مستعمرات ومدن خاصة بهم ، ذات بوليس يهودي وادارة يهودية مستقلة عن الحكومة . ولهم كنس ، ومحاكم ومستشفيات ومكاتب ، وجامعة ومدارس تدرس بالعبرية ، وادارة خاصة للمعارف ، ولهم جرائد عديدة تصدر بلغتهم ، التي اصبحت احدى اللغات الرسمية في فلسطين. وفي الواقع فان اليهود في فلسطين مستقلون استقلالا داخليا واسما عن الحكومة.

ان مصلحة اليهود عموما تقضي عليهم بالاكتفاء بهذا القدر والوقوف عند هذا الحد ، وترك مطامع الصهيونية جانبا . لانه لا يمكن ، كما رأينا سابقا ، ان تحل فلسطين المشكلة اليهودية ، ولان « الامبرياليزم » الصهيوني يحرض البلاد العربية والاسلامية على اليهود ، فيفقد اليهود صداقة هذه البلاد ، ويزداد بالنتيجة عدد اليهود المضطهدين في العالم ...

على اليهود ان يقصروا علاقاتهم بفلسطين على الناحية الثقافية والروحية . يأتي اليهود الى فلسطين من جهات الدنيا الاربع ، يستمدون منها الروح الدينية ، ويتلقون فيها الثقافة العبرية ، ثم يعودون الى البلاد التي يمارسون فيها اعمالهم شاعرين بالصلة الثقافية التي توحد بينهم من فوق الحدود . ويصبح اليهود الحاليون في فلسطين العربية جزءاً من السكان لهم ما للعرب وعليهم ما عليهم. يتمكن اليهود عندئذ من التفاهم مع العرب والعيش بينهم بوئام وسلام ، لان تخوف العرب من ان يغمروا قومياً وسياسياً يزول . فيعمل الجميع معا لتقدم البلاد وخير جميع السكان . ثم تفتح الاسواق التجارية العربية والاسلامية لمصنوعات اليهود ، ويتعامل فيها تجارهم فيربحون ويثرون ، كما كانوا يفعلون طيلة القرون السابقة . اما ان لم يترك اليهود السياسة الصهيونية فان « المملكة اليهودية » تهدم ما بنى من « الوطن القومي » .

والى هذا النوع من الوطن اليهودي رمي تصريح بلفور ، الذي جاء تفسيره الرسمي في الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ . فقد قال فيه مستر تشرسل ، وزير المستعمرات حينئذ « متى سأل سائل ما هو معنى ترقية الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، يمكن ان يجاب على ذلك بانه لا يعني فرض الجنسية اليهودية على اهالي فلسطين اجمالا ، بل زيادة رقي الطائفة اليهودية بمساعدة اليهود الموجودين في جميع انحاء العالم ، حتى تصبح مركزا يكون فيه للشعب اليهودي برمته اهتمام وفخر من الوجهتين الدينية والجنسية »

وكثير من عقلاء اليهود ومفكريهم غير راضين عن السياسة الصهيونية ويعملون الى حل يوصل الى التفاهم بين العرب واليهود ، ويمكنهما من العمل معا لتقدم البلاد ولخدمة الانسانية .

سيعترض البعض على هذا الحل قائلين اين تذهب ملايين اليهود المضطهدة ؟ على المعترضين ان يعلموا ان ايجاد مملكة يهودية في قسم من فلسطين او فيها اجمع ، لا يحل المشكلة اليهودية ، بل يعقدها ، ويزيد في عدد المضطهدين منهم ، كما رأينا ذلك فيما تقدم . ولذا فان مصلحة اليهود عامة تقضي بايجاد حل لمشكلتهم خارج فلسطين .

انني لا اود الدخول في تفاصيل هذه المسألة . غير انه يجب القول اجمالا بان ليس من العدل ولا من الصواب حل المشكلة اليهودية على نفقة شعب آخر ، ولا يحق لاحد نزع بلاد شعب واعطاؤها لشعب آخر ، مهما كانت تلك البلاد قليلة السكان ، اذ لسكان تلك البلاد وحدهم الحق في خيرات بلادهم .

ومن حلول المشكلة اليهودية ايجاد بلاد واسعة تستطيع استيعاب بني اسرائيل ، على ان يكون اهل تلك البلاد راغبين في سكنى اليهود بينهم من تلقاء انفسهم وعن طيب خاطر . فتحل عندئذ المشكلة اليهودية دون ان توقع

اضرارا بالغير . وليس هذا فرضياً ، فقد عرضت الروسيا على اليهود مقاطعة « بيروبيدجان » ، ومساحتها معادلة لمساحة هولندا وبلجيكا معاً ، مع قرض مالي للمهاجرين اليهود، لتكون، تلك المقاطعة، جمهورية يهودية مستقلة استقلالا داخليا . وقد توطن فيها حتى الآن نحو خمسين الف يهودي . فلو ان الصهيونية صرفت مجهوداتها في هذه البلاد الواسعة التي عرضتها عليها الروسيا ، لاسعفت ملايين اليهود المضطهدين ، ولحافظت على المكانة التي لليهود في البلاد العربية

على ان الفكرة الصهيونية التي تعمل على جعل الديانة الموسوية جنسية يهودية ، والتي تريد جمع معظم بني اسرائيل في مكان واحد تجعل منه مملكة خاصة بهم ، لهي فكرة تعود على يهود العالم باضرار عظيمة من الوجهتين الدولية والاقتصادية :

ان ايجاد جنسية وبلاد خاصة باليهود ، يجعل سكان جميع البلاد الاخرى ينظرون الى اليهود الذين يعيشون بينهم اغراباً، ويحملهم على ان يعملوا لاخراجهم من بلادهم، كما اسلفنا.

وان اكبر عامل على ثراء اليهود ، واستيلائهم على الاسواق المالية العالمية ، وتربعهم في اهم المراكز في مختلف الدول ، وتمكنهم من نشر نفوذهم على مؤسسة جنيف وعلى السياسة الدولية ، هو انتشارهم في مختلف البلدان ، واكتسابهم جنسيتها . فلو ان السياسة الصهيونية تحققت منذ سنين ، لما رأينا اليوم مسيو بلوم على رأس الحكومة الفرنسية ، والسر جون سايمن وزيراً لمالية بريطانيا وهور بليشا وزيراً لحربيتها ، وآخرين غيرهما من اليهود يتقلبون في مختلف وزاراتها ، والرفيق ليتفينوف وزيراً لخارجية الروسيا ...

ولليهود مقدرة فائقة في التجارة ، غير انهم لا يثرون ان وجدوا وحدهم. فاذا تمكن الصهيونيون من جمع بني اسرائيل في مكان واحد ، كسدت تجارتهم وزالت ارباحهم ، وفقدوا المركز المالي الدولي الذي يتمتعون به ...

يظهر لنا ، لجميع هذه الاسباب ، بان خير حل للمشكلة اليهودية ، هو

الحل الذي يحفظ لبني اسرائيل عوامل سر نجاحهم في جميع اعمالهم . وهذا الحل يتكون في ايجاد وضعية دولية خاصة باليهود . اي ان يعيش اليهود في البلاد التي هم فيها ، وان يكونوا مخلصين نحو حكوماتها ، ويقومون بجميع الواجبات التي يقوم بها أهل البلاد : وان تعترف لهم هذه الدول بحقوق خاصة فيما يتعلق بديانتهم وعاداتهم ولغتهم . وان تكون هذه الحكومات مسؤولة عن ذلك امام مجلس دولي ، سواء اكان عصبة الامم ام غيرها . وتكون في الوقت عينه فلسطين مركزاً روحيا وثقافيا لهم . كما ذكرنا ذلك اعلاه . وهكذا يعيش اليهود بسلام ، ويستفيدوا من المحيط الذي هم فيه . وتتوطد علاقاتهم الروحية والثقافية بفلسطين . بهذا تحل المشكلة اليهودية والقضية الفلسطينية معاً . وحينئذ لا يذهب اليهود ضحية شعور قومي مصطنع ، يعود عليهم وعلى غيرهم بعظيم الاضرار .

* * *

ان الحكومة المنتدبة مسؤولة عن ما يقع في فلسطين من اضرار للعرب واليهود والانكليز انفسهم . لانها لم تتبع سياسة عادلة قابلة التنفيذ ، ولانها لم ترجع عن هذه السياسة عندما رأت سوء عواقبها . واجب الحكومة المنتدبة ان تحل القضية الفلسطينية حلا عادلا ، يزيل اسباب العداء بين العرب واليهود ، ويكون حلا نهائيا .

يجب على حكومة جلالته انصافا للعرب ، وخدمة لفائدة اليهود عامة ، وحرصا على المصالح البريطانية ، ان تترك سياسة « ترك الامور تسير على اعنتها » وان تعدل عن الحلول الموقتة ، فتفهم الصهيونية ان واجباتها بخصوص « الوطن القومي اليهودي » قد انتهت ، وانها قد قامت بما وعدتها به ، وبما اوجبه عليها صك الانتداب .

على الحكومة ايقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين ، لانها بلاد عربية لا يمكن ان يسلم العرب بتهويدها ، ولان مقدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب قد

انتهت ، فعادت المهاجرة على اهل البلاد باضرار عظيمة ، واستمرارها يخالف للمادة السادسة من صك الانتداب ...

وعلى الحكومة المنتدبة ان تمنع بيع اراضي العرب الى الصهيونيين ، لانها قليلة ولا تسد حاجة المزارعين من العرب . وقد اوجد انتقال هذه الاراضي الى الصهيونيين طبقة عظيمة من المزارعين الذين هم الان بدون ارض ولا عمل ... واستمرار بيع الاراضي العربية الى الصهيونيين يخالف روح صك الانتداب ونصه ، الذي يقضي بالمحافظة على حقوق اهل البلاد ووضعيتهم .

وعلى الحكومة المنتدبة انهاء الانتداب ، وتأسيس حكومة وطنية بنسبة السكان ، مسؤولة امام برلمان ينتخبه سكان البلاد ، ويمثل فيه العرب واليهود حسب نسبتهم العددية . وتعقد الحكومة البريطانية مع حكومة فلسطين معاهدة صداقة ، تضمن لها مصالحها في فلسطين ، كما فعلت مع العراق ، وكما فعلت فرنسا مع سوريا . ثم تدخل الحكومة الجديدة عصبة الامم . فيزول الخلاف وتتوثق الصداقة بين العرب والحكومة البريطانية ، من جهه ، ويزول العداء بين العرب واليهود من جهه ثانية ...

هذا هو الحل العادل العملي للقضية الفلسطينية ، الذي يثبت الامن ويعيد السلام الى الارض المقدسة ، ويجمع بين مصالح العرب واليهود والحكومة البريطانيه . على ان تحقيقه يحتاج الى جرأة واقدام ، ويتطلب من حكومه جلالته حسن النية ، والحزم مع البرهان على ان النفوذ الصهيوني لا يسيطر عليها .

ملاحظة وشكر

جاء في مقدمة هذا الكتاب ، صفحة ٩ ، ان الفصل الخامس من الكتاب الثالث لم يوضع بالفرنسية . والصحيح انه كتب بالفرنسية ، وترجمته الى العربية مع تعديل واضافة . وكان بودي ان اضع فصلا سادسا ، وقد نوهت عنه ، الفت النظر فيه الى بعض الاعمال الواجب الاهتمام بها للتغلب على الصهيونية ، والتي لم تهتم بها القيادة في البلاد ، مع ذكر شيء عن نظام الاحزاب وضرر تعدادها في فلسطين . فوجدت ان ذلك يخرج عن موضوع الكتاب ، فعدلت عنه . غير اني آمل ان تسمح لي اوقات فراغي فاضع كتابا عن « السياسة والاحزاب في فلسطين » ، اتناول فيه بحث المواضيع التي لم تتسع لها دائرة هذا الكتاب.

تمت ترجمة هذا الكتاب وتم طبعه بمدة لا تزيد عن الشهرين . واضطرني ضيق الوقت الى ان لا اعيد النظر في معظم فصوله ، وان لا اقرأ مجموع الكتاب قبل طبعه اذ طبع كل فصل منه ، قبل ان انتهي من كتابة الفصل الذي يليه.

اشكر الاستاذين السيد عارف العزوني ، والسيد محمود سيف الدين الايراني ، صاحبي مطبعة الفجر ، لاعتنائهما بطبع الكتاب طبعا حسنا .

يافا — فلسطين
٣٠ مايو ١٩٣٧

يوسف هيكل


Bibliotheca Alexandrina
0653668